السيرة
النبوية
الفرنسية

السيرة النبوية الفرنسية

ISBN: 978-1-83590-072-7

المؤلف: محمد إلهامي

X.com/melhamy

t.me/melhamy

youtube.com/melhamy

melhamy.blogspot.com

fb.com/profile.php?id=100091925270490

goodreads. com/author/show/4479089

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

إسطنبول - تركيا

السيرة النبوية الفرنسية

ماذا قال المؤرخون الفرنسيون عن نبينا الأعظم ﷺ؟

محمد إلهامي

تقديم: د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

الهَيئَةُ العَالمِيَّةُ لأنْصَارِ النَّبِيِّ ﷺ

International Organization Of Sopporters Of The Prophet

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل مسلم أحب النبي ﷺ، ليزداد له حبا، ويزداد له تعظيما..

وإلى كل عاقل غير مسلم، لم تحجبه أسمال الكراهية ولم ترقد صخور الحقد على قلبه..

محمد

المحتويات

المحتوى	الصفحة
إهداء	٥
المحتويات	٦
تقديم فضيلة الشيخ د. محمد الصغير	٨
مقدمة	١١
كيف تكون السيرة فرنسية؟!	١٦
هل نحن بحاجة إلى شهادة غير المسلمين لنبينا ﷺ؟	١٨
لماذا الفرنسيون على وجه التحديد؟	٢٢
هل تكلم هؤلاء بالحق؟!	٢٥
متى بدأ تشويه النبي في الغرب؟	٢٨
محمد أعظم عظماء التاريخ	٣٩
فضل النبي على العرب والمسلمين	٤٨
فضل النبي على البشرية	٥٤
المقاتل الرحيم	٦١
بطل التسامح	٦٤
محرر المرأة	٧٦
غياث الضعفاء والفقراء	٨٤
من المولد إلى البِعثة	٩٢
الجاهلية	٩٤
بيئة النبي ونشأته	١٠٣
شباب النبي ورجولته	١١٢
المرحلة المكية	١١٩
نزول الوحي	١٢١
جمال القرآن وإعجازه	١٢٨
السابقون إلى الإسلام	١٣٥
الجهر بالدعوة وصدمة المجتمع المكي	١٤١
التعذيب والمحنة والهجرة إلى الحبشة	١٤٨
إسلام حمزة وعمر والحصار الطويل	١٥٦
عام الحزن ورحلة الطائف والإسراء والمعراج	١٦٤

التمهيد للدولة الإسلامية ١٧٢
المرحلة المدنية ١٧٩
الهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية ١٨٠
غزوة بدر وميلاد الدولة الإسلامية ١٨٦
الهزيمة الأولى للدولة الإسلامية ١٩٣
أخطر تهديد للدولة الإسلامية ٢٠١
الحديبية.. نقلة ضخمة ٢٠٩
الفتح الأعظم ٢١٩
عام الوفود.. وأخيرا صار للعرب قائد ٢٣٠
حجة الوداع ٢٣٦
وفاة النبي ٢٤٢
خاتمة ٢٤٨

تقديم فضيلة الشيخ د. محمد الصغير

رئيس الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ

أما النحت والسجع فيحسنه كل أحد، ولكن فاتحة الكتاب أو عنوانه فلا يسبكه إلا من أوتي توفيقا، وخط لنفسه بين المتميزين من الكُتاب طريقا، وهذا أول ما استوقفني في عنوان كتاب الأخ الكريم الأستاذ محمد إلهامي «السيرة النبوية الفرنسية» فيجعلك إما أن تدلف إلى محتوى الكتاب، وتفهم المراد بعد هذا التشويق المراد، وإما أن تدخل في معترك ويسهر الخلق جراها ويختصم...

قد يستغرب القارئ استهلالي بمستهل الكتاب وعنوانه،

وذلك لأنني أسير هذه المدرسة، التي تجعل من عنوان الكتاب موضوعا، وفي استهلاله ينبوعا، وخلال رحلتي مع دراسة تراث فضيلة الشيخ محمد الغزالي رحمه الله، كان ذلك يستوقفني كثيرا، فقد رَبَتْ مؤلفات الشيخ الغزالي على السبعين مؤلفا، لو استعرضتها لوجدت في كل عنوان، لونا خاصا من ألوان البيان، وصورة واضحة من صور التوفيق والسداد، ولعل من أشهرها عنوان كتابه «من هنا نعلم» ردا على ما

جاء في كتاب الأستاذ الكبير خالد محمد خالد «من هنا نبدأ».

ومن هنا بدأت هذه التوطئة لهذا الكتاب المبارك، الذي يتناول جانبا من شهادات المستشرقين الفرنسيين تحديدا، حول شخصية خاتم المرسلين ودعوته، وكتابة المنصفين عن سيد المرسلين لا تستغرب، فقد ظهر ذلك مبكرا في أكبر شهادة من أكبر رجل غربي في حينه، وهو هرقل عظيم الروم كما جاء في الرواية التي أوردها البخاري وغيره، عن الأسئلة العشرة التي وجهها لأبي سفيان في بداية الدعوة النبوية، وكان له تعليق على كل إجابة، بما يؤكد صدق الرسول وصحة الرسالة، وختم الحوار بقوله لأبي سفيان: «إن يكن ما تقول فيه حقا، فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أظن أنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي».

ولا أظن أن إفراد شهادات مستشرقين من دول أخرى ترقى إلى الشهادات الفرنسية، فهي أوقع من غيرها وأدل، لأن فرنسا معروفة بعدائها المتأصل للإسلام، بداية من معركة بلاط الشهداء، إلى الاستعمار الفرنسي الحديث، الذي كان يسعى لطمس الهوية الإسلامية، وإحلال اللغة والثقافة الفرنسية، في الوقت الذي كانت أهداف نظرائه من المحتلين، تتركز في المقام الأول على الموارد الاقتصادية والمواقع الجغرافية، وقبل كتابة هذه السطور، كنت أتابع أحد علماء السنغال وهو يتحدث عن إرغام المحتلين لأولاد المسلمين، على التعليم في مدارسهم والكلام بلغتهم، وكيف حاول العلماء مجابهة ذلك حتى قال أحدهم: «من أخذ بيد ولده إلى المدارس الأجنبية، أخذه ولده من يده إلى النار»!

وفي السنوات الأخيرة الماضية لم تفعل دولة أخرى مثل ما فعلت فرنسا، من

الإساءة إلى جناب النبي المكرم ﷺ، وتجريم النقاب، ثم منع الحجاب واعتباره رمزا دينيا، مع سياسة التضييق الممنهج على المسلمين في مساجدهم وشعائرهم، وهذا كله يجعل لشهادات الفرنسيين أبلغ الأثر، وترد على تطرف المعتصبين، وغلو جماعات اليمين.

لذا فإننا في «الهيئة العالمية لأنصار النبي ﷺ» نرى هذا الكتاب جولة من جولات الدفاع عن النبي الأعظم ﷺ، ونصرة علمية لجنابه المكرم، ومما نعبر به عن محبتنا لله تعالى وتقدس، واتباعا لنبينا، (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) آل عمران(٣١).

ونسأل الله أن يجعله لكاتبه وقارئه سببا للورود على حوض الكوثر، وشفاعة النبي الأكرم ﷺ.

كتبه/ محمد الصغير

في ٢٥ شوال ١٤٤٦هـ

الموافق ٢٣ أبريل ٢٠٢٥م

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله..

في واحدة من الحملات الفرنسية، التي ما تخمد حتى تنبعث مرة أخرى، خرجت الحكومة الفرنسية وعلى رأسها: الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون، ليتبنى رسوما مسيئة للنبي ﷺ، فيعيد ترويجها ونشرها وتكبيرها لتكون جداريات ضخمة أو معلقة على مباني شاهقة، يزعم بذلك أنه يؤسس لمعنى «حرية التعبير»!

وهذه «الحرية» هي الغطاء الشفاف المزخرف الذي يتغطى به الغرب حين يريد أن يسيئ إلى أحد ويستبيح سبه وشتمه وإهانته، فأما إذا لم يرد، فإنه سرعان ما ينسى حرية التعبير ويتكلم عندها عن «جريمة الكراهية» و«العنصرية» و«التحريض اللفظي»... إلخ!

ولقد فوجئ ماكرون بحجم السخط الذي انتشر في العالم الإسلام ضد فرنسا وحكومتها، والذي سرعان ما تحول إلى حملة شعبية لمقاطعة المنتجات الفرنسية، فطفق ماكرون في محاولة إخماد هذه الحملة، فرَتَّب هو وبعض أركان حكومته

زيارات إلى عدد من البلدان الإسلامية، وإلى مشيخة الأزهر الشريف في مصر، وخرج على شاشة قناة الجزيرة (التي يتابعها الإسلاميون في العادة) ليحاول تحسين صورته، وشرح أن هذا كله لا يعني معاداة الإسلام ولا الإساءة إلى نبي المسلمين، وإنما هو مقتضى الإيمان الغربي بحرية التعبير.

ومنذ ذلك الوقت، سارت السياسة الفرنسية على مسارين متوازيَيْن؛ فهي في وسائل الإعلام لا سيما العربية والناطقة بالعربية تجتهد لتقول بأنها لا تعادي الإسلام ولا المسلمين. وأما في واقع الحال فقد شنت الحكومة الفرنسية حملات متتابعة قانونية وغير قانونية لإغلاق العديد من المساجد والمؤسسات الإسلامية وإصدار العديد من التشريعات والقوانين التي تضيق على المسلمين وتسلبهم حقوقهم في ممارسة دينهم، وتُلزمهم بالخضوع لما تسميه «قيم الجمهورية الفرنسية»، وأن يكون هذا مقدما لديهم على أصول دينهم.. ولا تزال هذه الحملة مستمرة حتى لحظة كتابة هذه السطور.

وفي ذلك الوقت، في شهر مارس من عام ٢٠٢٢، وبينما كنت مشغولا بمتابعة الحملة المباركة، حملة مقاطعة المنتجات الفرنسية، إذ انبثقت فكرة هذا الكتاب في رأسي، لكنها كانت في ذلك الوقت فكرة حلقات مصوَّرة، نسرد من خلالها سيرة النبي ﷺ من خلال مقولات وآراء المستشرقين والمؤرخين والباحثين الفرنسيين!

ربما بدا الأمر صعبا، ولكني كنت قد مررت بتجربة بحثية قبل نحو خمسة عشر عاما، قرأت فيها الكثير من كتب المستشرقين حتى صارت لدي حصيلة جيدة منها، وتكونت عندي بعض الخبرة في دروبها ومسالكها، فراقت لي الفكرة، وشرعت في جمع المادة من بطون الكتب التي كتبها المستشرقون والمؤرخون الفرنسيون، وهي

الكتب المترجمة إلى العربية، إذ إني لا أجيد الفرنسية، بل إن الفرنسية كانت أصعب مادة درستها، مع أن سائر الأصدقاء كان يستسهلها، وقد كادت هذه المادة -لولا فضل الله، ثم شدة مثابرتي معها- أن تودي بي في مصيري الدراسي، والحمد لله الذي سلَّم!

كان ذلك كله قبيل شهر رمضان من عام ١٤٤٣هـ، وقد أكرمني الله بتيسيره، فسرعان ما تيسرت لي كاميرا وصديق مصور وصديق تكفل بالمونتاج، وما هي إلا أيام حتى كان قد تم تصوير هذه الحلقات، ثلاثين حلقة كل منها في عشرين دقيقة تقريبا، وبُثَّت في رمضان على قناتي اليوتوبية، ثم بثت فيما بعد على عدد من الفضائيات.

وجاءتني ردود أفعال طيبة، والحمد لله على فضله، ومن بين هذه الردود تكرر الطلب مني لتحويل هذه الحلقات إلى كتاب، وهو ما لا يمكن التفكير فيه لكثرة المشاغل وضيق الوقت، لكن الله شاء أمرا آخر.

أبو عبد الرحمن.. شاب لا أعرفه ولم ألتقِ به قط، وما زلت لا أعرف عنه إلا هذا الاسم الذي عرَّف نفسه به. كان أبو عبد الرحمن يلح علي بالمراسلة يريد أن يخدم بما يستطيع، والواقع أني أستحيي وأخجل أن أطلب من أحد شيئا أو حتى أن أستجيب إلى طلبه دون أن يكون عندي أجر ذلك، حتى ولو على سبيل الهدية والمكافأة، لكن إصرار الرجل وإلحاحه، وبقاءه على هذا الحال شهورا طويلة جرأتني لأطلب منه تفريغ هذه الحلقات إلا نصوص المستشرقين نفسها فإنها موجودة عندي بالفعل ولا داعي ليرهق نفسه بإعادة كتابتها، وما هي إلا مديدة حتى كان قد فعلها مشكورا، وانتهى منها، بل زاد على التفريغ أن بحث عن ترجمات

للمستشرقين ولبعض الأعلام المذكورين بالحلقات، وعن أسمائهم بالفرنسية. وزاد على ذلك هوامش وحواشي كثيرة لتوضيح النص الأصلي، فسائر ما في هذا الكتاب من حواشي هي من عمله!

فلولا عمله هذا ما كنت فكرت في إخراج الكتاب، فلله الفضل أولا، ثم لصاحبنا هذا الذي لا أعرفه!

بقي أن يأخذ أحدهم هذا الكلام المفرغ من السلسلة المصورة، ثم يدمج معه النصوص الاستشراقية، ويكون ذا حس لغوي وبحثي بحيث يعيد تحرير الكلام بنقله من السياق المصور وما قد يختلط فيه من لهجة عامة وتعبيرات شعبية ليكون لغة لائقة بكتاب مسطور.

وبينما أفكر في هذا، وقد طال الوقت، حتى التقيت في إحدى الفعاليات بأخي الكريم د. سميح عبد الرحمن، فعرضت عليه الأمر، فوافق مشكورا ومأجورا، وأخذ الحلقات فعمل عليها كما طلبت، بل صار يزيد في وضع نصوص وتخريج آثار ونحو ذلك مما لم يرد في الحلقات، يبتغي بذلك جودة العمل، فلما رأيت هذا منه رأيت أنه مما لا يحل لي أن يخرج الكتاب باسمي وفيه كل هذا المجهود المبذول منه، فأوقفته عند الحلقة الثالثة ليقتصر على الكلام الوارد في الحلقات فحسب، ثم ليحتفظ بمجهوده هذا في عمل يخرجه هو فلا يُنسب الفضل ولا العلم إلا لصاحبه، وأعوذ بالله أن أكون ممن يلبس ثوبي زور.

وهكذا لم يبق إلا أن أنظر النظرة الأخيرة على الكتاب، فأقرأ وأصحح وأعمل فيه القلم بما يبدو لي، وأعيد ترتيب بعض الحلقات، وأدرج فيه حلقة صُوِّرت لكنها لم تُذَع لحصول مشكلة فنية فيها كانت عصية على المعالجة والاستدراك.. ولكني

لضيق الوقت أحجمت عن هذا زمنا بلغ أكثر من السنتين! حتى خجلت من نفسي وضعف همتي فأخذت أستدعي الكتاب من أروقة الجهاز، لأعمل عليه.

من هنا، فلا بد لي أن أقدم في هذه الأسطر شكري الجزيل والوافر لكل من: د. عمر طلعت الذي سعى في توفير المصور، والأخ المصور محمود فهمي، والأخ الكريم مصطفى الشرقاوي الذي تولى مونتاج الحلقات وتصميم التتر واستأذن من المنشد الكويتي المعروف أحمد النفيس في استعمال نشيده «هو في قلبي الرجل الأعظم»، ثم بثه على قناته «شؤون إسلامية». ثم الشكر الجزيل لأبي عبد الرحمن ود. سميح عبد الرحمن. مع التنبيه إلى أن أي خطأ فإن مسؤوليته تقع على عاتقي وحدي.

سائلا ربي جل وعلا أن يجعل ذلك علما نافعا خالصا لوجهه الكريم

محمد إلهامي

اسطنبول، صبيحة الجمعة، ١٨ إبريل ٢٠٢٥م

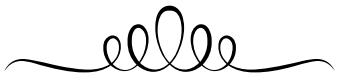

كيف تكون السيرة فرنسية؟!

ما زلت منذ بدأت الفكرة حتى قبيل بث البرنامج وأنا متحير في اسم له، يحقق مقصوده ويكون طريفا جذابا، فلا يميل إلى جاذبية خداعة، ولا إلى اسم ثقيل يعبر عن المحتوى لكن لا يجذب المشاهد.

والحق أنني حتى الآن، وبعد سنتيْن من ذلك الوقت، أجدني متقلبا في هذا الاسم «السيرة النبوية الفرنسية»، فأراه حينا قد حقق الغرض، وأستثقله أحيانا لأسائل نفسي: كيف تكون السيرة فرنسية؟ وما وقع عنوان «السيرة النبوية الفرنسية» في أذهان الناس.

ولما سألت بعض الأصدقاء مستطلعا آراءهم وقع الانقسام لديهم أيضا، فبعضهم طرب له ورآه عبقريا، وبعضهم استثقله واستشكله وأنكره. ولما لم أجد خيرًا منه حتى الآن، فقد خرج الكتاب بهذا الاسم نفسه!

هل نحن بحاجة إلى شهادة غير المسلمين لنبينا ﷺ؟

هذا أول سؤال سيثار عند معرفة هذا العنوان وفكرته.. وإجابةً عنه أقول بكل وضوح، وباختصار أيضا:

١. بداية، فنحن المسلمين لسنا بحاجة لشهادة أحد، فنحن نؤمن بنبينا محمد ﷺ، ونحبه، ونعظمه، ونجله، وننصره، لأننا مسلمون، وهذا مقتضى إيماننا، فنحن بمقتضى إسلامنا مرتبطون بالنبي ﷺ، مصدقون بنبوته ورسالته وإن كذّبه كل الناس، ونحن نحبه ونجله ونتعبد بحبه ولو كرهه أو أبغضه كل الناس، ونحن متوفرون على تعظيمه وتبجيله وتوقيره وإن سخر منه كل الناس: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾[الفتح: ٨-٩]؛ فحبنا للنبي وتعلقنا به واتباعنا له من أصول الإسلام، وبهذا، فنحن لسنا بحاجة إلى شهادة أحد.

ومع هذا، فنحن حين نأتي بأقوال من لم يُسْلِموا من مثقفي الغرب وباحثيه ومؤرخيه التي تشهد لنبينا ﷺ، فإنما نجري على ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[يوسف: ٢٦]، وهو المبدأ الذي جاء في القرآن الكريم في قصة سيدنا يوسف عليه السلام. ومن أمثال العرب قولهم: «والفضل ما شهدت به الأعداء»، وقد قال شاعرهم:

شـــهد الأنـــام بفضـــله، حتـــى العـــدا والفضـــل مـــا شـــهدت بـــه الأعـــداء

وقال الشاعر العباسي السري الرفاء مادحا:

وشـــمائلٌ شـــهد العـــدو بفضـــلها والفضـــل مـــا شـــهدت بـــه الأعـــداء

فدائما ما يكون لشهادة الأعداء في مدح خصومهم ثقلٌ ووزن، لأنها تخلو من شبهة المحاباة أو التملق، ولا تكون إلا عن جدارة واستحقاق.

ولئن كان من الطبيعي أن يمدح المسلم نبيه ﷺ، فهذا من مقتضى إيمانه، فليس كذلك إذا أتي المدح والثناء من العدو ومن غير المسلم، فتلك حينئذ شهادة واعتراف بعلو وسمو مكانة النبي ﷺ وعظيم فضله.

وإن ثناء أعداء النبي ﷺ وخصومه عليه متكررٌ كثيرا في التاريخ، سواءٌ ذلك في حياته أو بعد مماته ﷺ، ومنه موقف أبي سفيان يوم كان في ذروة العداوة مع النبي ﷺ قبل إسلامه، وذلك لما تزوج النبي ﷺ ابنة أبي سفيان: أم حبيبة رملة، وكانت قد أسلمت وهاجرت وتوفي عنها زوجها، فلما بلغ نبأ ذلك الزواج أباها أبا سفيان قال: «هو الفحل لا يقدع أنفه»[1]، فشهد له بأنه كفء وند.

إذن؛ فهذا هو السبب الأول للاستدلال بشهادات الخصوم والأعداء، أو على الأقل شهادات غير الأتباع: أنها شهادات غير مجروحة، وبعيدة عن المحاباة والتملق، وتشير إلى عظمة الإنجاز الذي حققه نبينا ﷺ.

٢. وأما السبب الثاني فهي قناعة تشكلت بالممارسة والخبرة من خلال الخطب والدروس والمحاضرات، وهي أنه حين آتي بشهادات الغربيين لنبينا ﷺ أشعر أنها تؤثر في الناس أكثر من غيرها، وهذا في واقع الأمر شيء طبيعي ومفهوم، وذلك أننا أمة مهزومة،

(١) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري ص ٤٣٩، تاريخ الطبري ٢/ ٦٥٤، وضعفه البرزنجي في صحيح وضعيف الطبري ٧/ ١٨٢، ولم يزل العلماء يستدلون بها الأثر ويتناقلونه فيما بينهم لصحة معناه على كل حال.

ولأن الغرب هو الذي غلبنا وهزمنا وتسلط علينا وتمكن من بلادنا، وثمة قاعدة مشهورة في طبائع الناس أشار إليها حكيم التاريخ ابن خلدون، وأفرد لها فصلا في كتابه الأشهر «المقدمة» بقوله: «فصل في أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزِيِّه ونِحلته وسائر أحواله وعوائده»، وهي ما يُعبِّر عنه المعاصرون بقولهم «عقدة الخواجة»، ويُقصَد بها ما تولد لدى الشعوب العربية والشعوب المسلمة من شعور بالنقص والدونية أمام الأجنبي الغربي الغالب المنتصر المتفوق، فتجد الجماهير، بل أكثر النخب والباحثين يقبلون المعنى إذا جاء من غربي، بينما يردُّونه ويرفضونه إذا جاء من عربي ومسلم.

ومن هنا تجد الكثير من المثقفين يحبون أن يتفاخروا بما يحفظونه من أسماء ونقولات عن الفلاسفة الغربيين، فتجدهم يستشهدون في كلامهم بميشيل فوكو ونيتشه وهيجل، أو حتى بالأقدمين من فلاسفة اليونان مثل: سقراط وأفلاطون وأرسطو. وما هذا إلا تأثرا بـ«سلطة الثقافة الغالبة» كما يسميها الشيخ الأسير إبراهيم السكران، فرج الله عنه.

فلذلك حين نرى أن هذا الغربي الغالب المتمكن، والذي هو ضمن بيئة عدائية تجاه الإسلام ونبيه، حين نراه يشهد لنبينا ﷺ ويمدحه، فإن هذه الشهادة -في الواقع الذي رأيناه عيانا، والذي تدل عليه الأحداث، وتشهد به طبائع الاجتماع- تكون أكثر تأثيرا من شهادة غيره.

فمثلا؛ حين أتكلم عن شهادة بعض الهنود، أو بعض الروس لنبينا ﷺ، فإن هذه الشهادة لا تكون بنفس التأثير التي تكون بها شهادة الغربي للنبي ﷺ.

إضافة إلى ذلك، فإن مثل هذه الشهادات تثبت الإيمان عند بعض الناس ممن تأثر وولع بالثقافة الغربية، فإن كثيرا من هؤلاء لا يقبلون هذه الحقائق إذا تحدث بها عالم أو باحث مسلم، في حين أنهم يقبلونها إذا تحدث بها الغربيون. وهذه الشريحة من المسلمين -التي ربما تعاني بعض اهتزاز الإيمان لضعف شأن المسلمين، وتعاني الانبهار بالغرب لتفوقه المادي- في حاجة إلى أن نخاطبهم، ونقول لهم: تعالوا تعرفوا على النبي ﷺ

واطلعوا على إنجازه وإعجازه من خلال كتابات وآراء هؤلاء المفكرين الغربيين الذين تحترمونهم وتقبلون منهم ما لا تقبلون منا نحن.

لماذا الفرنسيون على وجه التحديد؟

وهذا سؤال آخر يثار إذا سُمِع عنوان «السيرة النبوية الفرنسية».. لماذا لا تكون السيرة الغربية، أو الأمريكية أو البريطانية... إلخ!

وإليك الجواب..

فالسبب الأول: أن هذا البرنامج وُلِد في خضم هجمة فرنسية على النبي ﷺ، وليس المقصود بها هذه التي اندلعت في مطلع عشرينيات القرن الحادي والعشرين، فإن فرنسا في العقود الأخيرة هي أشد البلاد الغربية في التضييق على المسلمين، بداية من منع حجاب الطالبات المسلمات في المدارس، ووصولا إلى الدفاع عن الرسومات المسيئة للنبي الكريم ﷺ.

ومن هاهنا كان التركيز على الفرنسيين هو الأنسب والأليق بهذا الدفاع والاحتجاج لنبينا الأعظم ﷺ.

والسبب الثاني: أن فرنسا هي أكثر الدول عداءً للإسلام عبر تاريخها، فتاريخ جرائمها الاستعمارية في بلاد المسلمين أشد قتامة ووحشية من غيرها من الدول الغربية التي احتلت بلاد المسلمين خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ويكفي ما صنعته في الجزائر شاهدا على تاريخها الإجرامي، إضافة إلى أن الحكومات الفرنسية المتتابعة خلال العقد

الأخير[١] قد زادت من حملات التضييق على الأقلية المسلمة[٢] التي تعيش في فرنسا[٣]، ورفعت لواء حماية المسيئين إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام تحت ذريعة حرية التعبير[٤]. وكان آخر حملات الإساءة للنبي ﷺ في فرنسا في أكتوبر من العام ٢٠٢٠، تلك الحملة التي واجهت سخطا هائلا من الشعوب المسلمة، وانطلقت بسببها حملة شعبية مباركة لمقاطعة المنتجات الفرنسية ما زالت مستمرة لقرابة العامين في وقت كتابة هذه السطور، وقد وُضِعَت مسودة هذا الكتاب في هذا الظرف الأخير تحديدا.

والسبب الثالث الذي دفعني لاختيار المستشرقين الفرنسيين دون غيرهم: يتعلق بمكانة فرنسا العلمية والثقافية في أوروبا، فمعلوم أن فرنسا تحديدا كانت لفترة طويلة من التاريخ الحديث هي حاملة لواء الثقافة في أوروبا، ودائما ما كان يُنْظَرُ للمفكرين الفرنسيين باعتبارهم المعيار والمقياس، وأنهم حملة مشاعل النور، خصوصا خلال العصر الذي يسمونه عصر التنوير، الذي كانت فيه القيادة الفكرية الأوروبية مع فولتير[٥]، وجان جاك

---

(١) العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين.

(٢) تعد فرنسا أكبر الدول الأوروبية من حيث عدد المسلمين، فحتى منتصف ٢٠١٦، كان يعيش فيها نحو ٥,٧ ملايين مسلم (بنسبة ٨,٨٪ من السكان)، طبقا لإحصائيات مركز دراسات «pew research center» المختص بانتشار الديانات.

(٣) في ٢٠٢١ زادت وزارة الداخلية الفرنسية من حملاتها على المساجد والمراكز الإسلامية والجمعيات الخيرية ومدارس الجالية المسلمة، وأغلقت العشرات منها، كما شرع البرلمان في إعداد قوانين تضيق على المسلمين، بذريعة مكافحة الانفصالية الإسلامية، وإعلاء مبادئ الجمهورية الفرنسية!

(٤) في ٣ نوفمبر ٢٠١١، نشرت صحيفة شارلي إبدو الفرنسية في صفحتها الأولى رسمًا كاريكاتوريًا مسيئا للنبي محمد ﷺ. وفي ١٢ سبتمبر ٢٠١٢، أعادت الصحيفة نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي ﷺ، وأكد رئيس الوزراء حينها جان مارك ايرولت أن حرية التعبير تشكل أحد المبادئ الأساسية للجمهورية.

(٥) **فولتير (١٦٩٤ – ١٧٧٨)**: أشهر فلاسفة فرنسا في عصر التنوير، عرف بطريقته الساخرة ودفاعه عن الحريات، كان غزير الإنتاج، وتناول إنتاجه سائر الأشكال الأدبية كالمسرحيات والشعر والروايات والمقالات والأعمال التاريخية والعلمية وأكثر من عشرين ألفًا من الخطابات، وتأثر به العديد من الشخصيات التي تعد ملهمة للثورتين الأمريكية والفرنسية.

روسو[1]، ومونتسكيو[2]، وغيرهم. فلذلك حين يشهد الفرنسيون على وجه التحديد للنبي ﷺ فهذا يمثل نوعا من التفوق الخاص داخل التفوق الأوروبي العام؛ فلأجل هذا فكرنا في أن نأتي بتعليقات وآراء بعض الباحثين والكتاب الفرنسيين في سيرة النبي ﷺ.

من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب، ومن المعلوم أن كثيرا من المؤرخين والمستشرقين الفرنسيين كانت لهم انتاجات وإسهامات في كتابة سيرة النبي ﷺ والتعليق عليها، وفي كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك كجزء من حركة الاستشراق الغربية لمعرفة ودراسة أحوال المسلمين، فرأيت أنه قد يكون من المفيد أن نستكشف ونستعرض ما كتبه هؤلاء الباحثون والمؤرخون الفرنسيون عن النبي ﷺ، ليكون بمثابة رد النخبة الفرنسية المثقفة العالمة بتاريخ الإسلام والمسلمين على حملات الإساءة والتشويه الفرنسية للإسلام ولنبي الإسلام ﷺ. إضافة إلى أنه ربما تُرجم هذا الكتاب إلى الفرنسية، فقرأ الفرنسيون حديث مفكريهم وفلاسفتهم عن الإسلام وعن نبي الإسلام، فربما ساهم هذا في اهتداء بعضهم، أو على الأقل يؤدي إلى خفوت حدة عداوتهم للإسلام والمسلمين، أو أن تهتز قناعاتهم التي ولدها الإعلام وشبكات النفوذ الغربي والتي تسيء للنبي ﷺ.

(١) **جان جاك روسو (١٧١٢ – ١٧٧٨)**: من أشهر فلاسفة عصر التنوير، ويعد واحدا من آباء الثورة الفرنسية، إذ كان لأعماله –بحسب ما يرى محبوه– تأثير كبير في التعليم والأدب والسياسة، يُعتبر كتابه: العقد الاجتماعي أحد الكتب الأساسية في الفكر السياسي والاجتماعي الحديث.

(٢) **مونتيسكيو (١٦٨٩ – ١٧٥٥)**: من أشهر فلاسفة عصر التنوير، وهو قاض وأديب، وإليه تعزى نظرية «الفصل بين السلطات» التي تعتمدها حاليا العديد من الدساتير عبر العالم، أثرت كتاباته وأفكاره في الآباء المؤسسين للولايات المتحدة أثناء كتابتهم للدستور الأمريكي.

هل تكلم هؤلاء بالحق؟!

هل معنى هذا أن هؤلاء المستشرقين الذين بحثوا و كتبوا قد توصلوا إلى الحق؟

هذا أمر يحسن أن أنبه إليه في هذا السياق؛ ففي حقيقة الأمر أن أكثر المستشرقين إنصافا واعتدالا في حديثهم عن النبي ﷺ يقعون في أخطاء، وذلك لاعتبارات كثيرة، إلا أننا بطبيعة الحال لا نقرهم على هذه الأخطاء، بل نشير إليها ونعلق عليها في سياق الحديث إذا لزم الأمر. ولكن الذي يهمنا في هذا السياق: إظهار ما توصلوا إليه من حقائق من خلال دراستهم لسيرة النبي ﷺ وحياته، وما كتبوه وشهدوا به في حق رسولنا ﷺ، وذلك على الرغم أن أغلب من استشهدت بهم في هذا الكتاب لم يسلموا، بل إن بعضهم كان متعصبا ضد الإسلام والمسلمين، ومع ذلك فقد غلب عليهم الانصاف في حديثهم عن النبي صلى الله عليع وسلم.

وينبغي أن نعرف أيضا أن كثيراً من الناس الذين كتبوا عن النبي ﷺ، في أوروبا بشكل عام، كتبوا في مناخ مشبع بالعداوة تجاه كل ما يمت للإسلام بصلة، فكانوا بإنصافهم أو كتاباتهم الموضوعية عن نبي الإسلام يسبحون عكس التيار؛ إذ إن كتاباتهم كانت بمثابة هدم المقدسات الثقافية المستقرة في الموروث الثقافي الغربي منذ الحروب الصليبية، لذلك سنجد في كتاباتهم أحيانا أنهم كانوا يراوغون في الحديث، ويقدمون بمقدمات طويلة

يحاولون فيها إثبات ما أرادوا إثباته من محامد النبي ﷺ، ويسوقون الأدلة والمبررات التي دفعتهم إلى مدح النبي ﷺ، كل هذا لأجل أن يلقى كلامهم الجيد المنصف عن رسول الله قبولا لدى القارئ الغربي الذي اعتاد على تلقي كل ما هو قبيح وشر عن الإسلام والمسلمين، في فترة كان هذا هو السائد في الثقافة الغربية.

وإذن، فليس معنى أنني نقلت عن هؤلاء المستشرقين الفرنسيين، أن ذلك إقرارٌ مني لأخطائهم، أو تزكية مني لكل ما جاء في كتبهم، وإنما أنا أقدم هؤلاء كنماذج للذين درسوا النبي ﷺ ولم يكونوا مسلمين، وتوصلوا بعد البحث والتمحيص والدراسة إلى ما فتح الله به عليهم من الحق، بحسب موضوعيتهم وإخلاصهم في تقصي الحق، وكذلك بحسب قوتهم في البحث والتتبع.

ومن نافلة القول أن نذكر أن هؤلاء المستشرقين الفرنسيين إنما نقلوا من مصادرنا نحن، بمعني أنهم عكفوا على كتب المؤرخين المسلمين، وكتب السيرة والسنة، دراسة وبحثا وتنقيبا، ثم كان لهم تعليقاتهم وآرائهم واستنتاجاتهم البحثية. ونحن هنا بصدد الوقوف عند هذه النتائج البحثية، والآراء العلمية، والتأملات الشخصية لأولئك المستشرقين حول سيرة النبي ﷺ.

وإنني وأرجو الله عز وجل أن يحقق هذا الكتاب هدفه الذي كتبته من أجله، وهدفه بوضوح هو: أن يتغير رأي القارئ سواء كان مسلما أو غير مسلم في نظرته للنبي ﷺ؛ فمن كان مؤمنا، فأسأل الله أن يزيده هذا الكلام المنقول عن خصوم النبي أو عن غير أتباع النبي إيمانا وتعظيما وحبا لرسول الله ﷺ؛ ومن كان غير مسلم فأسأل الله تبارك وتعالى أن يؤدي به هذا الكلام إلى أن يسلك طريق البحث والدراسة والتمحيص سعيا وراء الحقيقة، وألا يتصور أن كل مدح قيل في نبينا ﷺ إنما صدر عن مسلمين، أو حملت عليه عاطفة المسلمين، بل إن محض الدراسة الجادة الموضوعية، ومحض البحث الدقيق في تاريخه ﷺ سيؤدي بأي باحث أو قارئ إلى نتيجة واحدة؛ وهي أنه ﷺ كان أعظم عظماء التاريخ

على الإطلاق، وأنه شخص لا يمكن أن يتطرق الشك إلى صدقه أبدا ﷺ، وأنه لا يمكن إلا أن يكون رسولا من عند الله حقا وصدقا وقطعا.

متى بدأ تشويه النبي ﷺ في الغرب؟

إذا كنا في هذا الكتاب نستعرض السيرة النبوية من خلال كتابات المستشرقين الفرنسيين عن النبي ﷺ، ومدحهم له وإشادتهم بعظمته، فلعله من الجيد أن نشير هنا إلى أن هذه المرحلة من الكتابات العلمية المنصفة عن النبي ﷺ، المبنية على بحث موضوعي، ودراسة دقيقة للتراث الإسلامي وكتب المؤرخين المختصين، قد سبقتها مرحلة أخرى من التشويه المتعمد لسيرة النبي ﷺ وشخصه، وقد اصطبغت كتابات تلك المرحلة بالافتراء والكذب والتدليس، فضلا عن البعد عن الموضوعية وفقدان الأمانة العلمية، كما سيتبين معنا في هذا الفصل إن شاء الله.

وهنا سنحاول أن نعطي نموذجا سريعا عن تاريخ التشويه الذي لحق بشخصية رسول الله ﷺ في الكتابات الغربية، متى بدأ هذا التشويه للنبي ﷺ في الغرب؟ ولماذا؟ وما هي الصور التي اختزنتها الذاكرة الغربية عن نبينا ﷺ؟ ولماذا لم تتغير حتى الآن؟

تعد فرنسا، على وجه التحديد، أقدم عدو للإسلام لا يزال عداؤه باقيا ومستمرًّا إلى يوم الناس هذا، فمنذ اللحظة التي احتك المسلمون فيها بالغرب، وبدأت العداوات والصراعات تتشكل، وعلى مر العصور، تغيرت وتبدلت خريطة الأعداء والخصوم كثيرا كثيرا، فاختفى أعداء وظهر آخرون، وتحول البعض إلى حلفاء، ودخل آخرون في

الإسلام، ومع كل هذه التبدلات والتغيرات على مرِّ القرون الفائتة، بقي العداء الفرنسي للإسلام ثابتًا لم يتغير منذ لحظة الاحتكاك الأولى، وكثيرا ما حملت فرنسا لواء العداء الغربي للإسلام، وأبرز مثال على ذلك تصَدُّرُها لقيادة حملات الحروب الصليبية على بلاد المسلمين لعقود عديدة، وكانت الحروب الصليبية هي المدخل والبداية لما نتحدث عنه الآن.

إن الحروب الصليبية هي أشهر حدث صراعي تاريخي على الإطلاق في ذاكرة الشرق والغرب، في ذاكرة الإسلام والمسيحية، وهذا معروف مشهور في حقل الدراسات التاريخية، وحدثٌ كهذا كان لابد له أن يلقي بظلاله، ويطغى بآثاره على الكثير من جوانب الحياة المختلفة في الحضارة الغربية، والذي يهمنا الحديث عنه في هذا السياق هو أثر هذه الحروب على الإنتاج الثقافي والأدبي والفني للكتاب والمفكرين والمثقفين الغربيين، خاصة تجاه ما يخص الإسلام ونبي الإسلام.

إن البحث اليسير في الإنتاج الثقافي الغربي في فترة الحروب الصليبية يقودنا بوضوح إلى الجهود الفرنسية الحثيثة لتشويه سمعة الإسلام، ولرسم صورة شائهة قاتمة عن نبي الإسلام ﷺ، وهذا وإن كان أحد آثار الحروب الصليبية، ويُفهم في سياقها، إلا أننا يمكن أن نعتبره كذلك أحد محركاتها، إذ إن الفكر والتنظير دائما ما يسبق الحركة ويصاحبها، ودائما ما يكون حاضرا في سياق الصراعات، لوضع الأسس والدوافع الفكرية للحروب، وتقديم المبررات الأخلاقية لحشد الشعوب. وهذا ما أشار إليه أحد المستشرقين الفرنسيين، وهو هنري دي كاستري[1] في كتابه «الإسلام خواطر وسوانح»، وفيه يتحدث

(١) **هنري دي كاستري** (١٨٥٠م - ١٩٢٧م): عسكري برتبة مقدم، عاش بين الجزائريين زمنًا طويلاً، وهناك تعرف على الإسلام عبر مطالعته لأحوال المسلمين وأخلاقهم، فتأثر بهم وكتب عنهم عددا من المؤلفات، منها: «مصادر غير منشورة عن تاريخ المغرب»، «الأشراف السعديون»، «رحلة هولندي إلى المغرب»، «الإسلام خواطر وسوانح» وغيرها، ويعد من المستشرقين المنصفين في حديثهم عن الإسلام.

عن أثر الجهل بحقيقة الإسلام، وما وَلَّدَه من حقدٍ غربي، كان أساسا للحروب الصليبية، وظهور ذلك في كتابات وأشعار الغربيين.

يقول: «جميع أغانينا[١] -حتى التي ظهرت قبل القرن الثاني عشر[٢]- صادرة عن فكر واحد، كان هو السبب في الحروب الصليبية، وكلها محشوّة بالحقد على المسلمين بسبب الجهل الكلي بديانتهم، وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص في العقول ضد ذلك الدين، ورسوخ تلك الأغلاط في الأذهان، ولا يزال بعضها راسخا إلى هذه الأيام»[٣].

يؤيد نفس هذا المعنى المستشرق والمؤرخ الفرنسي الشهير مكسيم رودنسون[٤]، فيرجع أيضا إلى لحظة الحروب الصليبية، وأثرها على الإنتاج الأدبي والفني في تلك الفترة، وكيف أن الجهود ركزت على تشويه الإسلام والمسلمين لكي تلهب المشاعر، ولكي تجيش الجنود لصالح هذه الحروب، يقول:

«أوجدت الحروب الصليبية حاجةً كبيرةً ومُلِحَّة للحصول على صورة كاملة ومُسَلِّية ومرضية لأيديولوجية الخصوم، وكان رجل الشارع يرغب في صورة تبين الصفة الكريهة للإسلام، وهكذا حدث أن الكُتّاب اللاتينيين الذين أخذوا بين عام ١١٠٠ وعام ١١٤٠ على عاتقهم إشباع هذه الحاجة لدى الإنسان العامي، أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد دون أي اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» كما جاء في كلمات

---

(١) يقصد الأناشيد والأشعار

(٢) وهو قرن بداية الحروب الصليبية

(٣) هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص٣٠.

(٤) **مكسيم رودنسون** (١٩١٥-٢٠٠٤): أحد أشهر المفكرين والمؤرخين الفرنسيين، عالم اجتماع ودراسات شرقية، له عدة كتب ودراسات عن الإسلام منها: محمد (١٩٦١)، الإسلام والرأسمالية (١٩٦٦)، جاذبية الإسلام (١٩٨٠)، الإسلام: سياسة وإيمان (١٩٩٣).

ر. و. ساوثرن[1]، فكان محمد (في عُرْفِهم) ساحرا هدم الكنيسة في إفريقيا وفي الشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية، واستعملت أساطير من الفولكلور العالمي ومن الأدب الكلاسيكي ومن القصص البيزنطية عن الإسلام، وحتى من المصادر الإسلامية (بعد تشويه باطل من قبل المسيحيين الشرقيين)، كل هذه الأشياء استخدمت لتزيين الصورة، يحدثنا ساوثرن أن جيبرت دو نوجنت اعترف بأنه لا يوجد لديه مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة، وأنه لا يوجد لديه أي وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال في الختام بسذاجة تكشف عن الأساس الحقيقي لكل نقد الأيديولوجيين: لا جُناح عن الإنسان إذا ذكر بالسوء من يفوق خُبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء»[2].

يتحدث رودنسون في هذا النص عن الحاجة التي أوجدتها الحروب الصليبية لحشد العامة وتجييشهم ضد الإسلام والمسلمين، فكان هذا هو الدور الذي قام به الكتَّاب المتعصبون، فانطلقت أقلامهم تكتب لتشويه الإسلام، وللطعن في نبي الإسلام ووصفه بكل نقيصة، وجمعوا في سبيل ذلك الخرافات من الشرق والغرب، بلا علم ولا أخلاق ولا حتى مراجع مكتوبة، بل وصل الأمر ببعضهم -وهو جيبرت دو نوجنت- إلى الاعتراف بأنه ليس لديه مصادر، وإنما يعتمد على آراء العامة، وخرافات الفلكلور، ثم يرى أن لا جناح عليه إذا كذب وافترى، فإنه إنما يفعل ذلك في شأنِ رجلٍ يرى هو أن خبثه يفوق كل سوء -يعني بذلك رسول الله ﷺ حاشاه المعظم المطهر صاحب الخلق الرفيع- ، وهذا نص كاشف لأحد أهم الأسباب وراء التشويه المتعمد لصورة النبي ﷺ في كتابات الغربيين.

---

(١) **سير ويليام ريتشارد ساوثرن** (١٩١٢-٢٠٠١): كاتب ومؤرخ بريطاني، كان مختصا في تاريخ العصور الوسطى.

(٢) مكسيم رودنسون، الصورة الغربية والدراسات الغربية والإسلامية، ضمن: تراث الإسلام، ص٣٣، ٣٤.

كان جيبرت دو نوجنت[1] من أوائل من شكلوا الصورة الذهنية الشائهة عن رسول الله ﷺ في الموروث الثقافي والعقل الجمعي الغربي، بكتاباته المتعصبة، المجافية للحق والعدل، والجائرة على قواعد البحث العلمي، فكانت هذه الكتابات حجر أساس بنى عليه كل من كتب بعده من المتعصبين عن النبي ﷺ، على الرغم من اعترافه المذكور، وهو ما يدل على أن أولئك الكُتَّاب في تلك المرحلة لم يكونوا مهتمين بمعرفة حقيقة الإسلام، وإنما حركهم تعصبهم وجورُهم في تشويه نبي الإسلام ﷺ.

يؤيد نفس هذه الفكرة، فكرة الحروب الصليبية وأثرها على كتابات الغربيين الشائهة عن النبي ﷺ، المستشرق الفرنسي إميل درمنغم[2]، فيقول حول هذا المعنى في كتابه «حياة محمد»[3]:

«لما نشبت الحرب بين الإسلام والنصرانية في قرون كثيرة، اشتد سوء التفاهم بين الديانتين بطبيعة الحال، وعلينا أن نعترف بأن الغربيين كانوا أسبق من المسلمين إلى إحداث هذا الخلاف، فبعد أن استخف رجال الجدل من البيزنطيين بالإسلام وازدروه من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة دراسته -خلا يوحنا الدمشقي[4] على ما يحتمل- جاء دور الكُتّاب والشعراء الطَوَّافين، فصاروا يحاربون المسلمين بأسخف المثالب، فصُوِّر محمدٌ

---

(١) **جيبرت دو نوجنت** (١٠٥٥-١١٢٤): قس كاثوليكي، كان رئيسا لدير صغير في فرنسا، من أشهر كتبه: تاريخ الحرب الصليبية الأولى، إضافة إلى مذكراته الشخصية.

(٢) **إميل درمنغم** (١٨٩٢-١٩٧١): مستشرق، عمل مستشارا بوزارة الخارجية الفرنسية، له أعمال عن تاريخ المسيحية وحياة الرهبان، ثم انتقل إلى الجزائر، ضمن إدارة الاحتلال الفرنسي، فاهتم بتاريخ الإسلام وحضارته، فتعلم العربية وقرأ مصادر تاريخ الإسلام، وكتب في ذلك كتبا أشهرها كتابه: حياة محمد.

(٣) صدر في عام ١٩٢٩، وترجمه إلى العربية: الأستاذ عادل زعيتر، ونشر بالقاهرة في عام ١٩٤٥م.

(٤) **يوحنا الدمشقي** (٦٧٦-٧٤٩): نصراني دمشقي في عصر الدولة الأموية، من أشهر علماء النصارى المشرقيين، وصاحب أهم دفاع وجدال عن النصرانية في عنفوان التفوق والسيادة الإسلامية، ولهذا كانت له مكانة خاصة في تاريخ المسيحية باعتباره الرجل الذي وطد أركانها في أقوى أزمنة التهديد الوجودي الذي تعرضت له، حتى وصفه المستشرق الأمريكي ذي الأصل اللبناني فيليب حتى بأنه أبرز مفاخر الكنيسة السورية في ظل الدولة الأموية.

كلصٍّ نياق وكخليع وكساحر وكرئيس عصابة من قطاع الطرق وكأسقف روماني غضب من عدم انتخابه بابا، وعُدَّ إلها زائفا يُقرّب له عبادُه القرابين البشرية، وحدَّث رجل الجدِّ[1] جيبرت دو نوجونت أن محمدا مات في نوبة سُكْر، وأن الخنازير أكلت جثته فوق مزبلة، وذلك ليفسِّر سبب تحريم الخمر وتحريم لحم الخنزير»[2].

في هذا النص يتحدث إميل درمنغم عن أن أغلب علماء اللاهوت من المسيحيين الشرقيين -يعني أبناء الدولة البيزنطية- نظروا للإسلام بازدراء، دون أن يهتموا بدراسته، أو بحثه بحثا موضوعيا كما يقتضيه تخصصهم، -عدا يوحنا الدمشقي إلى حد ما-، وهذا فتح الباب لغيرهم من الكتاب والشعراء ليلفقوا الأكاذيب حول النبي ﷺ فيصفوه بكل نقيصة. ويشير درمنغم كذلك إلى نفس الكاتب الذي مر معنا آنفا وهو جيبرت دو نوجونت ودوره البارز في رسم هذه الصورة المشوهة عن نبي الإسلام ﷺ.

ومن خرافات هذا المؤرخ الصليبي المتعصب -دو نوجونت- ادعاؤه بأن المسلمين يحرمون شرب الخمر وأكل لحم الخنزير لأن نبيهم وُجد ميتا من نوبة سُكْرٍ، في مزبلة، تأكل من جثمانه الخنازير[3]، مع أن أي بحث يسير سيكشف أن هذا التحريم إلهي منصوص عليه في القرآن، وهو ما يؤكد إلى أي مدى كانت هذه الكتابات تنضح بالتعصب، وتفيض بالكذب، وتجافي كل موضوعية، إلا أن كل هذا كان -في نظرهم- مبررا في سياق الحروب الصليبية، وما تفرضه من حاجة لتشويه العدو وهدم رموزه، وحشد وتجييش العامة والغوغاء وقودا للحرب.

---

(١) هنا يسخر الكاتب من جربرت دو نوجونت.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص١٤٠.

(٣) أستغفر الله و«ناقل الكفر ليس بكافر»، ولولا الضرورة في أن أوضح كيف كانت صورة النبي ﷺ شائهة إلى هذا الحد، وأن الذين شوهوها كذبوا عليه هذا الكذب، ما كنت استطعت أن أكتب أو أنقل هذا الكلام، ولكن لكي يتصور المسلم، ولكي يتصور حتى غير المسلم الذي يعيش في أيامنا هذه، الصور الكاذبة التي صنعت وفبركت واخترعت لتشويه النبي ﷺ، وكيف أن آثارها ممتدة حتى الآن في الموروث الثقافي الغربي.

يقول هنري دي كاستري، مستغربا ومستنكرا هذا الكلام، «مما يستغرب له المطالع أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح (مات سكرانا، نهشته الخنازير) في «تاريخ الحروب الصليبية الأولى» لمؤلفه جيبرت دو نوجونت، وهو معدود من المؤرخين الذين لا يميلون إلى التخريف!، غير أنه أتى بهذه الأكذوبة، وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ»[١].

يقرر كلود كاهن[٢] أن نبينا «محمدا، من بين مؤسسي الأديان كافة، هو الشخصية التي يتوفر حولها أكبر قدر من المعلومات التاريخية»[٣]، كأنه يشير بذلك إلى الكذب المتعمد في كتابات أولئك الكتاب المتعصبين، ذلك الكذب الذي تفضحه كثافة المعلومات التاريخية المتوفرة عن نبي الإسلام، لمن أراد أن يبحث ويتحرى الصدق.

وفي نص آخر لهنري دي كاستري، يفند فيه ادعاءات المتعصبين، يقول: «ذهبوا إلى أن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية! ومن المستغربات قولهم: إن محمدا -الذي هو عدوّ الأصنام، ومبيد الأوثان- كان يدعو الناس لعبادته في صورة وثن من ذهب»[٤].

كانت الصورة التي تُقدم للغربيين أن المسلمين يعبدون ثلاثة أصنام، صنمٌ منهم هو صورة محمد ﷺ!! ولهذا يستنكر الرجل كيف يكون عدو الأصنام وهادم الأوثان قد دعا اتباعه إلى عبادته في هيئة صنم، ثم يواصل مستغربا دقة أوصاف هؤلاء لهذه الخرافات كأنما كانوا ينطقون عن رؤية ومشاهدة، يقول: «ذهبوا إلى أن صورة ماهوم[٥] كانت تُصنع

---

(١) هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص٥٦.

(٢) **كلود كاهن** (١٩٠٩ - ١٩٩١م): مستشرق يهودي ماركسي فرنسي متخصص في العصور الوسطى، لا سيما الحروب الصليبية، وهو من أساتذة السوربون، لقب بعميد التاريخ الإسلامي الاجتماعي، وعدَّه البعض من أكثر مؤرخي القرن العشرين تأثيراً.

(٣) كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ص٣١.

(٤) هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص٣٠.

(٥) وهو تحريف من لفظ محمد وله دلالات سيئة في اللغة.

من أنفس الأحجار والمعادن، بأحكم صُنْع وأدق اتفاق، ومن قرأ وصفه في أناشيد «رولان»[1] كاد يحلف أن ذلك الشاعر إنما يصف عن خبر وعيان»[2].

يواصل فيقول: «لو سأل سائل: هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون؟ لأجبناه جواب أهل الفلسفة: لا ونعم، إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين، سهَّل للمنشدين -يعني للشعراء- معرفة الدين الإسلامي على حقيقته، ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية في أناشيدهم، بل حفظ روح البغضاء في نفوس قومهم»[3]، وهذا هو السبب في هذه الافتراءات والأكاذيب على الحقيقة.

من خلال هذا الاستعراض السريع لبعض نصوص المستشرقين، يتضح لنا السياق الذي ظهر فيه هذا التشويه المتعمد للإسلام ولنبي الإسلام ﷺ، ويظهر كيف ألقت الحروب الصليبية بظلالها على الإنتاج الفكري الغربي المتعلق بالإسلام، وكيف استغل بعض الكتاب المتعصبين هذا الظرف الصراعي التاريخي ليشوهوا صورة النبي ﷺ، متحررين في ذلك من أي قيم أخلاقية، بعيدين كل البعد في كتاباتهم عن أي موضوعية، أو ضوابط علمية متعلقة بالبحث والتأريخ.

لكن مع تطور الصراع على مر القرون، وتبدل الأوضاع عبر السنين، أصبحت بلاد المسلمين هي المطمع للاحتلال الغربي في صراعه مع الإسلام، وفي سعيه للسيطرة على موارد وثروات الكوكب. ومع نزول جيوش المستعمر الغربي إلى بلاد المسلمين، ظهرت الحاجة الماسة لفهم الإسلام على حقيقته، حتى يتسنى لهم فهم عقلية ونفسية الشعوب

---

(١) **أناشيد رولان**: ملحمة أدبية فرنسية مشهورة، تصور معركة بين جيش شارلمان بقيادة البطل الأسطوري رولان وأعدائهم من الوثنيين (المسلمين)، وحفلت القصيدة بأوصاف أسطورية وخيالية مكذوبة، غير أنها تمثل وثيقة مهمة في تصور المسيحيين عن المسلمين وعقيدتهم! وهو التصور الذي شَكَّل نفسية الأوروبيين لقرون طويلة.

(٢) هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص٣١.

(٣) هنري دي كاستري، الإسلام خواطر وسوانح، ص٣٣.

المسلمة، مما يسهل عليهم مهمة التعامل معهم، وإخضاعهم، والسيطرة على بلادهم.

من هنا ظهر جيل من المستشرقين الذي رفضوا هذه الأكاذيب والإدعاءات عن الإسلام وعن نبي الإسلام، وبدأوا في عملية طويلة من البحث الجاد الحثيث في كتب وتراث المسلمين، وتحلى الكثير منهم بالرغبة الحقيقية في إدراك الحقيقة الموضوعية للإسلام، بعيدا عن التعصب أو الوقوع في أَسْر الكتابات القديمة المشوهة عن الإسلام، وهذا البحث الموضوعي أنتج كتابات كثيرة اتصفت بالانصاف -مقارنة بالموروث القديم- في حديثها عن الإسلام وعن نبي الإسلام ﷺ.

من أشهر أولئك المستشرقين، الفيلسوف الفرنسي الشهير، صاحب النظريات المشهورة في علم الاجتماع جوستاف لوبون[1]، يقول في كتابه «حضارة العرب» عن النبي ﷺ: «إذا ما قيست قيمة الرجال بجليل أعمالهم، كان محمد من أعظم من عرفهم التاريخ، وأخذ بعض علماء الغرب ينصفون محمدا، مع أن التعصب الديني أعمى بصائر مؤرخين كثيرين عن الاعتراف بفضله»[2].

وفي ذات السبيل يتحدث المستشرق والقانوني السويسري المعروف مارسيل بوازار[3] في كتابه الرائع «إنسانية الإسلام» عن النبي ﷺ فيقول: «لقد سبق أن كُتِبَ كلُّ شيء عن نبي الإسلام، فأنوار التاريخ تسطع على حياته التي نعرفها في أدق تفاصيلها، والصورة التي

---

(١) **جوستاف لوبون** (١٨٤١ - ١٩٣١): فيلسوف ومؤرخ فرنسي، موسوعي الثقافة، كتب في فروع عديد من التاريخ والآثار والاجتماع والفلسفة والسياسة، وهو من أشهر فلاسفة الغرب وأوسعهم تأثيرا في القرن العشرين. من أشهر كتبه: حضارة الغرب الذين ننقل عنه هنا، وهو من أهم الكتب التي كتبها مستشرقون في بيان فضل الحضارة الإسلامية على العالم الإنساني وعلى التطور العلمي الغربي.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١١٦.

(٣)**مارسيل بوازار** (١٩٣٩-...): أستاذ جامعي ومفكر وقانوني ودبلوماسي سويسري، متخصص في العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، تنقل لسنين بين بلاد عربية وإسلامية ممثلا للصليب الأحمر، يعدّ كتابه «إنسانية الإسلام» علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام.

خلفها محمد عن نفسه تبدو، حتى وإن عُمِدَ إلى تشويهها، «علمية» في الحدود التي كُشِفَ فيها، وهي تندمج في ظاهرة الإسلام عن مظهر من مظاهر المفهوم الديني، وتتيح إدراك عظمته الحقيقية، ولا ريب أن تقدم نبي الإسلام يتلون تلوينات دقيقة تبعاً لمواقف ثلاثة: الرغبة النابعة من الود والاحترام، أو من السخرية، في إثبات أن الإسلام هو، على الأخص، من صنع رجل، والسعي إلى اتحاذ تطور البيئة الاجتماعية دليلاً لتفسير ظهوره، والاعتقاد بأنه كلام الله»[1].

ونختم الكلام هنا بنقل عميق عن الكاتب والسياسي الفرنسي ألفونسو دي لا مارتين[2]، يتحدث فيه عن النبي ﷺ بعد أن درس حياته، فيقول: «أكان هذا الرجل دعيا كاذبا؟ لا نعتقد ذلك، بعد أن محّصنا بالدرس تاريخه، إن الكذب منافقة الاقتناع، وليس للنفاق قوة الاقتناع، كما أن الكذب لا تكون له ألبتة قوة الصدق، فإذا كانت قوة الإسقاط في علم الميكانيكا هي المقياس الدقيق لقوة الدفع، فإن العمل –في مجال التاريخ– هو كذلك مقياس الإلهام، إن فكرة تبلغ ذلك المبلغ الرفيع ويكون لها ذلك الصدى الواسع، وتعمّر قرونا طويلة لهي فكرة على درجة عظيمة من القوة، ولكي تكون لها تلك القوة، فلا بد أن تكون صادقة كل الصدق مخلصة كل الإخلاص»[3].

ويواصل في فقرة أروع، فيقول: «حياته وخشوعه، وشجاعته في تسفيه آلهة قومه ومعتقداتهم، وجرأته في مواجهة سخط الوثنيين، وثباته على احتمالهم خمس عشرة سنة في مكة[4]، ورضاه بأن يكون مثار سخرية بني قومه، بل وبأن يكاد يكون ضحيتهم، وهجرته،

---

(١) مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ص٤٠-٤١.

(٢) **ألفونسو دي لامارتين** (١٧٩٠ - ١٨٦٩): شاعر وسياسي فرنسي، يُعدّ أحد أكبر شعراء المدرسة الرومانسية الفرنسية، خاض غمار السياسة، فتولى رئاسة الحكومة المؤقتة بعد ثورة ١٨٤٨، كان كثير السفر وأقام مدة في إزمير في تركيا، وله كتاب من ٧ مجلدات اسمه (تاريخ الأتراك) وكان مجلده الأول عن النبي ﷺ.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٣.

(٤) بقي النبي صلى الله عليه في مكة قبل الهجرة ثلاثة عشر سنة.

ودعوته دون هوادة، وحروبه المتفاوتة القيمة، وثقته بالنجاح والظفر، ونجاته بما يفوق طاقة البشر عند الهزائم، وعفوه وحلمه عند النصر، وطموحه إلى تحقيق فكرة لا إلى بناء ملك، وصلاته التي لا تنتهي، وحواره الصوفي مع الله، وموته وما حاز من مجد بعد وفاته، كل ذلك يشهد بأننا بإزاء ما يتجاوز الإدعاء، بإزاء إيمان واقتناع، فقد زوده إيمانه واقتناعه بالقدرة على بعث عقيدة»[1].

بذلك نرى كيف تكونت الصورة المشوهة عن الرسول ﷺ في الموروث الثقافي الغربي، وفي أي سياق تشكلت، ومتى بدأت تتغير أنماط البحث والكتابة عن الإسلام ونبيه ﷺ لدى المستشرقين الغربيين، مع أنها لم تمسح ذلك الأثر العميق المتجذر في العقل الجمعي الغربي عن الإسلام ورسوله ﷺ.

وأسأل الله تعالى أن يساهم هذا الكتاب في إزالة شيءٍ من هذا الموروث المشوه عن رسول الله ﷺ، ودعوته ورسالته، وأن يكون وسيلة لتقديم الحقيقة الناصعة عن سمو شخصيته، وعظمة رسالته، صلوات ربي وسلامه عليه.

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٣.

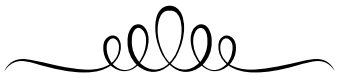

محمد أعظم عظماء التاريخ

ربما يسأل سائل: لماذا لم تستطع الكتابات الموضوعية التي ظهرت في عصور الاستشراق أن تزيل الصورة المشوهة عن نبينا ﷺ حتى الآن؟

والجواب: صحيح أن الكتابات المتعصبة القديمة الملأى بالخرافات قد ذابت وغاضت في بحور الأبحاث الجادة المكتوبة عن الإسلام ونبيه ﷺ، **لكن يجب الانتباه إلى أمريْن**:

الأول: أن حركة الاستشراق التي أنبتت كثيرا من المؤرخين لاستكشاف حقيقة الإسلام ونبيه لم تكن بغرض الاهتداء بل بغرض السيطرة والاستعمار، فلم يكن همُّها نشر الحقائق بين الجماهير، بل كان همُّها تقديم التوصيات المناسبة للساسة وصناع القرار ونخبة الاستعمار لكي يتمكنوا من تنفيذ احتلال عالي الكفاءة قليل التكاليف. وأما الجمهور وعموم الجنود فقد كانت حركة الاستشراق في عمومها دافعة لهم في ذات المسار: مسار عداوة الإسلام والمسلمين، فلا بد من هذه العداوة لأي جيش يُراد استعماله في احتلال هؤلاء الناس.

والثاني: أن المؤرخين والباحثين لم يعودوا هم مصدر التأثير في ثقافة المجتمع، ولم يعد لهم الدور البارز في تشكيل الثقافة العامة وبناء الوعي الجمعي للشعوب، وإنما أصبح ذلك بيد الإعلام في المقام الأول، فالإعلام اليوم هو ماكينة التأثير الأعظم في عقول

الشعوب، والصانع الأبرز لوعيهم وثقافتهم، بما في ذلك نظرتهم للأديان والمقدسات، ومعلوم أن وراء المؤسسات الإعلامية لوبيات مصالح، وجماعات ضغط، ولكلٍ أهدافه ومآربه ودوافعه. فلا عجب إذن من وجود بقايا للصورة النمطية المشوهة عن الإسلام وعن نبي الإسلام في الغرب، ما دام الإسلام يُقدم لهذه الشعوب بلسان الفنان الكوميدي الساخر، أو بقلم الشاعر المتعصب، أو بريشة الرسام المأجور، أو بكاميرا صانع الأفلام الهوليودية، ولا بأس كذلك من كتابات بعض أحفاد **جيبرت دو نوجنت** وأمثاله من الكتاب المتعصبين الذين برزوا في فترة الحروب الصليبية.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أنه من واجب المسلمين اليوم السعي الحثيث، وبذل الجهود المستطاعة لمواجهة هذه الآلة الإعلامية المضللة، وذلك بالوسائل الإعلامية المختلفة، والجهود الدعوية والعلمية المتنوعة، لإيصال الصورة الحقيقة عن الإسلام ونبي الإسلام إلى الناس كافة، قياما بواجب الدفاع عن رسول الله، وإيصال رسالة الإسلام الصافية النقية رحمة للعالمين.

بالعودة إلى الحقل الأكاديمي ومجال البحث العلمي، فإننا نجد أن كتابات المؤرخين والباحثين الغربيين المتأخرين قد فاضت بالثناء على النبي صلى الله عليه، وامتلأت بذكر محاسنه، ومظاهر عظمته، ودلائل تفرده بين عظماء التاريخ. وإذا كنا نحن المسلمين نعظم النبي ﷺ -في المقام الأول- تعظيما دينيا، لأنه رسول الله، ولأن النصوص الدينية قد دلت على أفضليته على الناس كافة، إضافة إلى ما حباه الله إياه من سمات الكمال الإنساني، وصفات السمو البشري في كل وجوه ومظاهر الحياة ومناشطها المختلفة، فإن تفضيل الكتاب الغربيين للنبي ﷺ على من سواه من عظماء التاريخ قائم على التقييم المادي لمنجزاته الحضارية الفريدة، ونجاحاته الدنيوية غير المسبوقة، إضافة إلى سماته الإنسانية العظيمة، وقدراته الشخصية الفذة، وباعتبار كل تلك المقاييس فإنه ﷺ قد فاق غيره من القادة والعظماء على مر التاريخ البشري بأسره. ودعونا الآن نبدأ في استعراض بعض

النقولات التي تبين عظمة النبي ﷺ وتفرده البشري، من كتابات المستشرقين الفرنسيين.

يقول المؤرخ اليهودي الفرنسي المعروف **كلود كاهن**: «المؤرخ الذي لا يمكن له أن يتبنى الاتهامات الناشئة عن المجادلات القديمة بين الطوائف، ولا أن يأخذ بالتأويل الصبياني السخيف الذي يفسّر الهمّ الديني بداء الصرع، يرى أن محمدا هو من الشخصيات العظيمة المتفوقة، فقد استطاع بصدق وبشجاعة لا مثيل لهما، أن يرفع، في آنٍ معًا، مستوى الحياة الأخلاقية والمستوى الفكري للناس الذين عاش بينهم، وأن يجعل رسالته متلائمة مع طبائع هؤلاء الناس ومع تقاليدهم، وبتفهم وحسّ تنظيمي عميق من شأنهما أن يضمنا لها السلامة والفوز. إن ما ندرك وجوده لدى محمد من رفعة في التفكير ومن قوة في التغلب على العقبات البشرية وعلى العوائق الذاتية، لا يمكن إلا أن يترك تأثيرا بالغا في النفوس وينتزع منها الإكبار والإجلال»[١].

وعلى نفس المذهب يمضي **كلود إتيان سافاري**[٢]، الذي صدرت له ترجمة متميزة للقرآن الكريم إلى الفرنسية عام ١٧٨٣م، وكتب مع هذه الترجمة مقدمة عن حياة النبي ﷺ، لخصها من كتاب «المختصر في أخبار البشر» للمؤرخ أبي الفدا صاحب حماة[٣]، ومصادر أخرى. يقول سافاري في كتابه هذا في بيان عظمة النبي ﷺ: «كان محمد رجلا من الرجال الأفذاذ الذين وُلِدوا بمواهب عظيمة ولا يظهر أمثاله على مسرح الحياة إلا في

---

(١) كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ص٣٥، ٣٦.

(٢) **كلود إتيان سافاري** (١٧٥٩-١٧٨٨): رحالة ومستشرق فرنسي دفعه، شغفه للترحال الى مصر، ورحلته مع فولني هي من أوائل التقارير القوية التي كتبها فرنسيون عن مصر في القرن الثامن عشر، وعليهما بُنيت حملة نابليون على مصر. ونحن ننقل هذه النصوص هنا عن كتاب «السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون»، وهو كتاب للدكتور عبد المتعال الجبري جاء فيه بالنص المترجم لكتاب سفاري وشرع في التعليق عليه، فمن ها هنا نأخذ كلام سفاري، والذي لم أره ولم أعرف أنه تُرجم مستقلا.

(٣) **أبو الفداء** (٦٧٢ - ٧٣٢هـ / ١٢٧٣ - ١٣٣١م): أمير من أحفاد الأسرة الأيوبية كان صاحب مدينة حماة في زمن الدولة المملوكية، شغف بالعلم والأدب والفنون، وله تصانيف عديدة أشهرها كتابه في التاريخ «المختصر في أخبار البشر».

فترات متباعدة لكي يغيروا وجه الدنيا ولكي يربطوا الناس بخط سيرهم»[1].

ومن الملاحظ لمن يطالع كتب الفرنسيين عن النبي ﷺ أنه مصدر لكثير من المؤرخين الفرنسيين الذين جاؤوا من بعده وكتبوا عن النبي ﷺ.

كذلك كان **جان بروا** من أكثر الفرنسيين الذين كتبوا منبهرين معظمين للنبي ﷺ، وجعل كتابه بعنوان «محمد نابليون السماء»[2]، يريد بذلك أن يقرب صورة النبي ﷺ للقارئ الغربي، وذلك أن الغربيين ينظرون لنابليون -بالرغم من جرائمه وإخفاقاته!- على أنه أحد أعظم عظماء التاريخ[3]، وقد اعتاد المؤلف في كتاباته أن يعرف الغربيين شخصيات الإسلام بإطلاقه عليهم أسماء شخصيات غربية بارزة يعرفها القارئ الغربي حتى يسهل على المؤلف تقريب الشخصية التي يتحدث عنها للمجتمع الغربي، ومثال ذلك تشبيهه الفاروق عمر رضي الله عنه بـ«القديس بولس» لما كان لسيدنا عمر من دور عظيم في الفتوحات الإسلامية، وفي انتشار الإسلام سريعا في عهده رضي الله عنه، فيقرب الكاتب شخصية عمر للقارئ الغربي بتشبيه دوره في الإسلام بدور القديس بولس في المسيحية كشخصية معروفة للقارئ الغربي.

وفي الحقيقة، فإن هذا الكتاب يعتبر من أجمل الكتب التي كتبها المستشرقون عن

---

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٢٤٩.

(٢) ونحن المسلمين لا نرضى ولا نقبل هذه التسمية، ونعوذ بالله أن يُشَّبه رسول الله ﷺ الرحمة الذي قال عنه ربُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧] بنابليون المجرم سَفَّاكِ الدماء الظلُوم، الذي قتل ما لا يُحصى من الأبرياء، وخان العهود، وغدر بالأسرى المستأمنين في حروبه البشعة، فضلا عن أنه لم يحقق إنجازا حضاريا يُذكر، وهُزم في آخر حياته وانهارت إمبراطوريته ومات وحيدا طريدا منفيا في جزيرة معزولة.

(٣) وقد جاء في مقدمة النسخة العربية من كتاب جان بروا (محمد نابليون السماء)، التي ترجمها وكتب مقدمتها الأستاذ محمد صالح البنداق أنه في دراسة مسحية أجرتها صحيفة أمريكية في أربعينات القرن الماضي شملت حوالي ١٠٠٠ أستاذ جامعي من أساتذة التاريخ عن أعظم قائد أنجبه التاريخ فحاز نابليون على أكبر عدد من الأصوات، والحقيقة أنني لا أعرف مصدر هذه الإحصائية ولم يتسن لي التأكد من صحتها.

النبي ﷺ، وفيه عاطفة جياشة تجاه رسولنا ﷺ، قال جان بروا عن سبب تأليفه لهذا الكتاب: «لقد كتبت مؤلفي هذا لأقدم للأوروبيين صورة النبي الحقيقية كما هي في ثوبها التاريخي الحقيقي فإن كثيرا من الفرنسيين يحسبون أن محمدا هو صورة مجسدة للذات الإلهية»[1].

يقول **جان بروا** في كتابه متحدثا عن النبي ﷺ: «كان محمد نبيـًا ومشرعـًا وسياسيـًا وملكـًا عظيمـًا وخطيبـًا مفوهـًا وقائداً خطيراً محنكـًا، وإن كان لم يدخل جامعة من جامعات الرومان، ولا مدرسة من مدارس فارس، إن محمداً قد كبر اسمه واعتز بربه حتى عرف باسمه وحده دون ذكر أسرته كما عرف نابليون، وإن محمداً لنابليون السماء»[2].

ويقول **مارسيل بوازار**: «إذا تذكرنا أخيراً على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لا بد أن يكون محمد، الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به، إنسانـًا فوق مستوى البشر حقا، وأنه لابد أن يكون نبيـًا حقيقيـًا من أنبياء الله»[3].

يشير **بوازار** في هذا النص إلى ما عُرف عن العرب قديما من الأنفة وعدم الخضوع للحكام والزعماء، وأن سلطان الزعماء كان هشـًا غالبـًا، ما لم يتميز أولئك الزعماء بمواصفات خاصة وقدرات قيادية ونفسية عالية، ثم يستدل **بوازار** بما توفر للنبي من الخضوع والانقياد الذي حصل له من العرب والمسلمين على كونه ﷺ كان أكثر من مجرد زعيم فريد، بل لابد أن يكون رسولا من عند الله عز وجل.

وفي نفس هذا المعنى يتحدث المستشرق والرسام الفرنسي المسلم **ناصر الدين**

---

(١) الصفحة الأولى من مقدمة النسخة العربية لكتاب (محمد نابليون السماء).

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء ص٥٢.

(٣) مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام ص٤٦.

دينيه[1] عن أثر شخصية النبي ﷺ في نفوس أتباعه، وكيف أنها تغرس روح الإسلام في نفوسهم، حتى تختلط بأرواحهم، وتنطبع في سلوكهم وحركتهم، فيقول: «إن الشخصية التي حملها محمد بين برديه كانت خارقة للعادة، وكانت ذات أثر عظيم جدا حتى أنها طبعت شريعته بطابع قوي جعل لها روح الإبداع، وأعطاها صفة الشيء الجديد. وتلك هي الأمم الإسلامية على اختلاف جنسياتها وبلدانها قد طبعها الإسلام بطابعه الواضح المحسوس، بل إن آثاره لا تزال باقية في أهل إسبانيا وإن كانوا قد ارتدوا[2] عنه منذ خمسة قرون»[3].

أما الشاعر والدبلوماسي والأديب الفرنسي الشهير **ألفونسو دي لامارتين**، فله كتاب اسمه «تاريخ الأتراك»[4] من سبعة مجلدات، خصص المجلد الأول للحديث عن سيرة النبي ﷺ لكي يفسر من خلالها تاريخ الحضارة الإسلامية، وجاء في آخر كتابه عن النبي ﷺ فقرات في غاية الأهمية، يقول:

«ما من إنسان ألبتة رسم لنفسه –عن قصد أو غير قصد– إدراك هدفٍ أسنى مما نوى

---

(١) **ناصر الدين دينيه (١٨٦١ – ١٩٢٩م)**: مستشرق ورسام فرنسي، كان اسمه ألفونس إيتيان دينيه قبل إسلامه، كان إسلامه سنة ١٩١٣ صدمة للفرنسيين عموما والتشكيليين المستشرقين على وجه الخصوص، وهو الذي كان يُنتظر منه التبشير بالمسيحية وسط الأهالي بالجزائر، فاتهم ناصر الدين دينيه بالخيانة وتعرض للمقاطعة، وأقصيت لوحاته التي كان الطلب عليها كبيرا من الجوائز والتتويجات، من كتبه: أشعة خاصة بنور الإسلام، والحج إلى بيت الله الحرام، والشرق كما يراه الغرب، والسيرة النبوية، وقد ترجم الكتابَ الأخير شيخُ الأزهر الأسبق عبد الحليم محمود.

(٢) نحن نعلم طبعا أن أهل إسبانيا لم يرتدوا، وإنما أجبروا على التنصر، وهذه سيرة طويلة بشعة، وإحدى جرائم محاكم التفتيش الكاثوليكية المشهورة، التي تعد واحدة من أشد صفحات التاريخ الإنساني قتامة وسوادا.

(٣) دينيه، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص١٦.

(٤) كثيرا ما يخلط الكتاب الغربيون في كتاباتهم فيطلقون على المسلمين اسم الأتراك، ويطلقون على عموم الأتراك اسم المسلمين، ولعل ذلك مما انطبع في الموروث الثقافي الغربي نتيجة لغزوات العثمانيين الأتراك للبلاد الأوروبية زمن الخلافة العثمانية.

هو أن يُبَلِّغ؛ إذ كان هدفا يفوق طاقة البشر: نسف المعتقدات الزائفة التي تقف بين المخلوق والخالق، إرجاع الله للإنسان وإرجاع الإنسان لله، بعث فكرة الألوهية المجرّدة المقدسة في خضم فوضى الآلهة المادية المشوهة، آلهة الوثنية»[1].

يشير هنا إلى عظمة الهدف الذي سعى النبي ﷺ إليه، وكيف أنه أسمى هدف يمكن أن يسعى إليه إنسان في تاريخ الوجود، وهو هدف يفوق طاقة البشر، حققه رجل ليس ككل البشر، رجل عظمته لا مثيل لها، كعظمة الهدف الذي سعى إليه، وحققه رغم قلة ما بيديه من الوسائل والأدوات، يواصل قائلا: «وما من إنسان ألبتة، أقدم، بما كان له من عدة هزيلة، على إنجاز عمل مفرط الضخامة قياسا إلى القوى البشرية، إذ لم يكن له في تصوّر ذلك المشروع العظيم وتنفيذه من أداة سواه هو نفسه، ومن مساعدين، إلا حفنة من غلاظٍ كانوا يسكنون ناحية من نواحي الصحراء»[2].

وعن ضخامة هذا الإنجاز غير المسبوق في تاريخ البشرية يقول أيضا: «وما من إنسان ألبتة –في نهاية المطاف– قدر على أن ينجز في وقتٍ أوجز، ثورة على الأرض أعظم ولا أبقى مما أنجزه هو، إذ إن الإسلام، كان في أقل من قرنين بعد دعوته، يسود سلما أو عنوة، كامل أنحاء جزيرة العرب، ويفتح بلاد فارس، وخراسان، وما وراء النهر –آسيا الوسطى الآن–، والهند الغربية، والشام، ومصر، والحبشة، وكامل الجزء المعروف وقتئذٍ من إفريقيا الشمالية، وعديد الجزر بالبحر المتوسط، وإسبانيا وجزءً من بلاد الغال[3]»[4].

ثم يختم فيقول في عبارة جامعة: «إنه فيلسوف، خطيب، نبي، مشرع، مقاتل، فاتق

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٢.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بلاد الغال هي فرنسا.

(٤) المصدر السابق.

أفكار[1]، باعث عقائد، في شريعة لا صور فيها ولا تماثيل، مؤسس عشرين مملكة على الأرض ومملكة روحية، ذاك هو محمد. ومهما تكن المعايير التي نقيس بها العظمة الإنسانية، فإننا نتساءل: أي إنسان كان أعظم منه؟»[2].

لذلك دائما ما نقول إن سيرة النبي ﷺ هي أنجح تجربة بشرية على الإطلاق، في كافة وجوهها، ولا نقول ذلك تحيزا لرسولنا، ولا لكوننا مسلمين، إنما هذه هي شهادة التاريخ التي خطها المؤرخون من المسلمين وغير المسلمين، فهي حقيقة، مبنية على حقائق، لا تقبل الدحض ولا التشكيك، فرسول الله ﷺ هو الإنسان الوحيد الذي نجح نجاحا مطلقا على المستوى الديني والدنيوي بشكل لا مثيل له؛ فعلى المستوى الديني لا يزال دينه باقيا، حيًا، متحركًا، ومؤثرا إلى يوم الناس هذا، وعلى المستوى الدنيوي فقد خضعت له الجزيرة العربية كلها في حياته، وورَّث أتباعه دولة قوية، وقيما سامية خالدة، انطلقوا بها، ليبنوا حضارة لم ير التاريخ مثيلا لها، وهذا إنجاز لم يُكتب لأحد من العظماء والمؤثرين في تاريخ الوجود.

هذا، وإن كان الضعف قد ضرب هذه الأمة في آخر قرنين من تاريخها، إلا أن الأمة لا تزال حية بما بقي فيها من الوحي، وإن المستقبل لها بلا شك.

(١) فاتق أفكار: أي مبع أفكار.

(٢) المصدر السابق، ص١٢٤.

فضل النبي على العرب والمسلمين

قال تعالى يبين لنا عظيم نعمته ومنته على المؤمنين ببعثة النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران: ١٦٤].

إن بعثة النبي ﷺ هي أعظم نعم الله على العرب، وعلى البشرية كلها بطبيعة الحال، وآثار هذه النعمة لا تقتصر على الدين فقط، بل تمتد إلى الدنيا أيضا، فبهذا الدين خرج العرب من الظلمات إلى النور، وبه أُنْقِذوا من النار. وبهذا الدين أيضا تغير تاريخ العرب كله على المستوى الدنيوي.

لقد كان العرب قبل الإسلام قوما لا قيمة لهم على مسرح التاريخ، يعيشون في تجمعات بشرية متفرقة، متناثرة في صحراء شبه الجزيرة العربية القاحلة، لا يجمعهم نظام سياسي، ولا يحميهم جيش قوي، وذلك في الوقت الذي كانت تزدهر فيه على تخوم بلادهم إمبراطوريتان عظميان، هما فارس والروم، لكن العرب عاشوا على هامش هذه الحضارات والقوى الكبرى، وتخضع كثير من بلادهم في الشمال والجنوب للنفوذ والسيطرة المتبادلة بين فارس والروم؛ فاليمن مثلا كانت خاضعة لنفوذ الحبشة المسيحية في زمن مولد النبي ﷺ عام الفيل، وقد غزا أبرهة عامل الحبشة مكة في القصة المعروفة، في

حين أنها كانت خاضعة لسلطان الفرس حين أرسل رسول الله ﷺ الرسل لدعوة الملوك إلى الإسلام، حتى من تسمى من العرب بسيماء الملك كالمناذرة في العراق، والغساسنة في الشام، فقد كانوا تابعين للفرس والروم، فكانوا يأتمرون بأمرهم، ويهلكون أنفسهم وقودا في معاركهم. وكان الفرس والروم كلاهما ينظرون إلى العرب على أنهم قوم رعاع لا وزن لهم في التاريخ، ولا أهمية للصحراء التي يعيشون فيها بمنطق الجغرافيا، ويكتفون في بسط نفوذهم والسيطرة عليهم بمن يلي العرب من عمال الروم أو الفرس، وظلت هذه النظرة عن العرب قائمة في أذهان الفرس والروم إلى حين مجيء جيوش الإسلام الفاتحة، وبدء المعارك الكبرى بين جيوش المسلمين وجيوش تلك الامبراطوريات.

أخيرا، استطاع هؤلاء العرب أن يهزموا الفرس والروم في نفس الوقت، ففي شهري رجب وشعبان من نفس العام (١٣هـ) جرت المعركتان الفاصلتان: **القادسية** التي قضت على نفوذ الفرس، و**اليرموك** التي قضت على نفوذ الروم. ثم انطلقت جيوش الإسلام بعدها في ربوع الدنيا لتقيم حضارة لم يعرف التاريخ لها مثيلا.

ومن هنا تتجلى عظمة النبي ﷺ، ويظهر عظيم فضله على العرب والمسلمين.

كيف رصد المستشرقون والمؤرخون الفرنسيون هذا الحدث الكبير، وكيف عبَّروا عنه؟!

نبدأ من **جان بروا**، صاحب كتاب «محمد نابليون السماء»، يقول: «وهكذا استطاع أن يوجد للأمة العربية الممزقة التي كانت تفقد الوحدة أجيالا، والحكومة المركزية والشرائع والدساتير، استطاع أن يجعل لها حكومة مركزية لها شرائعها وقوانينها ولها مكانتها المرموقة بين الأمم والشعوب، واحترامها وإكبارها»[1].

ويقول **جوستاف لوبون**، عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي المعروف: «مهما يكن

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٤٩.

من أمر فإن مما لا ريب فيه أن محمدا أصاب في بلاد العرب نتائج لم تصب مثلها جميع الديانات التي ظهرت قبل الإسلام، ومنها اليهودية والنصرانية؛ ولذلك كان فضل محمد على العرب عظيما»[١].

ويضيف موضحا: «لقد اعتنقت قبائل البدو في جزيرة العرب دينا أتى به أميٌّ، فأقامت بفضل هذا الدين في أقل من خمسين سنة دولة عظيمة كدولة الإسكندر[٢]، وزَيَّنَتْ جيدها[٣] بقلادة من المباني الفخمة التي هي آية في الإعجاز»[٤].

وذات المعنى يتحدث عنه **جاك ريسلر**[٥]، وهو كاتب وباحث فرنسي، وله كتاب مهم اسمه الحضارة العربية، صدر ١٩٥٥م، ويعتبر أحد المصادر الفرنسية المهمة لمعرفة الإسلام في الغرب، وقد نال عنه جائزة الأكاديمية الفرنسية باعتباره أساسا لمعرفة الإسلام، يقول **جاك ريسلر**: «لقد تمكن محمد بقوة المثال الديني بوجه خاص، من تحقيقه مقاصده الكبرى؛ فقد كانت القبائل العربية تعيش منطوية على ذاتها، مستقلة عن بعضها، ومتخاصمة، وثنية وشعبذية، فجاء الدين القرآني ليرصّ صفوفهم ويوطّد قواهم الكامنة، فركّز على خيال إنسان الصحراء ومخاوفه وآماله، وعلّمه من خلال تعاليم ثابتة الانضباط الفردي والجماعي الذي كان ينقصه، والواقع أن الدين كوَّن من شتاتٍ محاربين أشداء ومتزمتين، جنين شعب متماسك ومنضبط، سيثبت أنه شعبٌ لا يُغلب»[٦].

---

(١) جوستاف لوبون، حضارة العرب ص١١٥.

(٢) **الإسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق م)**: الملك المقدوني الشهير، وأحد أشهر القادة والأباطرة عبر التاريخ، ورث عن أبيه فيليب الثاني مملكة كبيرة، وبحلول عامه الثلاثين من عمره، كان قد أسس إحدى أكبر الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، إذ امتدت من سواحل البحر الأيوني غربًا وصولاً إلى سلسلة جبال الهيمالايا شرقًا.

(٣) الجِيد: العنُق.

(٤) جوستاف لوبون، الآراء والمعتقدات، ص٦

(٥)**جاك ريسلر (١٨٩٣ – ١٩٧١م)**: مستشرق فرنسي، وأستاذ جامعي بمعهد باريس للدراسات الإسلامية.

(٦) ريسلر، الحضارة العربية، ص٤٤.

ويواصل الحديث مُبيِّنًا فضل النبي ﷺ على الأجيال العربية المتتابعة فيقول: «أمَّن محمّد على مدى أجيال وأجيال تفوق الشعب العربي حين أمدَّه بدينٍ فائق ببساطته ووضوحه، وزوَّده بتوحيد صارم في مواجهة التردد الدائم في الضمائر، وإذا أخذنا في الاعتبار أن هذا المشروع الضخم قد جرى تصوّره وإنجازه في أقصر فترة من فترات أي وجود بشري، فعندها لا بد لنا من الاعتراف بأن النبي يعدّ في عداد أعظم الرجال الذين يمثلون تاريخ الشعوب والأديان»[1].

وقد صدق ريسلر، فنحن حين ننظر إلى لحظة ظهور الإسلام، ولحظة تمدده من الصين شرقا إلى فرنسا غربا، سنجد أن ذلك حدث في مائة عام فقط، وهذه مدة يسيرة ووجيزة جدا بالنظر إلى أعمار الأمم وتاريخ الشعوب وبناء الحضارات.

وفي السياق نفسه، يقول **هنري ماسيه**[2]: «بفضل عبقرية محمد الدينية والسياسية، وهي عبقرية مُوَحِّدة بشكل أساسي، فإن العرب وعوا أنفسهم وخرجوا من ظلمات الجهل والفوضى ليعدّوا دخولهم النهائي إلى تاريخ المدنية»[3].

ويقرر **فرناند بروديل**[4]، وهو من أشهر المؤرخين الفرنسيين بل والغربيين في القرن العشرين، فضل النبي ﷺ على العرب فيقول: «فلولاه -يعني رسول الله- ما كان للبلاد العربية أن تتوحد، إذ كانت منهمكة موزعة بين قبائل متصارعة مكشوفة أمام تيارات النفوذ

---

(١) المصدر السابق.

(٢) **هنري ماسيه (١٨٨٦ – ١٩٦٩م)**: هو مستشرق فرنسي، متخصص في الفارسية، عمل مديرًا للمعهد الفرنسي بالقاهرة، وعمل أستاذًا للأدب العربي والفارسي بكلية الآداب في جامعة الجزائر (١٩١٦-١٩٢٧)، وعضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق.

(٣) هنري ماسيه، الإسلام، ص٥٥.

(٤) **فرناند بروديل (١٩٠٢ – ١٩٨٥م)**: مؤرخ فرنسي، يعتبر أحد أهم المؤرخين في القرن العشرين، ومن مؤسسي مدرسة الحوليات الحديثة في التاريخ، وله مؤلفات مثلت فارقا في الإنتاج التاريخي للمدرسة الفرنسية! لا سيما كتابه عن تاريخ البحر المتوسط، وتاريخ الحضارة الغربية.

الأجنبي والتطلعات الاستعمارية للفرس وأثيوبيا المسيحية وسوريا ومصر البيزنطية»[1].

ويلمس **كلود كاهن** في ذل التوحد العربي قدرة فريدة، يقول: «المسألة الأساسية في ذلك كله هي أن رجلا واحدا استطاع وللمرة الأولى في تاريخ الجزيرة العربية، أن يفرض كلمته على جميع أبناء الجزيرة العربية...، إن محمدا ظهر في مجتمع لا يعرف الدولة، فكان أن أسس دينا ودولة لا فصل بينهما»[2]. وهو هنا يشير إلى أن محمدا ﷺ جاء بدين، أسس على قواعده وأحكامه دولة، والدين والدولة ممتزجان لا يمكن الفصل بينهما في الإسلام.

يرى **إميل درمنغم** أن هذا الإنجاز هو بمثابة المعجزة، لا سيما في العرب، يقول: «ليس من السهل أن يحافظ محمدٌ على سلطانه على قوم مشاغبين كالعرب، مع ما تمّ له من النفوذ، أجل، إن من القليل أن تجد رجالا أُطِيعوا بحماسة كالتي أُطِيع بها، ولكن العرب فوضويون شبُّوا على عدم النظام، فكان جمعُ محمد لهم تحت راية الإسلام معجزةً حقا»[3].

وفي مجلد «القرون الوسطى» ضمن موسوعة «تاريخ الحضارات العام» كتب المؤرخ الفرنسي **إدوارد بروي**: «عندما قُبض النبي العربي، عام ٦٣٢م، كان محمد قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيرا فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تمّ للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل»[4].

ونفس هذا المعنى يحوم حوله **ناصر الدين دينيه**، فيقول: «عندما رفع الله إليه مؤسس

---

(١) فرناند بروديل، تاريخ وقواعد الحضارات، ص٤٥.

(٢) كلود كاهن، الإسلام، ص٣٨، ٣٩.

(٣) درمنغم، حياة محمد، ص١٨٩

(٤) إدوارد بروي، القرون الوسطى، ضمن: تاريخ الحضارات العام، ٣/ ١١٢.

الإسلام العبقري، كان هذا الدين القويم قد تم تنظيمه نهائيا، وبكل دقة، حتى في أقل تفاصيله شأنا، وكانت جنود الله قد أخضعت بلاد العرب كلها، وبدأت في مهاجمة إمبراطورية القياصرة الضخمة بالشام، وقد أثار القلق الطبيعي المؤقت، عقب موت القائد الملهم، بعض الفتن العارضة، إلا أن الإسلام كان قد بلغ من تماسك بنائه، ومن حرارة إيمان أهله، ما جعله يبهر العالم بوثبته الهائلة التي لا نظن أن لها في سجلات التاريخ مثيلا»[1].

هذا هو فضل رسول الله ﷺ على العرب، وأثره على الأمة المسلمة بأسرها، أثر عظيم مبارك، ممتد عبر الأجيال والأزمان، حيٌّ متجدد متجذر، لا تخبو جذوته بتتابع القرون، ولا باختلاف الأزمان والظروف، وإن الأمة المسلمة في أمس الحاجة في هذا الزمان إلى استشعار هذا الفضل، وإدراك حقيقة هذا الأثر، والتعرض له، واستدعاء مفرداته في واقع حياتها وحركتها حتى تستعيد أمجادها، وتتبوأ مكانتها المنوطة بها بين الأمم، أمة العلم والهداية والشهود.

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٣٥.

فضل النبي على البشرية

تناولنا فيما مضى فضل النبي ﷺ على أمة العرب والمسلمين، والآن نتناول فضل النبي ﷺ على البشر الأجمعين، مصداقا لقول الله تعالى ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لقد أرسل الله تعالى نبيه ﷺ رحمة لجميع الناس من يوم مبعثه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. بل إن رحمة النبي ﷺ تتجاوز البشر، لتطال الحيوانات والدواب، وأكثر من ذلك وصول أثرها إلى الحجر والشجر، فمن يطالع أحاديث النبي ﷺ وسيرته ووصاياه في مسألة رحمة الحيوان والرأفة به والإحسان إليه، ومسألة قطع الشجر، وكذا إماطة الأذى عن الطريق، إلى تدبير النبي لأمر الزراعة، وأمر التعامل مع النبات والشجر، إضافة إلى مسألة العمران وما يتعلق بها، يجد فيها الكثير من المأثور الذي تتجلى فيه رحمته ﷺ. ولعل الله أن ييسر الحديث في مواطن أخرى عن كيفية تعامل الإسلام مع النباتات والحيوانات، بل حتى مع تلوث الماء والهواء، إن شاء الله عز وجل[1].

(١) تناولت ذلك باختصار في كتابي «كيف نجح المسلمون في عمارة الأرض»، وعسى أن ييسر الله صدور كتاب آخر كبير عن «مشكلة البيئة بين الإسلام والغرب»، فلعل قارئنا الكريم يتحفنا بدعوة بظهر الغيب ييسر الله بها ما هو عسير، ويقرب بها ما هو بعيد.

في هذا الفصل نريد أن نركز على نظرة الفرنسيين إلى ظاهرة الانتشار الضخم والسريع لأمة الإسلام، والأثر الذي تركه المسلمون على بقية العالم، وكيف شاهدوا وكتبوا عن هذه الظاهرة الإسلامية الفريدة. ولأن الكلام في هذا الأمر تكثر تفريعاته، ويطول الحديث فيه، فسوف أركز في هذا الفصل على مسألة التوسع السريع لجيوش المسلمين، وبسطهم لنفوذهم السياسي على مساحات شاسعة من العالم المعروف وقتها، كذلك على مسألة النهضة الحضارية التي أحدثها المسلمون في البلاد التي حكموها بالإسلام، وأثر هذه النهضة في التاريخ الإنساني كله، لنرى كيف كان أثر حركة النبي ﷺ على تغيير مجرى التاريخ، وعلى التوسع الكبير للأمة الإسلامية، وعلى وصول الحضارة الإسلامية إلى مناطق العالم جميعا شرقا وغربا، وعلى تأثير هذه الحضارة في نهضة أوروبا لاحقا.

نبدأ من **نابليون بونابرت**، القائد الفرنسي الأشهر وأحد أعظم القادة الأوروبيين، والذي يقول في مذكراته: «كان محمدٌ أميرا جمَّع حوله عشيرته، وخلال سنوات قليلة احتل المسلمون نصف دول العالم، وانتزعوا أرواحا كثيرة من عبادة الآلهة المزيفة، ونكسوا كثيرا من الأصنام، وهدَّموا من المعابد الوثنية في خمسة عشر عاما أكثر مما حققه أتباع موسى وعيسى في خمسة عشر قرنا. كان محمد رجلا عظيما»[1].

ثم نأتي إلى فقرة بديعة كتبها المؤرخ الفرنسي **إدوارد بروي**، في مجلد (القرون الوسطى)، ضمن (موسوعة تاريخ الحضارات العام)، يقول:

«ظهر الإسلام كالشهاب الساطع، فحيَّر العقول بفتوحاته السريعة القاصمة، وباتساع رقعة الإمبراطورية التي أنشأها، نحن أمام شعب كان للأمس الغابر مجهول الاسم، مغمور الذكر، فإذا به يتحد ويتضامّ في بوتقة الإسلام، هذا الدين الجديد

(١) نابليون بونابرت، مذكرات نابليون: الحملة على مصر، ترجمة: عباس أبو غزالة، ط١ (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٩م)، ص١٦٢.

الذي انطلق من الجزيرة العربية، اكتسحت جيوشه ببضع سنوات الدولة الساسانية وهدت منها الأركان، ورفرفت بنوده فوق الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية في آسيا وإفريقيا، باستثناء شطر صغير منها يقع غربي آسيا الصغرى[1]، ولم تلبث جيوشه أن استولت بعد قليل على معظم إسبانيا وصقلية وأن تقتطع لأمد من الزمن، يقصر أو يطول، بعض المقاطعات الواقعة في غربي أوروبا وجنوبيها[2]، ودقت جيوشه بعنف شديد أبواب الهند والصين والحبشة والسودان الغربي وهددت غاليا (فرنسا) والقسطنطينية بشر مستطير، وقد تهاوت الدول أمام الدفع العربي الإسلامي كالأكر، وتدحرجت التيجان عن رؤوس الملوك كحبات سبحة انفرط عقدها النظيم، وهذه الأديان التي سيطرت على الشعوب والأقوام الضاربة بين سيرداريا (وهو نهر جيحون في وسط آسيا) والسنغال، ذابت كما يذوب الشمع أمام النار»[3].

ويقول القانوني الفرنسي **مارسيل بوازار**، في كتابه الجميل الماتع «إنسانية الإسلام»: «لم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشرا بدين وحسب، بل كان كذلك مؤسس سياسة غيّرت مجرى التاريخ، وأثرت في تطور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق»[4].

---

(١) يعني الجزء الغربي من منطقة الأناضول، لأن هذا الجزء لم يفتحه المسلمون في الـ ١٠٠ سنة الأولى.

(٢) وهو يقصد هنا جنوب فرنسا، فلقد فتح المسلمون جنوب فرنسا، وظلوا فيه حوالي قرنين من الزمن، وبعد ذلك كان أيضا هناك وجود إسلامي في جنوب فرنسا، وهذا الكلام يراجع فيه مثلا كتاب شكيب أرسلان «تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط» وغيره من الكتب، وتوجد مناطق أخرى كثيرة يجهل كثير من المسلمين أن الإسلام دخلها يوما، مثل جنوب فرنسا وجزيرة صقلية الإيطالية، وأجزاء من المناطق الجنوبية في إيطاليا، حتى أن المسلمين كادوا أن يفتحوا الفاتيكان أكثر من مرة!

(٣) إدوارد بروي، القرون الوسطى، ضمن «تاريخ الحضارات العام»، ٣/ ١٠٩.

(٤) مارسيل بوازار، إنسانية الإسلام، ص٤٢.

وعـن الأثـر الفكـري والثقـافي الـذي أحدثـه انتشـار الإسـلام، فيتحـدث عنـه المستشرق الفرنسي **إيتيان دينيه**، وقد أسلم وتسمى بناصر الدين، فيقول: «رفع النبي محمد قدر العلم إلى أعظم الدرجات وأعلى المراتب وجعله من أول واجبات المسلم، وفي ذلك يقول: اطلبوا العلم ولو بالصين[١]، يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء[٢]، شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء[٣]، فضل العلم خير من فضل العبادة[٤]، وقد نظر المسيو كازانوفا أحد كبار أساتذة كوليج دي فرانس بباريس في هذه الكلمات الغاليات كيف يقولها أحد أصحاب الديانات، فعلَّق على ذلك يقول: يعتقد الكثيرون منا أن المسلمين لا يستطيعون تمثل آرائنا وهضم أفكارنا، يعتقدون ذلك وينسون أن نبي الإسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبادة، فأي رئيس ديني كبير وأي قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوي الفاصل المتين، هذا القول هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة، نعم إن هذا هو مبدؤنا اليوم، ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر إلى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار!! كما أنه سوف يُقال إن أوضح مبادئ الحرية الفكرية

---

(١) هذا الحديث قال عنه الشيخ الألباني في ضعيف الجامع: (موضوع)، ومن الطبيعي أن تجد في كتب المستشرقين أحاديث ضعيفة وموضوعة، فليسوا مؤهلين لتمييز الحديث الضعيف من الصحيح، إلا أن هذا المعنى، أقصد معنى الحث على طلب العلم والسعي فيه معنى صحيح، كما في الحديث الصحيح: «مَن سلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ علمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طريقًا إلى الجنَّةِ».

(٢) ليس بحديث.

(٣) إسناده لا يصح.

(٤) حديث ضعيف، لكن يصح في معناه حديث: «إنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ»، وحديث: «فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلي على أدناكم».

قد كسفت أمثال **لوثر**[1]، و**كالفين**[2] وعاد الفضل فيها إلى رجل عربي من رجال القرن السابع، ذلك هو صاحب شريعة الإسلام»[3].

وفي هذه الفقرة إشارة إلى فترة القرون الوسطى في أوروبا حين كانت الكنيسة متحكمة في كثير من مناحي الحياة، فكانوا يحاربون العلماء لا سيما إذا كان اكتشافاتهم تمسّ ما ورد في الكتاب المقدس، كما كان القساوسية يحتكرون الحق المطلق، ويحتكرون قراءة الكتب المقدسة، ومن ها هنا جاء استغراب المستشرقين من جهة، وإعجابهم كذلك من جهة أخرى، لأنهم اعتادوا من رجال الدين والكنيسة أنهم يحاربون العلم والعلماء، فإذا بهم يجدون أن محمدا ﷺ -الذي هو في نظرهم رجل دين- يحث على العلم، ويشجع عليه، ويرتب على طلبه والسعي فيه الأجور العظيمة، ويعلى من قدر العلماء، ويقدمهم على غيرهم، وهذا الفضل العظيم والتميز الكبير الذي جاء به رسول الله ﷺ في القرن السابع الميلادي، قد سبق به رموز الإصلاح الديني عند الغربيين أمثال مارتن لوثر، وجون كالفين، الذين تمردوا على سلطان الكنيسة، وأسسوا لعصر النهضة الأوروبية في القرن الخامس عشر الميلادي.

كذلك يتحدث **جوستاف لوبون** في كتابه «حضارة العرب» عن قيام أمة العرب بالإسلام، وقوة دولتهم واتساعهم وحضارتهم، فيقول:

«إن الأمم التي فاقت العرب تمدنا قليلة إلى الغاية، وإننا لا نذكر أمة كالعرب

---

(١) **مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦)**: قس ألماني يعد رائد عصر الإصلاح في أوروبا، بعد اعتراضه على صكوك الغفران، وهو مؤسس البروتستانتية.

(٢) **جون كالفين (١٥٠٩-١٥٦٤)**: قس فرنسي كان من أبرز وجوه حركة الإصلاح البروتستانتي، وكان مجادلا شرسا، كتب تفسيرات لمعظم الأناجيل.

(٣) دينيه، أشعة خاصة بنور الإسلام، ص٢١، ٢٢.

حققت من المبتكرات العظيمة في وقت قصير مثل ما حققوا، وإن العرب أقاموا دينا من أقوى الأديان التي سادت العالم، أقاموا دينا لا يزال تأثيره أشد حيوية مما لأي دين آخر، وإنهم أنشئوا -من الناحية السياسية- دولة من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وإنهم مدنوا أوربا ثقافة وأخلاقا»[1].

ونختم بكلام بديعٍ رائق للشاعر والأديب والدبلوماسي الفرنسي المشهور **ألفونسو دي لامارتين**، في المجلد الأول من كتابه «تاريخ الأتراك»، الذي خصصه للحديث عن النبي ﷺ، يتكلم في هذا الاقتباس عن فضل النبي ﷺ على البشرية، وعظمة الإنجاز المعجز الذي حققه، فيقول:

«إذا كانت عظمة المقصد، وضآلة العدة، وضخامة النتيجة مقاييس عبقرية الإنسان الثلاثة، فمن يجرؤ أن يقارن -على الصعيد الإنساني- أي عظيم من عظماء التاريخ الحديث بمحمد، إذ إن أبعدهم في الشهرة لم يهزّ سوى أسلحة وقوانين وممالك، ولم يؤسس -إن كان أسس شيئا- سوى قوة مادية غالبا ما انهارت قبل أن ينهار هو، أما محمد، فإنه قلقل جيوشا، وتشريعات، وزرع ممالك وهزّ شعوبا وعروشا وملايين البشر على ثلث اليابسة المسكونة، بل إنه هزَّ فوق ذلك معابد وآلهة وأديانا وأفكارا ومعتقدات وأرواحا، وأقام، على أساس كتاب صارت كل كلمة فيه قانونا، انتماء إلى أمة روحية تجمع شعوبا من مختلف اللغات والأجناس، وطبع في تلك الأمة الإسلامية، بأحرف لا تمّحي، مقت الآلهة الزائفة، وعشق الله الواحد المجرد، إن ذلك الحماس الذي ثأر من تدنيس السماء بالشرك هو فضل أمة

(١) لوبون، حضارة العرب، ص٦١٨.

محمد، وإن نشر شريعته على ثلث الأرض هو معجزته»[1].

هذا هو رسول الله ﷺ، الذي أرسله الله عز وجل بالإسلام رحمة للعالمين، ليخرج البشرية من ظلمات الجهل والشرك والتخلف، إلى نور العلم والإيمان والتحضر، ويقيم على أساس هذا الدين دولة الحق والعدل، تلك الدولة التي حملت شعلة نور الوحي إلى ربوع الدنيا، لتؤسس أعظم حضارة عرفها التاريخ. فالحمد لله على نعمة هذا الدين، وصلوات الله وسلامه على رسوله النبي الأمين.

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٣.

المقاتل الرحيم

إن من أكثر الصور الشائهة التي تناولت الإسلام ونبيه بالباطل، هي تلك الصورة التي تتعلق بالجهاد والقتال والسيف، مع أن هذا الموضوع من أظهر الأمور المتألقة في تاريخ الإسلام، بل إن الحروب تعد بحد ذاتها ميزانا حساسا وكاشفا وحقيقيا لأخلاق أي أمة ومبادئها، وقد ضربت أمتنا في هذا المثل الأعلى في الرحمة والأخلاق، بينما كشفت سائر الأمم عن طبيعة وحشية في حروبها وعن سلوك لا رحمة فيه إذا غلبت وقهرت غيرها.

وفي هذا السياق، ننظر في أقوال هؤلاء الفرنسيين الذين أنصفوا، لنرى ماذا قالوا:

قال **هنري دي كاستري** في بيان ضرورة استعمال السيف والقتال لنصرة الحق وإزهاق الباطل: «ما كان ينبغي للنبي –حبا في السلام– أن يترك الباطل يعلو على كلمة الحق المبين»[1].

وقال **إميل درمنغم**: «لم يشرع الجهاد لهداية الناس بالسيف، ففي القرآن ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَىِّۚ﴾[البقرة: ٢٥٦] والقرآن يأمر المسلمين بالاعتدال وبألا يبدأوا بالاعتداء»[2].

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٦٧.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص١٩٦.

ويلفت **هنري دي كاستري** الأنظار إلى أمر مهم، فيقول: «لو كان دين محمد انتشر بالعنف والإجبار، للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين، مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحه في جميع أرجاء المسكونة»[١].

ويُحصي **درمنغم** معارك النبي ونتائجها، فيخلص إلى نتيجة مهمة، يقول: «بلغ عدد مغازي محمد أربعين في عشر سنين، واشترك هذا الرجل -الذي نعته بعضهم بالماكر الماهر ورآه آخرون مصابا بالصرع- في نحو ثلاثين غزوة وأدار نحو عشر معارك بشخصه فضلا عن المفاوضات الصعبة التي قام بها، وليس بمجهول ما يجب أن يتحلّى به السيدُ العربي في الغزوات بجزيرة العرب من تحمل المشاق والصبر على المكاره وخلق الثبات والأناة وحسن السياسة والنشاط والمرونة، وهذا إلى ما يحيق بسلطانه من المخاطر وإلى اعتماده على مؤازرة جمهور متقلب، ففي هذا المضمار الصعب المضني برع محمد»[٢].

ويردّ **هنري دي كاستري** على مروجي الصورة الشائهة عن النبي الكريم، فيقول: «قد نظر بعضهم إلى هذه الآيات (آيات الجهاد) وما يماثلها، فاتهموا النبي بالتعصب. أفما كان يجب عليه أن يحارب بقوة السلاح المعاندين من الوثنيين، ليبيد تلك الديانة إلى الأبد من بلاد العرب، كما أنها هي التي أخنت على مذهب التوحيد، مذهب الخليل قبل الإسلام، وأن يجعل بين المؤمنين وبين عبادة الأصنام حدًّا فلا يرجعوا إليها؟»[٣].

ويقرر المستشرق الفرنسي **لويس سيديو**[٤] حقيقة مهمة، فيقول: «وأما أخلاقه وأفعاله

---

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص١٣١.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص١٩٨.

(٣) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٦٥.

(٤) **لويس سيديو** (١٨٠٨ - ١٨٧٥): مستشرق ومؤرخ فرنسي، وهو ابنٌ لمستشرق فرنسي شغف بعلوم العرب لا سيما الفلك والرياضيات، فتعلم ذلك عن أبيه، وحصل على درجة الحقوق، وعمل مدرسا للتاريخ، وألف عدة كتب من أهمها كتابه الأشهر: «خلاصة تاريخ العرب» الذي ألفه بالفرنسية، وهومن أوائل الكتب التي ترجمت عن

فكانت غاية في الكمال؛ منها عفوه عن ألدّ أعدائه بعد فتح مكة، وحلمه في الأخذ بحقوق الحرب من القبائل، وأسفه على قضائه على بعض، وعدم استعانته بما له من عظيم السطوة والسلطة على إجابة داعي القسوة، ولذا كان يحاول بالحث العود بمن خرج عن الحد من أصحابه إلى حدود الاعتدال، ومنها إباؤه إشارة عمر عليه بقتل الأسرى بعد واقعة بدر، وصفحه عمن قتل عمه حمزة، وقوله: اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد حين أخذ بثأر قريبه من بني جذيمة»[1].

ويقول **إميل درمنغم**: «وإذا كان محمد يفرط في القسوة عند اشتباك الفريقين ويقابل العدوان بالعدوان والمكر بالمكر، فإنه قلّما يقسو في حالة دَعَتِه، بل كان يبدو معتدلا إلى الغاية كما يشهد بذلك أمره حين فتح مكة، فقد أبدى في أثناء هذا الفتح من الكرم وعظمة النفس ما لا تجد مثله في التاريخ إلا نادرا، وكان محمد يوصي جنوده بأن يرحموا الضعفاء والشيوخ والنساء والأولاد، وكان ينهى عن هدم البيوت وإهلاك الحرث وقطع الشجر المثمر، ويأمر بألا يَسُلَّ مسلمٌ حسامه إلا عند أقصى الضرورة، وسنرى أنه أنحى باللائمة على بعض رجاله فعوَّض بالمال مما اقترفوه، وهو الذي رأى أن النفس الواحدة خيرٌ من كل الغنائم»[2].

الفرنسية إلى العربية في شأن يتعلق بالتاريخ الإسلامي، هو مختصر للتاريخ الإسلامي وأشرف علي مبارك باشا – حين كان ناظرا للمعارف– على ترجمته إلى العربية مهذباً.

(١) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٦٤.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص١٩٧.

بطل التسامح

وها هنا مسألة حساسة أخرى لطالما تكلم عنها كثيرون بالباطل، وهي مسألة التعصب الإسلامي المنافي للتسامح مع الديانات الأخرى، وعلاقة الإسلام وتعامله مع اليهود والنصارى، وفي سياق هذه الحديث، سنتناول ما وقع بين النبي ﷺ وبين اليهود في المدينة، إلا أننا نحتاج أن نمهد للحديث بمقدمة.

بداية، فإن الدولة الإسلامية دولة تقوم في أساسها على الدين، فقاعدتها الدين، وفكرتها الدين، وأساسها الدين، وجنسيتها الدين، وهذا بخلاف الدولة المعاصرة والتي أساسها وقاعدتها وجنسيتها مرتبطة بالعرق أو الأرض أو كليهما، فالذين وُلِدوا من عرق معين يحملون جنسية هذه البلد المعين، مثل البلاد التي قُسِّمَتْ طبقا للأعراق والقوميات، في حين أن دولا أخرى تمنح جنسيتها بناء على الأرض، مثلما يحدث في أمريكا مثلا، أو غيرها من الدول التي تمنح جنسياتها لمن وُلِد على أرضها، فكل دولة لديها معيارها للتفريق بين الذين يعيشون على أرضها، وهذا المعيار هو معيار المواطن مقابل الأجنبي، فالأجنبي هو من لا يكون تابعا لهذا العرق، أو من لا يكون تابعا لهذه الأرض، يعني ليس مواطنا من رعايا هذه الدولة، وإنما دخل إليها بتصريح معين، فهذا الأجنبي يُمْنَع بطبيعة الحال من بعض الامتيازات والحقوق التي تكون مسموحة وممنوحة للمواطن، فالأجنبي مثلا -بالنسبة للدولة المعاصرة- ليس له الحق بأن يتولى المناصب الحساسة، فليس له

الحق بأن يترشح لرئاسة الجمهورية، وهو لا يتمتع بكل المزايا والخدمات التي يتمتع بها المواطن، حتى في أمور التأمين الصحي والمواصلات والرواتب والمعاشات ونحو هذه الأمور، فلكل دولة قوانينها التي تفرق بين المواطن والأجنبي، وحقوق وواجبات والتزامات كل منهما.

فإذا جئنا للدولة الإسلامية فإننا سنجد هذا المعيار هو الإسلام، ذلك لأن الدولة الإسلامية هويتها الدين، وجنسيتها الدين، وفكرتها الدين، وتأسست على الدين، ولذلك فإن تعامل الدولة الإسلامية مع غير المسلمين يُشْبِه -وأؤكد على كلمة «يُشْبِه»- تعامل الدول الأخرى المعاصرة مع غير المواطنين.

ثم إنني أزيد وأقول بملء فمي أن الدولة الإسلامية كانت أرحم بغير المسلمين من أي دولة معاصرة بغير المواطنين، وتفاصيل ذلك ودلائله كثيرة متواترة؛ فمثلا: لا توجد دولة معاصرة الآن تجعل لغير المواطنين القاطنين على أرضها قانونا خاصا بهم، بحيث أنهم يتحاكمون إليه وفقا لأفكارهم وقناعاتهم، ولا يخضعون لقانون الدولة، بينما الدولة الإسلامية تعطي الحق لغير المسلم في أن يتحاكم إلى قوانينه الشخصية، وأن يقضي بينهم رجلٌ منهم سواء من اليهود أو من النصارى، وتكون مساحة الدولة الإسلامية هي مساحة الشأن العام.

بل إن الفترة التي ظهر فيها النبي ﷺ، لم تكن الدول تعرف أصلا معنى التسامح العقدي، فجاء النبي بالإسلام فأسس لهذا التسامح، وأعطى لأصحاب الديانات المختلفة حقوقهم، وضمن لهم أمنهم وسلامتهم.

وعبر تاريخنا الإسلامي الطويل، كانت الدولة الإسلامية تعتبر واحة العدل، ووجهة الأقليات الدينية المستضعفة في البلاد المختلفة، لأن أوروبا لم تكن تعرف مسألة التعدد الديني في الدولة الواحدة، ولذلك فقد كانت الدولة العثمانية، ومن قبلها الأندلس، ومن قبلها الدولة الإسلامية في العالم الشرقي بشكل عام، كانت شيئا مدهشا في التسامح

والتعايش، ويعتبر فردوسا بالنسبة للأقليات الدينية التي تعاني من الاضطهاد في أوروبا، والتي خاضت أوروبا لأجلها كثيرا من الحروب، وأنشبت فيهم كثيرا من المذابح.

ولذلك فإن هؤلاء المستشرقين حين يتحدثون عن معاملة النبي ﷺ مع اليهود والنصارى – أقصد المنصفين منهم – فإنما يلتفتون إلى هذا القدر العالي من التسامح الذي وجد في الدولة الإسلامية، والذي لم يكن موجودا في أي دولة في ذلك الوقت على هذا النحو.

والآن نشرع في التقاط بعض ما قاله المستشرقون الفرنسيون حول هذا الموضوع؛ ونبدأ من عند **جان بروا** فيقول: «أسست الدولة الإسلامية على الديمقراطية والعدل والمساواة العملية بين الناس جميعا، فغير المسلمين هم ذميون لهم من الحقوق العامة السياسية والواجبات ما للمسلمين ولهم ذمة الله وذمة رسوله، يضفي عليهم الأمن وترخي عليهم الطمأنينة وعلى عقائدهم ومعاهدهم ويفسح لهم في مجال العيش، وقد قضى على السلطات القبلية التي كان يمثلها زعماء القبائل ورؤساؤها، وأصبح قوام الدولة وعماد السلطان في يد رسول الله متبعا في كل ذلك الوحي الإلهي لا يحيد عنه ولا يقتفي إلا هداه هو والمؤمنون جميعا»[1].

والسر في ذلك أن حقوق الأقليات الدينية في العالم الإسلامي محفوظة بالنص المقدس، محفوظة بقوة القرآن والسنة، فالنبي ﷺ قال: «ألا مَن ظلمَ مُعاهدًا، أوِ انتقصَهُ، أو كلَّفَهُ فوقَ طاقتِهِ، أو أخذَ منهُ شيئًا بغَيرِ طيبِ نفسٍ، فأَنا حَجيجُهُ يومَ القيامةِ»[2]، وهذه النصوص التي تحفظ حقوق هذه الأقليات لا يملك أي حاكم إسلامي أن يغيرها.

وهذا بخلاف الدول الديموقراطية المعاصرة، فمن السهل تغيير قوانين معاملة

(١) جاك بروا، محمد نابليون السماء، ص٥٠.

(٢) رواه أبو داوود، وصححه الإمام الألباني.

الأقليات فيها، وكثيرا ما نرى تغير السياسات والتوجهات بتغير الحكومات، أو بتغير المزاج الشعبي، وليس ما حدث مع قدوم ترمب إلى البيت الأبيض[1]، أو صعود اليمين في أوروبا، وأثر ذلك على ملف معاملة الأقليات وحقوق اللاجئين والمهاجرين عنا ببعيد، وبالتالي فهذه (الواحة الغربية) -كما يراها الكثيرون- ليست مضمونة ولا مأمونة، ذلك لأن قوانينها لا تستند إلى نص مقدس، ولا تستند إلى عقيدة دينية، بينما حقوق الأقليات في العالم الإسلامي مستندة إلى نصوص مقدسة، وإلى العقيدة الدينية للدولة الإسلامية، وكثيرا ما حصل في تاريخنا الإسلامي أن وقف علماء المسلمين مدافعين عن الأقليات ضد من يريد أن يضطهدهم من الحكام المسلمين، وهذا الأمر مما يطول التفصيل فيه، وليس هذا مقامه! ولكن أحببنا أن نشير إليه إشارة سريعة ليتبين الفارق بين استناد القوانين في الدولة الإسلامية إلى نصوص جوهرية مؤسسة في العقيدة الدينية، بينما القوانين في الديموقراطية الغربية من الممكن أن تتغير لتحد من حقوق الأقليات الدينية، وتضيق عليهم كما نرى ما يحدث في فرنسا وغيرها من تضييق على المسلمين.

إذا انتقلنا الآن للحديث عن علاقة النبي ﷺ مع اليهود في المدينة، فإننا نجد أن بعض المستشرقين حين بحثوا مسار علاقات الرسول ﷺ باليهود الذين كانوا في المدينة، لاحظوا هذه المراحل:

المرحلة الأولى كانت مرحلة تحويل القبلة، يقول **ناصر الدين دينيه** عن ذلك: «لما أمر الله رسوله أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام، انقلبوا على أعقابهم مغيظين، ثم إنهم -فضلا عن ذلك- لم يلبثوا أن شعروا بأن مجيء محمد إلى المدينة كان مضرا بمنافعهم الانتهازية، فالفضل يرجع إلى محمد في إعادة السلام والصفاء إلى الأوس والخزرج، وقد

(١) المقصود هنا فترة رئاسته الأولى التي بدأت في يناير ٢٠١٧م، وقد افتتحها بعدد من القوانين ضد المهاجرين واللاجئين. وأكتب هذه الحاشية في مطلع رئاسته الثانية (يناير ٢٠٢٥م) وهو قد وعد بتكرار ما فعل وبإجراءات أكثر تشددا.

كان اختلافهما فيما مضى يعتبر من الفرص الطيبة بالنسبة لليهود، على أن هذا الرسول الذي بشّرت به كتبهم، والذي كانوا يعلقون عليه آمالا واسعة، والذي يعرفونه إذ ذاك، كما يعرفون أبناءهم، هذا الرسول لم يكن من ذرية آبائهم وأجدادهم، إنه من ولد إسماعيل، وها هو ذا يحمل سراج الإسلام المنير، فحاولوا بكل ما أوتوا من وسائل أن يطفئوا نور الله»[1].

ومن المعلوم أن النبي ﷺ حين جاء بالإسلام، أعلن أنه مُصَدِّقٌ لما جاء به موسى وعيسى والنبيون من قبل، وأنه يتحدى اليهود بأنهم يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل، وكان يتحدى المشركين من عرب قريش بأن ما يأتيهم به يمكن أن يشهد على صحته وصدقه أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فلم يأت النبي ﷺ معلنا العداء ضد أهل الكتاب، ولم تكن طبيعة رسالته أن يبدأ عداء مع اليهود والنصارى، بل كان من المتوقع -بأي تفكير عقلاني- أن يكون اليهود والنصارى هم أسبق الناس إلى اتباعه والدخول في دينه.

يقول **مارسيل بوازار** عن ذلك: «لم يكن من ضمن رسالته أن يبطل ما أنزل من قبله، بل أن يصدقه ناقضا ما لحق الكتب السماوية من تحريف وانتهاك. وكلَّف تطهير تعاليم الرسل السابقين من كل مخالفة، والتوسع فيها وتتميمها لتغدو ملائمة للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان»[2].

وحين استعرض **جوستاف لوبون** المؤرخ والفيلسوف الفرنسي صاحب النظريات المعروفة في علم الاجتماع، مسألة العلاقة بين اليهود والنصارى، ونظر في آيات القرآن الكريم خرج بهذه الخلاصة التي تقول: «رأينا من آي القرآن التي ذكرناها آنفا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٩٠، ١٩١.

(٢) بوازار، إنسانية الإسلام، ص٤٣.

ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته، وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوربا المرتابون أو المؤمنون القليلون الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب»[1].

في نفس هذا المعنى يتحدث **إريك يونس جوفروا** -وهو مستشرق فرنسي معاصر- في كتابه «المستقبل للإسلام الروحاني» فيقول: «هذه المبادئ القرآنية المثالية شكّلت دون شك القاعدة الضرورية التي تأسست عليها الحصافة الدينية الناضجة التي تفتح على أبواب الكونية: أي على التسامح الذي ميّز الإسلام الكلاسيكي في العصر الذهبي، وقد شهد على ذلك كثيرون من بينهم فلاسفة التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر، وكذلك العديد من المستشرقين على إثرهم، كلهم أشادوا بعظمة الحضارة العربية الإسلامية في تلك العصور الزاهرة وانفتاحها»[2].

ولكن قد يتساءل البعض، إذا كان الأمر على هذا النحو، فلماذا أجلى النبي ﷺ اليهود من المدينة؟

لنترك **هنري ماسيه**، الكاتب المؤرخ الفرنسي المعروف، يجيب عن هذا السؤال في كتابه «الإسلام»، حيث يتحدث عن بداية هذا التوتر مع اليهود، وذلك حين بدأ النبي ﷺ في تأسيس الدولة في المدينة، فيقول: «ولكن جميع هذه الأحكام التي ثبت فيها سلطته ما لبثت أن أقامت عليه اليهود القلقين على تفوقهم المالي، والحقيقة أن عداوتهم لم تظهر بوضوح، والقرآن عاملهم كمرائين، ومحمد، المنتظر أن يلعب دور الحكم بين عناصر سكان المدينة المختلفة، حاول أولا أن يستميلهم»[3].

ويضيف **إميل درمنغم** في تحليله لما سارت عليه العلاقة مع اليهود فيقول: «لم ينفك

---

(١) وبون، حضارة العرب، ص١٢٨.

(٢) إيريك يونس جوفروا، المستقبل للإسلام الروحاني، ص٥٠، ٥١.

(٣) ماسيه، الإسلام، ص٤٧، ٤٨.

يهود المدينة عن العطف على مشركي مكة، وقد رأينا أن أبا سفيان ضاف أحد رؤسائهم فأطلعه هذا الرئيس على أخبار المسلمين، ولم يستطع اليهود أن يتحدوا، فتمكن محمد من قهر قبائلهم الواحدة بعد الأخرى»[1].

وهو هنا يشير إلى كعب بن الأشرف، وعلاقته الوطيدة بمشركي قريش، حيث كان رجلا زعيما من زعماء اليهود، كما أنه كان شاعرا، فكان يهجوا النبي ﷺ، كما كان يشبب بنساء المسلمين في أشعاره، إلى جانب ذلك كان ينقل أخبار المسلمين المجاورين له في المدينة إلى قادة قريش من المشركين في مكة، وهذا يعني أن العداوة بدأت ابتداءً من اليهود وزعمائهم تجاه النبي والمسلمين.

يتحدث **ناصر الدين دينيه** عن هذا فيقول: «لم يكونوا (اليهود) ليغفروا لمحمد ما جاء به من إخاء ومساواة في الدين، وإنهاء المنازعات الداخلية، التي كانت قائمة بين أهل المدينة، تلك المنازعات التي طالما استغلوها فيما مضى، فضلا عن أنهم لم ينظروا بعين الرضا إلى انتصارات العرب المسلمين، بل خافوا الوقوع تحت نير حكمهم، لذا كان كل انتصار جديد لجند المسلمين يزيد في غيرتهم، ويدفعهم إلى الغدر، حتى صار عداؤهم للإسلام علنيا، فاقتضى ذلك من أتباع الدين الجديد سلسلة طويلة من الغزوات»[2].

وأريد أن أتوقف عند مسألة بني قريظة تحديدا، وقد كانوا أحد قبائل اليهود في المدينة؛ ثم إنهم غدروا فنقضوا العهد مع المسلمين في أشد لحظة مرت بالدولة الإسلامية، وهي غزوة الأحزاب، فلما انتهت الغزوة شن النبي عليهم حربا وحاصرهم في حصونهم، حتى استسلموا، فأنزل بهم عقوبة الخيانة وعقوبة الحرب، وهي قتل المقاتلة[3] وسبي النساء

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٣٨.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٥٣.

(٣) المقاتلة: أي المقاتلون، وهم الذين بلغوا سن القتال الذي هو سنّ الرجولة! فكل من بلغ سن الرجولة فهو مقاتل. ولم يكن في ذلك الزمن القديم ما هو في واقعنا الآن من التفريق بين الناس على أساس: المدني والمقاتل.

والذرية.. وهذه الحادثة هي أكثر الحادثات التي يُدان فيها النبي ﷺ في كتابات الغربيين والعلمانيين.

وأريد أن أقرر وأُذَكِّر في البداية أننا، نحن المسلمين، نعتقد أن ما يفعله النبي ﷺ هو المعيار وهو المقياس وهو الحق، وأنه لا يصح أن نحاكم أفعال النبي ﷺ إلى أي معيار تحسين أو تقبيح عقلي، أو مبني على ثقافات غربية أو شرقية، لأن ذلك من شأنه أن يوقعنا في إدانة بعض الأفعال التي هي حق في ذاتها بالمعيار النبوي الشرعي، ذلك لأن النبي ﷺ إنما يصدر في أفعاله عن الوحي، وإذا وقع ما يخالف مراد الله عز وجل، فإن الوحي ينزل بالتعقيب والتصحيح، فصار كل ما ثبت عن رسول الله ﷺ هو الحق المطلق، وهو المعيار في الحكم على الأشياء صحة وخطأ، حسنا وقبحا.

ومن اللطيف هنا أن نبدأ مع واحد من هؤلاء المنصفين، وهو **إميل درمنغم**، والذي سيخطئ في هذا المقام خطأ يستحق أن نتوقف فيه وقفة لبيان بعض مشكلات المستشرقين المنصفين..

درمنغم من المستشرقين الذين غلب عليهم الإنصاف، ولكنه في كتابه «حياة محمد» أراد أن يوفق بين الإسلام والمسيحية؛ فعَقَدَ فصلا عند حديثه عن هجرة المسلمين إلى الحبشة في محاولة التوفيق بين الإسلام والمسيحية، فقرر بأنهما شيء واحد، ولكن أتباع الديانتين هم الذين باعدوا بين الإسلام والمسيحية، وأنه كان من الواجب عليهم أن يأتلفوا.

ثم أنه -تعضيدا لوجهة نظره هذه- مارس تكلفا وتعسفا كثيرا جدا في محاولة جعل التعاليم الإسلامية هي نفسها التعاليم المسيحية، فحتى مسألة الصلب التي هي من المسلمات عند المسلمين أنها لم تقع، وأن عيسى عليه السلام لم يُقتل، وإنما رفعه الله إليه، حاول أن يجد لها توفيقا. بل حتى مسألة التثليث التي هي ضد جوهر الإسلام الذي هو التوحيد، ذكر أن التثليث الذي يفهمه المسيحيون هو نفسه التوحيد الذي أراده

المسلمون!!

إن هذا المسلك يوجد عند عدد من المستشرقين الذين يغلب عليهم الإنصاف، فكأنهم يريدون أن يقولوا لقومهم المسيحيين أن الإسلام لا يبعد كثيرا عن المسيحية، وأنه ليس كما يصوره المشنعون على الإسلام، والمفترون على رسول الإسلام وتعاليمه، وهم بذلك في واقع الأمر يحاولون التوفيق فيما لا يمكن التوفيق فيه.

هذا مع أننا نؤمن أن رسالة المسيح عليه السلام هي نفسها رسالة محمد ﷺ هي نفسها رسالة جميع الأنبياء عليهم السلام، حيث أرسلهم الله جميعا بدين واحد هو دين الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم، ولكن المشكلة في التحريف الشديد الذي وقع للمسيحية فأخرجها عن جوهر الدين الذي هو توحيد الله عز وجل، وبالتالي لم يعد من الممكن التوفيق أو التقريب بين الإسلام الباقي على صفائه ونقائه الذي أنزله الله على رسوله ﷺ، وبين المسيحية التي طالها التحريف والتغيير حتى خرجت عن أصل التوحيد والتشريع الذي أنزله الله على عيسى علسيه السلام.

إنني أذكر الآن هذا المسلك عند **إميل درمنغم** باعتباره مثالًا لبعض أخطاء المستشرقين المنصفين، ذلك لكي يكون الأمر واضحا في أذهاننا.

لقد تأسف **ردمنغم** لأن النبي ﷺ عاقبهم تلك العقوبة، ورأى أن هذه الحادثة خدشت صفاء صفحته الشديدة النقاء، يقول: «كنا نودّ ألا نسجل مثل هذه الوقائع في تاريخ محمد الذي عَلِمْنا من نُبْلِه وسُمُوِّ نفسه ما علمنا، ومحمد هو الذي لم يصنع غير الدفاع عن النفس ببقائه ضمن مبادئ زمنه وبلده الحقوقية، وكنا نودّ لو كان محمد أصفى وأرحم، ولو كانت صفحته الشديدة النور خالية من ذلك، وهو رسول الله الذي بعث أمته وأحياها، وإذا كان محمد قد قسا على اليهود فإن من الإنصاف أن يُعترف بأنهم خانوه»[1].

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٤٤، ٢٤٥.

ويواصل فيقول: «والحق أنه كان من الصعب ألا يُصَفِّي المسلمون حسابهم مع بني قريظة اليهود الذين انحازوا إلى العدو أيام غزوة الأحزاب»[1].

وموقف درمنغم هذا يعد مثالا للنقد العاطفي الذي يصدر أحيانا من بعض المستشرقين المنصفين -فليس عندهم بطبيعة الحال ما عندنا نحن المسلمين من اعتقاد فيما أخص أفعال النبي ﷺ.

يقول **ناصر الدين دينيه** وهو يتحدث عن تعامل المسلمين مع يهود خيبر: «لم تكن انتصارات المسلمين المتتالية، رغم خطورتها، بضربة قاصمة لشوكة اليهود بالجزيرة، فقد كانوا يملكون بالمدينة، وعلى بعد ستة وتسعين ميلا منها يملكون ولاية خيبر، التي تفوق في الغنى والأهمية كل ما فقدوه، وقد زاد تعطشهم إلى الثأر شدة، واستمرت وقدة الحقد للإسلام في قلوب أهل خيبر بوفود الجماعات تلو الجماعات من اليهود الهاربين إليهم من المدينة، واعتقد أهل خيبر أنهم بمأمن من ضربات المسلمين، فلم يألوا جهدا في سبيل الكيد لهم»[2].

لقد كانت خيبر المركز الرئيسي للمؤامرات اليهودية على النبي ﷺ، لذلك، فما إن فرغ النبي ﷺ من جبهة قريش بعقده صلح الحديبية معهم، الذي وضع الحرب بين المسلمين وبين قريش مدة عشر سنين، حتى توجه ﷺ إلى مركز المؤامرات اليهودية في خيبر، وفتحها ﷺ في محرم من السنة السابعة من الهجرة.

يقول **إميل درمنغم**: «هاجر كثير من اليهود الذين طردهم النبي من المدينة إلى خيبر، التي هي واحدة كبيرة على ست مراحل من المدينة إلى جهة الشام، فكان يستعمرها

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٧٣.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٥٦.

جماعة من موسري اليهود، فأصبحت خيبر مركزا لِحَوْك الدسائس ضد الإسلام»[1].

ومما يؤكد ما ذكرناه سابقا من أن النبي ﷺ لم يأتِ للعداء ولا بالعداء لليهود، ما فعله مع اليهود بعد فتح حصونهم في خيبر، كما يقول **كلود إتيان سافاري** عن ذلك: «لما رأى سكان خيبر أن قلعتهم قد سقطت، فتحوا للمنتصرين أبواب مدينتهم وتضرعوا إلى محمد أن يترك لهم زراعة نخيلهم وأراضيهم على أن يُعطوه نصف المحصول، فأجابهم إلى طلبهم»[2].

فعلى الرغم مما حاكوه من المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين، ومن مقاومتهم للنبي ﷺ وحربهم له، فإنه ﷺ حين قدر عليهم وقضى على خطرهم، لم يقتلهم، بل أقامهم على حقولهم يزرعونها ويدفعون الخراج لرسول الله ﷺ.

ونختم بكلام **ناصر الدين دينيه**، حيث يقول: «وكانت خيبر أغنى بلاد الحجاز، فكثرت المغانم وقسمت، فأخذ منها نصفها لسد نفقات الحج المزمع إقامته إبان السنة الجارية[3]، وفَرَّقَ النصف الثاني بين الجنود، أما الأراضي فقد أخذ منها الرسول واليتامى نصيبهم، وقسم الباقي، فكان لكل راجل منهم سهم، ولكل فارس سهمان، وفضلا عن ذلك فقد منح كل صاحب جواد كريم هدية، وذلك لتشجيع تربية الخيل»[4].

وهكذا نرى كيف أن النبي ﷺ حينما فتح مركز الدسائس وهو خيبر لم يعمل على إبادة اليهود، وإنما عمل على نزع هذه الشوكة من خاصرة الدولة المسلمة، وإتلاف هذا المركز وتعطيل حركته، ثم سَمَحَ لليهود بالبقاء، رغم أنه كان يملك أن يجليهم تماما، بل كان يملك أن يبيدهم أيضا، ولكنه لم يفعل ﷺ، لأنه لم يأتِ بهذا، وليس هذا مقصد

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٤٠.

(٢) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٦٢.

(٣) يقصد بـ «الحج المزمع في العام الجاري» عمرة القضاء التي كانت مقررة في صلح الحديبية، وليس الحج.

(٤) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٦٠.

الفتح، أو غاية الدعوة.

هذه السيرة للنبي ﷺ من الأمور المجهولة والمشوشة وأحيانا المشوهة، والتي ينبغي أن يستوعبها المسلمون على حقيقتها ونقائها وصفائها، وكذلك يستجليها ويستكشفها غيرُ المسلم، لأن كثيرا من غير المسلمين يتصورون أن النبي ﷺ جاء بالسيف، وجاء مبيدا مبيرا، وهذا ليس بصحيح، بل جاء بالنور والهداية والرحمة للعالمين، وقد استدللنا على من أقوال المستشرقين الفرنسيين أنفسهم.

محرر المرأة

ومن الموضوعات التي يُشَنَّعُ بها على النبي ﷺ، موضوع حق المرأة ومكانتها في الإسلام، ونستجلي فيه الحقيقة كذلك من خلال أقوال المستشرقين الفرنسيين المنصفين.

والواقع أنني وجدت صعوبة في انتقاء الكلام والنقولات عن المستشرقين الفرنسيين، وذلك لكثرتها وتعددها وتنوعها، ذلك لأن إنصاف المرأة للإسلام واضح وظاهر لكل منصف ومدقق في تشريعاته وأحكامه، والأمثلة والشواهد على تحرير الإسلام للمرأة ورفعه لمكانتها وصيانته لكرامتها كثيرة متواترة، والاقتباسات التي نقلتها عنهم في هذا الفصل هي غيض من فيض مما ذكروه واستدلوا به في هذا الباب.

نبدأ بالتكريم العام الذي أقره الإسلام للمرأة، يقول **ناصر الدين دينيه** عن ذلك: «وبفضل تشريعاته الحكيمة أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، وقد وصف أعداء الإسلام تلك السنة الحكيمة بأنها «شراء للمرأة»، وهم لم يسمعوا، فيما أظن، ذلك الجواب المفحم الذي يمكن أن يرد به المسلمون عليهم حينا يقولون لهم: إن المهر في بعض الأقطار الغربية يدفعه والد البنت إلى رجلها! وفوق ذلك، فالمسلم مكلف بسائر حاجات البيت دون أن يكون له أي حق في التصرف في مال امرأته، ومنح الرسول المرأة كذلك حق في الميراث-، وحقها به: نصف

حق الذكر، وذلك لأن المرأة لا تدفع مهراً كالرجل وليست مكلفة بحاجات البيت»[1].

في نفس هذا الإطار يقول المستشرق الفرنسي المعاصر، والذي اعتنق الإسلام، إريك يونس جوفروا: «لقد كانت ثورة (الإسلام) ثقافية بالمعنى الواسع للكلمة: حضارية، يمكننا أن نضرب مثلا على ذلك «التحرير» الذي حظيت به المرأة بعد الإسلام؛ فقد حظيت بذات مستقلة ومسؤولة أمام الله، تماما كالرجل، الاحترام الكبير الذي كان النبي يبديه للمرأة بشكل عام وكذلك الحياة الحميمية التي كان يتعاطاها معها قد أزعجا بعض الصحابة المقربين كعمر بن الخطاب مثلا»[2].

وهو هنا يشير إلى قول عمر رضي الله عنه -وهو يحاول إرضاء النبي ﷺ في مغاضبة زوجاته-: يا رسول الله قد كنا في مكة وما نرى النساء إلا شيئا من المتاع...

وهذا الموقف نفسه يعلق عليه **إميل درمنغم** أيضا فيقول: «مما لا ريب فيه أن الإسلام رفع شأن المرأة في بلاد العرب وحسن حالها، قال عمر بن الخطاب: «ما فتئنا نعد النساء من المتاع حتى أوحى في أمرهن مبينا لهن»، وقال النبي: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم خلقا»، أجل، إن النبي أوصى الزوجات بإطاعة أزواجهن، ولكنه أمر بالرفق بهن، ونهى عن تزويج الفتيات كرها وعن أكل أموالهن بالوعيد أو عند الطلاق».

وباعتبار أن موضوع المرأة من الأمور التي ينتبه لها أيضا الأدباء والشعراء، فنجد فقرة جميلة عند **ألفونسو دي لامارتين**، الأديب والشاعر الفرنسي، يقول: «وكرّس محمد حقوق الملكية للنساء، وقد كنَّ -إلى ذلك العهد- محرومات من كل حق في أن يمتلكن شيئا، في سياق الحياة الزوجية، وأوصى بالأرامل أولادهن وجعل الجنة تحت أقدام

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٩.

(٢) إيريك يونس جوفروا، المستقبل للإسلام الروحاني، ص٢٢.

الأمهات»[1].

يعود **إميل درمنغم** فيتحدث عن حقوق المرأة التي وفرها لها الإسلام فيقول: «من المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة في الإسلام قد جُرِّدَت من نفوذها زوجة وأمًّا كما تُذَم النصرانية لعدِّها المرأةَ مصدرَ الذنوب والآثام ولعنها إياها، فعلى الإنسان أن يطوف في الشرق ليرى أن الأدب المنزلي فيه قويٌّ متين، وأن المرأة فيه لا تَحْسُد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والأذرع العارية ولا تحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا، ولم يكن العالم الإسلامي ليجهل الحب المنزلي والحب الروحي، ولا يجهل الإسلام ما أخذناه عنه من الفروسية المثالية والحب العذري»[2].

ومما نلفت النظر إليه هنا أن إميل درمنغم كتب كتابه هذا (حياة محمد) في الثلاثينات من القرن الماضي، قبل حوالي ٩٠ سنة من الآن، لذلك كانت الفروق في مقارنته بين النساء في العالم الإسلامي والنساء في العالم الغربي واضحة جلية. أما ألفونسو دي لامارتين فقد كان قبل ذلك، إذ كان في القرن التاسع عشر، فكانت المقارنة أكثر وضوحا بين حال النساء المصونات في العالم الإسلامي وبين حال المرأة في الغرب التي تضطر إلى العمل، وتضطر أيضا إلى التزين لكي تسوق نفسها في شؤون العمل. ومن المؤسف أن هذه الفروقات قد انحسرت بشكل كبير في وقتنا المعاصر بسبب الغزو الفكري الذي ضرب بلادنا بعد الاحتلال الأجنبي لها.

أما مسألة الحب العذري أو الحب الروحي أو المثالي أو ما يسمونه الحب الأفلاطوني الذي يشير إليه درمنغم، فقد بحثه كثير من المستشرقين، فوجدوا أن أوروبا لم تعرف هذا الحب إلا بعد احتكاكهم بالمسلمين والعالم الإسلامي في فتح الأندلس ثم في الحروب الصليبية، وهذا الكلام كتب فيه طويلا جدا مما لا يتسع المقام للبسط فيه في هذا

(١) ألفونسو دي لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد ص١٢١.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٣٣١.

المقام، ويكفي أن نعلم أن المرأة كانت في نظر الحضارة الغربية المسيحية هي أصل الشرور والآثام، بل كانوا لا يعتبرونها روحا ونفسا إنسانية مثل الرجال، فضلا عن أن تُحب حبا عذريا روحيا ساميا عن حاجات الجسد، وظل هذا هو السائد في أوروبا حتى جرى احتكاكهم بالحضارة الإسلامية فتأثروا بمكانة المرأة في الإسلام، والتكريم الذي حظيت به في الثقافة الإسلامية.

يقول **ألفونسو دي لامارتين**: «ينبغي أن نذكر –آخر الأمر– أنه بدأ في شجاعة في تحرير المرأة وفي إكسابها كرامتها من خلال إقراره تساويها بالرجل في الروح وفي خلود المصير، وذلك حينما قبل أن تكون من أتباعه، ومن خلال تحريم وأدها عند الولادة، حسب ما كانت عليه عادة العرب، ومن خلال إرشاد أتباعه إلى وجوب أن يكرموا فيها الأم والبنت والزوجة، وأحسن ما خلق الله وأقدسه»[1].

لكن المسألة التي دائما ما يتوقف عندها كثير من الغربيين بالنقد والتجريح هي مسألة تعدد الزوجات التي يقرها الإسلام..

وقبل أن أورد النقول والردود على هذه المسألة من كتابات المستشرقين الفرنسيين، أود أن ألفت النظر إلى أن مسألة تعدد الزوجات لم تكن لتطرح في سياق النقد والتجريح، إلا لأن سياق الثقافة الغربية الغالبة هو الذي يطرحها، فكثير من الأمم تقر في أعرافها وثقافاتها تعدد الزوجات، ولم يكن هذا شيئا عجيبا ولا غريبا، ولا هو بالأمر الذي ابتدعه الإسلام ابتداءً، ولكن حين غلبت الثقافة الغربية، والتي يتزوج الرجل فيه زوجة واحدة – حتى لو كانت له عشيقات بخلاف زوجته–، ثم هم يستنكرون في ثقافتهم تعدد الزوجات.

كان من نتيجة غلبة هذه الثقافة أنها صدرت هذا التصور على أنه المثال، وغيره يكون مثار شبهة وانتقاد، هذا لأنها هي الحضارة الغالبة، وبالتالي تفرض ثقافتها ومعاييرها على

(١) ألفونسو دي لامارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٦٦.

الأمم المهزومة، والمغلوب دائما مولع بتقليد الغالب كما يقول ابن خلدون، لذلك تسربت هذه المعايير والأحكام إلى الثقافة العربية والإسلامية، وصار يُنظر إلى تعدد الزوجات باعتباره سبة، وباعتباره أزمة، وباعتباره مشكلة، وباعتباره تحقير من شأن المرأة، وليس هذا صحيحا البتة، لكن القصد هنا أنه لو لم تكن الثقافة الغربية هي الغالبة، ربما لم يكن هذا الموضوع ليثار أصلا، أو على الأقل لم يكن ليُنظر إليه باعتباره سبة ومنقصة وأزمة.

ولو أننا تصورنا مثلا أن الثقافة الهندية هي التي غلبت وعمت العالم، لم تكن مسألة مثل تعدد الزوجات ستكون هي محل الإثارة والجدل، بل ربما أدانت الثقافةُ الهنديةُ الغالبةُ العالمَ الإسلامي لأنه لا يحرق الزوجة بعد وفاة زوجها، كدليل على الوفاء والارتباط العاطفي المتين، لأنه في بعض عادات الهند وأديانهم- والهند تعتبر متحف أديان – يجب على المرأة أن تُحرق بعد وفاة زوجها، علامة على الوفاء له، فربما انتقدت الثقافة الهندية الغالبة العالم الإسلام -في ذلك الحال المتخيل- لأن المرأة المسلمة لا تحرق نفسها، وبالتالي يعتبر هذا طعنا في وفائها لزوجها، والمقصد من ضرب هذا المثال هو الإشارة إلى ان الحضارة الغالبة عادة ما تطرح ثقافتها كمعيار حاكم، وتنتقد السلوكيات التي تغاير ثقافتها مما هو لدى الأمم والشعوب الأخرى.

ومن ثم فالواجب أن ننتبه إلى منبع هذه الشبهات، من أين تأتي؟ وماهي العقلية التي كونت هذه الشبهة؟ ولماذا نظر إلى هذا الأمر باعتباره خيرا وصوابا؟ ولماذا نظر إلى ذاك الأمر باعتباره شرا ومنكرا؟

نأتي الآن إلى النقول عن المستشرقين الفرنسيين حول هذا الموضوع، ونبدأ مع **إميل درمنغم**، حيث يقول: «وأباح محمد تعدد الزوجات، وما كان ليستطيع أن يصنع غير ذلك في بلاد إبراهيم، ولم يوص الناس به، ولم يأذن فيه إلا بشرط العدل بين الزوجات، فَيَهَبَ

لإحداهن إبرة دون الأخرى، وحظر جمع أكثر من أربع زوجات في آن واحد»[1].

ويقول **ناصر الدين دينيه**: «فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شيء ذائع في سائر أرجاء العالم، وسوف يظل موجودا ما وُجِد العالم، مهما تشددت القوانين في تحريمه، ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد، أم أن يظل نوعا من النفاق المتستر، لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه، وقد لاحظة جميع الرحالة الغربيين –ونخص منهم بالذكر جيرار دي نيرفال والليدي مورجان– أن تعدد الزوجات عند المسلمين، وهم يعترفون بهذا المبدأ، أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية: فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم في هذا»[2].

وجيرار دي نرفال رحالة غربي[3]، رحلته مشهورة ومنشورة في أربعة أجزاء، وهي مترجمة للعربية، وأما السيدة مورغان[4] فهي أديبة ورحالة أيرلندية لم أقف على شيء من أعمالها، ولكن الطرافة هنا رصدهم أن تعدد الزوجات كان منتشرا في الغرب أكثر من انتشاره بين المسلمين، على الرغم أن المسيحية التي هي دين الغرب تحظر عليهم تعدد الزوجات! ويفسر ذلك بأنه لما أبيح تعدد الزوجات عند المسلمين بشروط وضوابط لم ينهمر المسلمون عليه، بينما لما مُنِع تماما عند النصارى أقبلوا عليه بشهوة الرغبة في الحصول على الممنوع، فكأن الغربي يشعر في اتخاذ العشيقة أو الخليلة بشيء فوق الحاجة الطبيعية للرجل العادي، كأنما هي لذة الثمرة المحرمة، أو نشوة المغامرة والحصول على الممنوع، فضلا عن أن الزنا لا تترتب عليه مسؤوليات ولا له شروط ولا

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٣٠.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) جيرار دي نيرفال (Gérard de Nerval) عاش في القرن التاسع عشر بين (١٨٠٨ – ١٨٥٥م).

(٤) الليدي مورغان (Sydney Owenson = Sydney Morgan = Lady Morgan) عاشت بين عامي (١٧٨١ – ١٨٥٩م)

ضوابط!

ويواصل **دينيه** كلامه عن التعدد الزوجات وفائدته للمجتمع، فيقول: «ومع ذلك فإننا نتساءل: هل في زوال تعدد الزوجات فائدة أخلاقية؟ إن هذا أمر مشكوك فيه: فالدعارة التي تندر في أكثر الأقطار الإسلامية سوف تتفشى فيها وتنشر آثارها المخربة، وكذلك سوف يظهر في بلاد الإسلام داء لم تعرفه من قبل، ذلك هو عزوبة النساء التي تنتشر بآثارها المفسدة في البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة، وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفزعة، وخاصة عقب فترات الحروب»[1].

وقد أثبتت الأيام أن ناصر الدين دينيه كان بعيد النظر، وثاقب البصر، لكي يتوقع مثل هذا الأمر، فقد كتب هذا الكتاب في الثُلُث الأول من القرن العشرين، وإن الناظر في حال كثير من البلاد المسلمة اليوم، يجد أن المجتمع قد ضربته هذه الأمراض وعصفت به هذه المفاسد، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فالله تبارك وتعالى حينما يبيح شيئا لعباده فهو يعلم أن ذلك يصلحهم في معاشهم وآخرتهم، وحينما يحرم عليهم شيئا فلأنه يفسد دينهم ودنياهم، فتشريعات الله لعباده كلها خير وحكمة ورحمة وصلاح «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ» (الملك - ١٤)، ونحن طالما تتبعنا آثار الغرب واقتفينا آثارهم في ثقافتهم وقواعدهم الاجتماعية، فإننا حتما سنصل إلى ما وصلوا إليه من الانحلال والفساد.

وثمة نقل جميل عند **إميل درمنغم**، وهو متعلق بحادثة شخصية وقعت للنبي ﷺ، ولكنه التقط هذا الموقف ليستدل به على صدق النبي ﷺ، يقول: «فوُلِد له منها -يعني من مارية القبطية- ابنه إبراهيم فمات طفلا، فحزن محمد عليه كثيرا ولحده بيده وبكاه، ووافق موتُ إبراهيم كسوفَ الشمس، فقال المسلمون: إنها انكسفت لموته، ولكن محمدا كان من سموّ النفس ما رأى به ردَّ ذلك فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٥٧.

تُخسفان لموت أحد»، فقولٌ مثلُ هذا مما لا يصدر عن كاذب دجال»[1].

يشير هنا إلى حادثة وفاة إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وكانت قد ولدته له سُرِّيَّتُه ماريا القبطية، والتي كان المقوقس ملك مصر قد بعث بها إلى رسول الله ﷺ عندما وصلته رسالته التي يدعوه فيها إلى الإسلام، فولدت ماريا القبطية لرسول الله ولدا، سماه إبراهيم، ثم قدر الله أن يموت إبراهيم وهو دون العامين، لما يكمل رضاعه بعد، فحزن عليه رسول الله ﷺ حزنا شديدا، وبكاه وهو يجود بروحه بين يديه ﷺ، وقَدَّرَ الله أن تُكسف الشمس يوم وفاة إبراهيم، فظن الناس أنها كُسفت لموت إبراهيم ابن رسول الله، ولكن النبي ﷺ رغم الحزن والألم الذي أصابه لفقد فلذة كبده، وقف يصحح هذه الخطأ الذي اعتقده الناس، وليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنخسفان لموت أحد، ومن هنا التقط درمنغم دليلا جديدا على صدق نبوة رسول الله، فلو كان محمد كاذبا أو مدعيا – حاشاه رسول الله– لأسرع إلى الاستدلال بكسوف الشمس يوم وفاة ابنه على صدقه وعلى مكانته عند ربه! فكان موقفه هذا مزيد تأكيد على صدق نبوته صلوات ربي وسلامه عليه.

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣١٨.

غياث الضعفاء والفقراء

كيف تعامل محمد ﷺ مع الفقراء والمساكين؟ وما الذي جاء به من التعاليم والأحكام التي تتعلق بهم؟ وهل كان محمد من دعاة العدالة الاجتماعية أم كان منحازا إلى الأغنياء؟ وكيف كان هو نفسه: فقيرا أم غنيا؟ زاهدا في الدنيا أم مستكثرا منها؟.. دعونا نرى كيف رأى المستشرقون والمؤرخون الفرنسيون هذا الموضوع..

فيما عدا من لا يؤبه لهم من المتعصبين، فقد كانت شدة وضوح موقف الإسلام المتميز من هذه القضية، وسمو تشريعاته وتعاليمه مانعة لأحد أن يعود عليها بالطعن أو الانتقاص، بل لقد تعاليم رسول الله ﷺ وهديه في هذا الباب بديلا للمنظومة الغربية، وحلا لمشكلاتها الناتجة عن انحراف منهجها.

نعلم أن رسول الله ﷺ لو كان يريد من وراء دعوته مالا لكان من اليسير عليه تحصيله، ومنذ البداية، فقدت عرضت عليه قريش المال حتى يتوقف عن دعوته للإسلام، وذلك حين جاءه عتبة ابن ربيعة وقال له: «إن كنت تريد مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا»، ولكن النبي ﷺ لم يرد من وراء دعوته المال أو السلطة أو السيادة، وإنما أراد إيصال رسالة السماء إلى العالمين، داعيا وهاديا إلى الله، مبشرا ونذيرا، ولم ينشغل بشيء من متاع الدنيا، قل أو كثر، عظم أو حقر، بل ظلت حياته ﷺ حياة الرجل الزاهد المتخفف

من متاع الدنيا، المتقشف في مأكله وملبسه، سواء ذلك في فترة الدعوة والاستضعاف، أو في فترة الدولة والقوة والفتوح والسعة.

وقد رُوِيَ عن حال النبي ﷺ وعن حال بيوته في ذلك نصوص كثيرة، حتى وصل الأمر أن يخرج رسول الله من بيته ليلة من شدة الجوع، لعله يجد طعاما، أو لعله يجد من يضيفه من أصحابه، وهذا في الحادثة المشهورة التي التقى فيها أبا بكر وعمر، ولقد كان يَمُرُّ الهلال ثم الهلال ثم الهلال ولا يوقد في بيوت النبي ﷺ نار، يعني لا يطبخون طعاما، وإنما غذاؤهم التمر والماء، أو بعض هدايا يسيرة تأتيهم من جيرانهم من الأنصار، وجاء عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «لما فتحت خيبر، قلنا: الآن نشبع من التمر»[1]، وذلك لكثرة نخيل خيبر.

وفتح خيبر إنما كان في العام السابع من الهجرة، قبل وفاة رسول الله بثلاث سنين، ومع ذلك فالنبي ﷺ ظل زاهدا إلى آخر حياته، وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلست، فأدنى عليه إزاره وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظا في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناي، قال: ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانتك! فقال: يا ابن الخطاب، ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟ قلت: بلى[2].

لقد كانت حياة النبي ﷺ كزاهد متقشف من دلائل صدقه ﷺ، وهي من أوجه الاقتداء به التي ورثها عنه المسلمون، والزهد الذي أقصده هنا أن تكون الدنيا في يدك لا في قلبك،

---

(١) البخاري (٣٩٩٩).

(٢) البخاري (٤٦٢٩)، ومسلم (١٤٧٩).

تتعاطاها بيدك على مراد الله، ووفق الحلال والحرام، دون أن تكون في قلبك، هي شغلك الشاغل ليل نهار، بل ألا تفرح إذا زادت، ولا تحزن عليها إذا غابت أو نقصت، والنبي ﷺ كان أحيانا إذا توفرت تحت يده سعة من المال أو الزاد، ادخر قوت عام لأهله، لكنه في نفس الوقت مات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في قوتٍ استدانه ليطعم أهله.

وبطبيعة الحال، فإن صورة النبي الزاهد هي صورة يكثر تألقها في زمن الرأسمالية الذي تعيشه البشرية اليوم، حيث تتضخم ثروات البعض، حتى وصل الحال إلى أن حوالي خمسة بالمئة (٥٪) من الأفراد على مستوى العالم يكنزون تسعين في المئة (٩٠٪) من الثروة الموجودة في العالم، وبقية البشر يعيشون على الفتات المتبقي من طبقة الأثرياء والذي لا يزيد عن عشرة بالمائة (١٠٪) من الثروة في العالم، والإحصاءات في هذا الجانب مفزعة ومريعة جدا، لذلك فأن صورة النبي الزاهد تتألق جدا في عالم الرأسمالية المتوحش هذا.

ولكن إذا رجعنا إلى زمان النفوذ الاشتراكي، حين كان الاتحاد السوفياتي يتبنى الشيوعية الماركسية، ويطبق نموذج الاشتراكية فيما يتعلق بالاقتصاد والموارد، فكان المسلمون حينها يدافعون عن دينهم ونبيهم ﷺ، وكيف أنه ﷺ كان يرعى الفقراء والضعفاء، وأنه ﷺ كان زاهدا في نفسه، لكنه لا يفرض الزهد على الناس، بل يعطي كل ذي حق حقه، والنقول التي سوف نوردها في هذا الفصل عن المستشرقين الفرنسيين قد كتبت في أزمان رواج الاشتراكية، وكذلك بعضها في زمن توغل وتوحش الرأسمالية، لكن في نهاية الأمر فإن وجود الملك أو السلطان أو الحاكم أو الزعيم الزاهد هي صورة متألقة في كل وقت، لكنها تزداد تألقا في عالم تحكمه الرأسمالية.

نبدأ مع المؤرخ الفرنسي **لويس سيديو** الذي عاش في القرن التاسع عشر، حيث يقول: «وأما زهده فلا يختلف فيه اثنان، فإنه لم يتحول عن شظف العيش مع ما طالت يده من الأموال والخيرات، رأى الملوك ولم يتخذ أبهتهم مع ما بلغ من السلطان الذي لا يُبارَى

والشوكة التي لا تُرام، وكان نافذ الأمر والنهي، بشوشا حسن المعاملة مع الرفيع والوضيع، حليما لا سيما عند السؤال»[1].

ومما يذكر عن النبي ﷺ في جانب حسن خلقه الرفيع، وتواضعه الجم، أنه كانت تأتيه الجارية، وفي بعض الروايات: الجارية التي في عقلها شيء، يعني ليست تامة العقل، فكانت تأخذ بيده فيذهب معها حتى تفضي إليه بما تريد فينصت إليها ويستمع، وكان ﷺ في الحديث الصحيح يجيب دعوة المملوك الذي كان يصنع طعاما بسيطا ويدعوا إليه النبي ﷺ، فكان النبي يجيب دعوته ويجلس معه على طعامه، وهذا من أشد دلائل تواضعه ﷺ.

ومثل هذه المواقف تلفت أيضا نظر الأدباء والشعراء، لذلك يقول **ألفونسو دي لامارتين**: «لم يكن يكنز ذهبا ولا فضة، إذ كان يوزع ما يجتمع عنده من الزكاة على الجنود والفقراء، ذلك أنه قد نذر على نفسه أن يكون فقيرا، وكان يودع في أيدي الفقراء وفي قلوبهم كل ما كان يتلقى، إذ كان يرى فيهم أمناء مكلَّفين أن يسلمون تلك الودائع في اليوم الآخر»[2].

ولعله يقصد بقوله: «يرى فيهم أمناء مكلَّفين أن يسلمون تلك الودائع في اليوم الآخر» تلك الواقعة التي روتها السيدة عائشة رضي الله عنه أنهم ذبحوا شاة، وتصدقت بها السيدة عائشة، إلا أنها أبقت للنبي ﷺ ذراع الشاه لأنه كان يحبها، ثم سألهم رسول الله ﷺ ما بقي من الشاة، فقالت يا رسول الله ما بقي منها إلا كتفها، فقال النبي ﷺ: «بقي كلها غير كتفها»[3]. فكأنه يشير إلى أن الفقراء والمحتاجين الذين يعطيهم رسول الله ﷺ، فكأنما

---

(١) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٦٤.

(٢) لامارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٠.

(٣) حديث صحيح رواه: أحمد (٢٤٢٨٦) والترمذي (٢٤٧٠) وصححه، والحاكم (٧١٩٣) وصححه ووافقه الذهبي.

يعطيهم ودائع وأمانات، يدخرها عندهم، ثم سيسلمونها له يوم القيامة.

يقول **إميل درمنغم**: «لم يكن محمد وآله إلا في أقصى درجات الزهد في الطعام، فكان السَّوِيق الذي هو مزيج من الدقيق أو الشعير المقليّ ومن التمر والماء أو اللبن مأكلهم العادي، وكان طعامهم الآخر من التمر، ولم يكن في بيت محمد منخل فكان يعجن الدقيق فيه غير منخول، وقاسى محمدٌ ألم الجوع غير مرة، فاضطر ذات يوم إلى رهن درعه عند يهوديٍّ لخلُوّ بيته من صاع شعير»[1].

ويقول **ألفونسو دي لامارتين** في نفس هذا المعنى: «وقد غدت ماشيته –من الإبل والشياه بعد وفاته، وهي تركته الوحيدة– ملكا لبيت المال على أن يضمن قوت أرامله وغلمانه، وقد قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»[2].

فالقليل مما بقي من ميراث النبي ﷺ لم تنتقل ملكيته لأهله وورثته، وإنما ذهبت لبيت المال، لأن الأنبياء لا يورثون كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ، إلا ان آل بيت النبي ﷺ لهم حق في الصدقات.

ويتحدث **إميل درمنغم** عن هيئة النبي ﷺ بعد أن تم له النصر والظفر والسيادة في الجزيرة العربية فيقول: «وكان يتجنب كل ما يمكن أن يبدو به ملكا في هذه الدنيا، وكان ينهى عن تلقيبه بالملك وما إليه، وكان لا يُرى له بلاط ولا وزيرٌ خلا بضعة مستشارين وبضعة كُتَّاب وخاتما فضيا منقوشا عليه: محمد رسول الله»[3].

وقد توقف كثير من المستشرقين عند موضوع فرض الزكاة، وذلك لأن المعتاد من أهل الملك والسلطة أنهم يُقَرِّبون الأغنياء والأقوياء وأصحاب النفوذ ليستقووا بهم في

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٨٣.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢١.

(٣) إميل درمنغم، حياة محمد، ص١٨٦.

سلطانهم، وعلاقة السلطة والمال علاقة ثنائية معروفة في التاريخ، وعادة ما تكون هذه العلاقة على حساب الفقراء والضعفاء والطبقة المطحونة في المجتمع، إلا أن نموذج النبي ﷺ كان نموذجا فريدا في هذا الباب، فهو الرجل الذي أخذ من أموال الأغنياء ليعطي الفقراء، والرجل الذي كان الفقراء في ظله أحسن حالا من الأغنياء، فلذلك توقف المستشرقون عند مسألة الزكاة:

ممن تكلم في ذلك **جاك ريسلر** صاحب كتاب «الحضارة العربية»، حيث يقول: «كان النبي وهو ينظّم جماعة المدينة يعتبر عمل الصدقة هذا (الزكاة) ضريبة شرعية وإلزامية مقدارها عُشْر المداخيل وتوزّع على الفقراء والمحتاجين، ولكن إن كانت الدولة قد جعلت عمل الصدقة هذا مصدرا للعائدات، فإن مبدأ الزكاة سيظل، بفضل القرآن، فضيلة يمارسها المسلمون فطريا كواجب ديني، ولا بد من الثناء على محمّد لأنه كان أول من أسس ضريبة شرعية تؤخذ من الأغنياء لصالح الفقراء، هكذا أقام القرآن الحسنة الإلزامية، الواجبة»[1].

وهنا تنبيه مهم: فمن المعلوم لنا كمسلمين أن النبي ﷺ ليس هو من شرع الزكاة، وإنما هي فرض من الله عز وجل، ولكن هذا مما قد يختلط أحيانا على بعض المستشرقين، إلا أن المهم في هذا النقل أن جاك ريسلر يلفت النظر إلى أن الزكاة كونها فريضة دينية، فقد أعطاها هذا سلطة شرعية على المسلمين أقوى من سلطة القانون -مثل قوانين الضرائب مثلا-، بمعنى أن الدولة لو انحرفت، أو لم تفرض الزكاة الشرعية على الأغنياء حقا للفقراء، فإن المسلم يظل مستشعرا أن عليه أداء هذه الفريضة، ذلك لأن انبعاثه لأداء الزكاة هو انبعاث ديني، وهذا هو ما يحفظ استمرار وبقاء هذه العبادة في العالم الإسلامي، ولذلك سيظل العالم الإسلامي أكثر تكافلا وتراحما من أي مجتمع آخر.

---

(١) ريسلر، الحضارة العربية، ص٤١.

أما **كلود كاهن** المستشرق الفرنسي والمؤرخ المعروف فيقول: «رأى بعض المؤرخين المعاصرين في محمد مفكرا اشتراكيا حتى من قبل ظهور الفكر الاشتراكي، وذاك لعمري خطأ منهجي، فمحمد، شأنه شأن مؤسسي الأديان كافة، لم تكن له عقيدة اشتراكية، بل كانت لديه صرامة أخلاقية، فكان من الطبيعي أن تحمله هذه الخلقية الرفيعة على مكافحة بعض الظاهرات الاجتماعية التي كان يراها عيوبا في مجتمعه، ولذا كان قادرا على أن يجتذب إليه أولئك الذين كانوا يعيشون أوضاعا بائسة خاصة، إن الحسّ الرفيع الذي كان يحمله محمد في أعماقه هو حسّ الجماعة مع كل ما يقتضيه من تضامن متبادل بين أفرادها»[1].

ويتحدث ألفونسو دي لامارتين في لقطة يغلب عليها اللفظ الجميل، والمعنى العاطفي اللائق برجل أديب وشاعر فيقول: «إن هذا القانون المعمول به دينيا في جميع أقطار الإسلام، يكبت في تلك البلاد خيلاء الثراء الفاحش كما يكبت صراخ الفقر المدقع، وهو قانون يشيع في المجتمعات الإسلامية روح الانتماء إلى أسرة واحدة ويشيع واجب الأخوة بين المسلمين جميعا»[2].

وهو يقصد هنا الزكاة، فهي بالنسبة لأي سياق غير ديني تعتبر قانون، وهي قانون بالنسبة للدولة الإسلامية، ولكن الزكاة فيها معنى الفريضة الدينية فوق معنى القانون الإداري الذي تصدره الدولة، وهذا هو ما يعطيها هذا الأثر التراحمي الأخوي في المجتمع المسلم.

أحب أن أشير هنا إلى أننا إذا نظرنا إلى الزكاة باعتبارها وسيلة اقتصادية لإعادة توزيع الثروة، فهذا كلام كثير يتحدث فيه علماء الاقتصاد الإسلامي، وكيف أن الزكاة تعيد توزيع الثروة، وتعيد تمويل المشروعات، وتمنع من كنز المال في خزائن الأغنياء، وتحرك المال

---

(١) كلود كاهن، الإسلام، ص٣٨.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٧٤.

وتدوره في عجلة الاقتصاد، مما يعود بالنفع على الأغنياء والفقراء معا، وكذلك على اقتصاد المجتمع والأمة والدولة الإسلامية، إلى جانب ذلك يتحدث التربويون عن دور الزكاة في تطهير النفس، لأن النفوس جبلت على الشح وحب المال، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: ١٠٣]، فكلما تخلص المجتمع من صفات الشح والبخل وكنز الأموال وإمساكها، كلما كان مجتمعا أطيب وأنقى وأكثر تكافلا، وهذا يؤدي بدوره كذلك إلى اختفاء الطبقية المذمومة من المجتمع، وتخلص الفقراء من مشاعر الدونية أو الحقد والكره للأغنياء، وكلما كان هذا المجتمع أكثر سلاما ووئاما واستقرارا، ونموا وإنتاجا بطبيعة الحال.

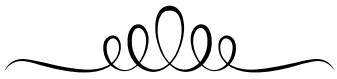

من المولد إلى البِعثة

عاش النبي بعد مولده وقبل بعثته أربعين عاما، كانت هذه الأربعين في فترة عُرفت باسم «الجاهلية».. فما هي هذه الجاهلية كما رآها هؤلاء المؤرخون والمستشرقون الفرنسيون؟!

الجاهلية

جاء في صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال يوما في خطبته -في حديث طويل-: «وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ». إن هذا الحديث الذي يخبرنا فيه النبي ﷺ أن مقت الله عز وجل كان قد عم البشرية كلها قبل مبعثه المبارك، عدا قلة قليلة من بقايا الموحدين من أهل الكتاب، ينبئنا عن الحال المتردية التي كانت قد وصلت إليها البشرية في تلك الحقبة الزمنية، وبطبيعة الحال لم يكن حال العرب استثناءً من هذا السوء والانحطاط. فإنه من المعلوم أن العرب كانوا يعيشون قبل الإسلام في جاهلية عمياء، غارقين في أوحال الشرك والرذيلة، فضلا عن الفوضى السياسية والاجتماعية التي صبغت الجزيرة العربية في ذلك الحين. وفي هذا الفصل، نستعرض رؤية المستشرقين الفرنسيين لهذه الجاهلية، ونلتقط من أقوالهم وصفهم لحال العرب قبل الإسلام، وتعليقهم على هذه الأحوال المتردية للجزيرة العربية وأهلها قبل مجيء الإسلام، ليتضح لنا عظم فضل النبي ﷺ على العرب، وعلى البشرية بأسرها.

أحب أن أشير إلى أن النقولات التي سنستعرضها في هذا الفصل من أقوال المستشرقين الفرنسيين حول أوضاع الجاهلية قبل الإسلام، سنلحظ فيها خلفية أولئك المستشرقين، فهم إما مسيحيون يلتقطون مظاهر الشرك والوثنية التي كانت سائدة في

الجاهلية، أو علمانيون يتناولون المظاهر الاجتماعية المتعلقة بحقوق المرأة، وشأن الحروب، وسيادة قانون الغاب، ونحو ذلك، وأيا ما كان، فإن ذلك في مجموعه سيظهر من خلاله عظمة دين الإسلام، وعظمة المجهود الذي بذله رسول الله ﷺ لتغيير واقع الجاهلية المظلم، وبناء مجتمع متحضر، مستنير بنور الوحي وهدايات السماء.

ولعله من الجيد أن أنوه أيضا إلى أنه ليس معنى حديثنا عن الحال السيء للعرب قبل مجيء الإسلام، انهم كانوا مجردين من كل فضيلة، منزوع عنهم كل خير، بل كان عندهم – بطبيعة الحال – بعض المحامد والفضائل، والتي حتى لم يغفل عنها المستشرقون وعلقوا عليها.

من ذلك مثلا ما ذكره **ألفونسو دي لامارتين**، السياسي والأديب والشاعر الفرنسي المعروف في كتابه (حياة محمد) عن بعض خصال العرب المحمودة، فيقول:

«كانوا شجعانا كرماء أبطالا، وكانت كل خصال الفروسية، بل وجميع مظاهر المهارة والرقة التي في الفروسية، والتي لم تعرفها أوروبا إلا في عهد قريب، أصيلة في تقاليدهم منذ دهور لا يُذكر أولها، ولما كان للعرب إحساس مرهف بالفصاحة والشعر والموسيقى، فقد كانوا يُجِلّون من كان منهم موهوبا في ذلك»[1].

ونعم، لقد كان العرب يحتفلون إذا برز في القبيلة شاعر، ويحتفون به أشد الاحتفاء، لأن الشاعر في القديم كان يمثل الجهاز الإعلامي للقبيلة، ولسانها الذي ينافح عنها ضد القبائل الأخرى، ويرفع ذكرها بين العرب، لذا كان له هذه المكانة المرموقة في قومه.

على نفس النسق في التعليق على بعض الجوانب الإيجابية في حياة العرب قبل الإسلام، يقول المستشرق الفرنسي المسلم **ناصر الدين دينيه**:

«إن العرب وصلوا من الاعتداد بالنفس، ومن النبل والشجاعة والاستقلال إلى أعلى

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٢٣.

الدرجات، وبلغ كرمهم إلى مرتبة، هي من السمو بحيث لم يتأت للآخرين تخطيها؛ وإن **حاتما الطائي**[1] ليعتبر أمير الكرماء بلا منازع، حقيقة إن بلاغتهم وشعرهم لا يخشيان التخلف في مضمار السباق عما ينتجه أعاظم الخطباء وفحول الشعراء العالميين»[2].

ولأن المستشرق الفرنسي **ألفونسو دي لامارتين** كان شاعرا كما ذكرنا، فهو أكثر قدرة على تذوق معاني الجمال في الأدب، فلم يفته أن يعلق على أمير شعراء العصر الجاهلي **امرئ القيس**، فيقول:

«كان امرؤ القيس، وهو واحد من أكثر الشعراء مغامرة وأشدهم بطولة وأعظمهم قدرا، يكاد يلامس في الزمن فترة ميلاد محمد، وليس في آداب اليونان ولا آداب روما ولا الآداب الحديثة ما يفوق في الكمال أبيات هذا البدوي النفور الضال، المقاتل المحب المتغني بما في الحرب من فرح وترح»[3].

وإذا انتقلنا للحديث عن مظاهر الحياة الجاهلية المظلمة عند العرب، فنبدأ كذلك من عند **ألفونسو دي لامارتين**، يقول عن العرب: «كانت ديانتهم متحررة من القيد تحرر سياستهم، فكان بعضهم يعبد الملائكة أو الأرواح السماوية، وكانت في معتقدهم وسائط يتمثلونها نساء، وكانوا يسمونها «بنات الله»، وكان بعضهم الآخر يعبد القمر والنجوم، وكان هؤلاء يعتقدون أن الإنسان يبدأ بالولادة وينتهي أمره مع آخر نفس في حياته، كما كانوا يعتقدون أن الحياة الإنسانية ليست سوى فترات لا تنتهي من الوجود المتجدد في عوالم أخرى وفي أشكال أخرى، فإذا مات الواحد منهم ربطوا أفضل نوقه[4] إلى وتدٍ قرب قبره، وتركوها تموت جوعا على جثة سيدها، حتى يجد راحلته التي اعتاد عليها في العالم

---

(١) حاتم الطائي: زعيم قبلي وشاعر، وهو الرجل الذي ضرب به المثل في الكرم، ولم يدرك الإسلام!

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٣.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٢٤.

(٤) أفضل نوقه يعني أفضل الجمال، أفضل الإبل.

الذي أخذه إليه الموت، وكانوا يرون أن البوم الذي يحوم في الصحراء حول القبور مرسلا نعيبه النائح، هو أرواح الموتى الصادية تطلب الماء من الأحياء، وكانوا أيضا يجسدون صور آلهتهم بالحجر أو الخشب، وكانوا يعبدون تلك الأوثان الخرساء»[١].

أما **جان بروا** صاحب كتاب «محمد نابليون السماء» فيتحدث عن جانب آخر من جوانب حياة العرب قبل الإسلام فيقول: «والعرب أنفسهم أمة ذات مراس شديد تفتدي الحرية بالأنفس وتهوى الاستقلال، وتعيش في موطنها عيشة الإباء»[٢].

من المؤكد أن هذا الكلام يُعد مدحا ومكرمة، لكن الناظر لحال العرب في الجاهلية يرى أنهم قد اشتطوا في هذا الجانب، وغالوا فيه لدرجة أنهم، لشدة استقلاليتهم، واعتزازهم بأنفسهم وحريتهم، لم يكونوا يخضعون لأي شكل من أشكال النظام، وكانوا يفتخرون بذلك، ومن المشهور في هذا الصدد قول الشاعر **عمرو بن كلثوم**[٣] في معلقته:

وَأَيّامٍ لَنا غُرٍّ طِوالٍ عَصَينا المَلكَ فيها أَن نَدينا

ومثل ذلك قول الشاعر الجاهلي الآخر:

مِن عَهدِ عادٍ كانَ مَعروفًا لَنا أَسرُ المُلوكِ وَقَتلُها وَقِتالُها

فهم قوم لديهم عزة شديدة، وأنفة واستقلال، لكن هذه الأنفة تجاوزت الحد المحمود في طبائع الاجتماع حتى بلغت أن تكون ضربا من التمرد والفوضى، وهذا مما ساهم في سيادة قانون الغاب على حياة العرب، على نحو ما يقول **ناصر الدين دينيه** في كتابه (محمد رسول الله):

«كان ميل العرب إلى التباهي، وحساسيتهم المرهفة فيما يتعلق بالكرامة وكبرياؤهم،

---

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٢١، ٢٢.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٤.

(٣) **عمرو بن كلثوم**، شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات السبع التي هي ذروة قصائد العرب في الجاهلية، وقصيدته هي أفخر ما قالته العرب، كان سيد تغلب في شبابه، وضرب به المثل في الإقدام!

من أكبر العقبات التي تمنعهم من الخضوع للنظام، لذلك كان كل ارتباط، أو تقدم، أو تنظيم اجتماعي، مستحيل التحقق، وكان من الطبيعي أن تستمر الحرب فلا تنقطع، وأن يحل الثأر، الذي لا هوادة فيه ولا رحمة، محل التقاضي، فتسيل الدماء في كل بقاع الجزيرة العربية»[1].

فعلى الرغم من أن العزة والأنفة والاستقلال، إضافة إلى الشجاعة والإقدام والفروسية صفات كلها محمودة في الإنسان، إلا أن غياب النظام الجامع الحاكم الذي يضبط هذه الأخلاق ضمن منظومة قيمية أخلاقية متكاملة، من الطبيعي أن يؤدي إلى انحراف هذه الأخلاق بأصحابها إلى القتل والثأر والفوضى وعدم النظام، وسيادة شريعة الغاب في الحياة الاجتماعية. ولهذا، كما يقول المستشرق الفرنسي **هنري ماسيه**، فإن: «حالة الحرب كانت مستمرة في بلاد العرب، والبدو الوثنيون يعتبرون الثأر واجبا دينيا؛ والثأر يحتل مكانا هاما في مجموعة المفاهيم المتواضعة (دين العرب) التي غذت حياة البدو الدينية والأخلاقية الفقيرة»[2].

يقول **جان بروا** عن حياة العرب قبل الإسلام: «يعيشون عيشة قَبَلِيَّة، تُغِير كل قبيلة على سواها، ويَغْزُون، وفي الغزو مناط حياتهم، ليست لهم حكومة مركزية يحتكمون إليها، وتنظم لهم حياة الاجتماع، وليس لهم دستور يستمدون منه إلا من سوى عرف الصحراء الذي يفرض الرئاسة للقوي على الضعيف، وكلهم أبطال أشاوس، مرنوا على النضال والكفاح، فالضعيف لا وجود له بينهم»[3].

يؤكد **ألفونسو دي لامارتين** نفس هذا المعنى، فيقول: «كان دستور جزيرة العرب

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٥.

(٢) ماسيه، الإسلام، ص٣٤.

(٣) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٤.

الحرب الأهلية الدائمة بين كافة أعضاء هذه «**الجمهورية الفيدرالية**»[1] من القبائل، ولم يكن فيها لا كهنوت ولا حاكم مستبد ولا سلطة ملكية أو وطنية، لا ولا أي مجلس ثابت مستقل –في قراره– لم يكن فيها شيء من ذلك كله يفرض قوانينه على تلك الفوضى وذلك الاعتباط اللذين كانا يسودان مختلف أعضاء الكونفدرالية»[2].

إن جانبا كبيرا من الصفات المحمودة لدى العرب قبل الإسلام، والمتعلق بالعزة والأنفة والاستقلال، إضافة إلى الشجاعة والإقدام والفروسية، قد أنتج حياة همجية بربرية فوضوية، تكثر فيها حملات النهب والسلب، ويأكل فيها القوي الضعيف، وتسودها شريعة الغاب، وذلك بسبب غياب نظام حاكم رشيد يضبط هذه الأخلاق ضمن منظومة قيمية أخلاقية متكاملة، وهذا النظام الرشيد هو ما جاء به الإسلام بعد ذلك، فحول حياة العرب ذلك التحول التاريخي العظيم.

يشير المستشرق الفرنسي المسلم **ناصر الدين دينيه** إلى بعض الجوانب الأخرى المظلمة من جوانب حياة العرب في الجاهلية، فيقول: «لقد نسوا نسيانا تامًّا دين التوحيد، الذي نشره فيهم جدهم إبراهيم، وإن كانوا قد استمروا في تقديس الكعبة التي بناها بيديه، فقد اتخذوا لله شركاء، بزعمهم، من أصنام تحظى عادة، بتفضيلهم، وكان لكل قبيلة، بل لكل أسرة، صنمٌ تؤثره عما عداه، وأصبحت الكعبة مباءة لثلاثمائة وستين صنما، من خشب أو من حجارة، تعبد من دون الله، أنصابٌ، وأزلامٌ، وسُكْرٌ، واستعمال للسحر والرقى، كل هذا كان يهوى بعقلية هؤلاء القوم الذين وهبهم الله استعدادا فطريا رائعا، لقد تركوا لأنفسهم الحبل على الغارب، وأسرفوا في فهم الحرية، فكان الرجل منهم يتزوج من

(١) وصف حال القبائل العربية قبل الإسلام بالجمهورية الفيدرالية هو محاولة من الكاتب لتقريب الصورة لعقل القارئ الغربي الذي اعتاد الحياة ضمن نظام سياسي، ونسق اجتماعي منظم، ولكن في حقيقة الأمر، فإن هذا اللفظ غير دقيق، لأن القبائل العربية كانت متفرقة متشرذمة، ولا تقترب حتى من نسق الفيدرالية المعروف اليوم.

(٢) دي لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٢١.

النساء أكبر عدد يمكنه تغذيته، وكان من تقاليدهم: أن النساء تورث كما يورث العقار، فقد كان الابن بعد موت أبيه يتصل اتصالا جنسيا بمن ورثهن من زوجات والده، ذلك، لا شك، بشع مخجل، بيد أن البشاعة قد بلغت أقصى مراتبها في وأد البنات»[1].

ويتحدث **هنري ماسيه** عن وأد البنات فيقول: «ومن ناحية أخرى فإن المجاعة تدفع أحيانا أكلة الحراذين[2] والجراد هؤلاء إلى القساوة المفرطة: إنهم يئدون البنات، كأفواه لا فائدة منها، بأن يدفنونهنّ أحياء»[3].

ومن المعروف أن العرب لم يكونوا يأدون البنات لأجل الفقر والفاقة فقط، بل مخافة أن يكونوا سببا لجلب العار للقبيلة حين يكبرن.

ويعلق المستشرق الفرنسي المشهور **لويس سيديو**، صاحب كتاب «خلاصة تاريخ العرب»، على بعض مظاهر الجاهلية المجتمعية في حياة العرب قبل الإسلام فيقول: «مما يدل على عمى بصائر هؤلاء، وصمم آذانهم عن الحق، وزلل أقدامهم عن سبيل الصدق والرشد، ما في القرآن الكريم من الآيات الناسخة لما ألفته العرب من القبائح، كالأخذ بالثأر، والتظاهر بالعدوان، مثل ما كان، ولا يزال شائعا في أوروبا من التبارز والتفاخر، وكقتل البنات درءً للعار، أو حذرا من الفقر»[4].

يضيف **ألفونسو دي لامارتين** فيقول: «كان بوسع كل منهم أن يتخذ عددا من الزوجات بقدر ما تسمح له إمكاناته، وكان الابن يرث أرامل أبيه كما يتلقى الماشية في تركة الميت، فكان ارتكاب المحارم بين المرأة وربيبها أمرًا غير محظور في حالات معلومة، وكان لكل ربّ بيت الحق المطلق في التصرف في أهله وعبيده، يَهَبُهم الحياة أو

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٤.

(٢) الحراذين: مفردها حرذون، وهو حيوان معروف في الصحراء العربية أشبه بالسحلية، وإن كان حجمه أكبر.

(٣) ماسيه، الإسلام، ص٣٤، ٣٥.

(٤) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٦٣، ٦٤.

يحرمُهم منها، وكانت لهم عادة وحشية تتيح للأب والأم، إذا كانا في فاقة أو إملاق ان يئدا بناتهما عند ولادتهن»[1].

ومن نافلة القول هنا، أن نشير إلى أن هذه الجاهلية المظلمة لم تكن مقصورة على العرب وحدهم، وإنما كانت البشرية كلها في ذلك الحين غارقة في الجاهلية، وهذا مصداق قول النبي ﷺ الذي أسلفنا ذكره: «إنَّ اللهَ نَظَرَ إلى أَهْلِ الأرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إلَّا بَقَايَا مِن أَهْلِ الكِتَاب».

وقد استعرض الأستاذ **أبو الحسن الندوي**[2] – رحمه الله – في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» أحوال الجاهلية التي كانت في فارس، وفي الصين، وفي الهند، وفي الغرب كذلك، إبان مجيء دعوة الإسلام. أما عامة ما في كتب المستشرقين الفرنسيين من الحديث عن الجاهلية، فإنما هو منصب على الجاهلية التي عاشها العرب تحديدا قبل الإسلام، وهذا مفهوم بطبيعة الحال، وقليل من أولئك المستشرقين من تكلم بتركيز عن الجاهلية التي كانت فيها النصرانية، والتي كان يعيشها العالم المسيحي.

من هؤلاء القليل الذين ذكروا الأوضاع المسيحية في ذلك الوقت **جان بروا**، يقول: «هذه الكنيسة نشبت فيها مخالف التمزيق، وهذا الشقاق يمهد لنفسه طريقا رحبا فيملأ أرجاءها في عهد البابا **جان (يوحنا) الثالث**[3]، فيقف حيال ذلك مكتوف اليدين لا يفعل شيئا وليس له من الأمر شيء، وهو الذي كان يعتقد أن مملكته ليست في الأرض فحسب، وهذه المسيحية تمزقها البدع التي ثارت في الشرق، وأورثتها الاضطرابات التي لبست ثوبا

---

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٢٢.

(٢) أبو الحسن الندوي (١٩١٤-١٩٩٩) من علماء الهند الكبار المشاهير، ألف كثيرا من الكتب والرسائل، أشهرها «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، وجاب العالم الإسلامي، وكان فاضلا نبيلا مربيا ذا صيت حسن وسمت وقور!

(٣) البابا يوحنا الثالث: هو بابا الكنيسة الكاثوليكية (١٧ يوليو ٥٦١ إلى وفاته سنة ٥٧٤م)، المعاصر لولادة نبينا ﷺ.

دينيا فأهاجت التفرقة بين أتباعها، فها أنت ترى الآريين والنسطوريين والناصريين والأوتريخيين تزعزهم الفتن وتحط من كيانهم، وها أنت ذا ترى صور القديسين تُؤَلَّه وتنزل منازل آلهة الوثنيين حتى تصبح شريكة لله تشاطره العبادة والتقديس»[1].

لذلك نجد في كثير من نقول المستشرقين شعورا بالإنجاز النبوي في كونه ﷺ أباد الوثنية، وقضى على كل صور الشرك، وأن دينه كان دينا تجريديا، توحيديا، لا يتمثل فيه الله جل وعلا، كما شدد النبي ﷺ على تحريم التصاوير والتماثيل حتى لا تكون ذريعة للشرك بعد ذلك، كما حدث مع الأمم السابقة، فلذلك كان المسلم مؤمنا بالمعاني المجردة، وحتى أيامنا هذه، ما زال يثور حديث طويل في مسألة تمثيل الشخصيات الإسلامية كالصحابة وأمهات المؤمنين وغيرهم، من نفس هذا المنطلق.

هذه كانت حالة البشرية الجاهلية التي سبقت مبعث نبينا ﷺ، والتي جاء الإسلام ليزيلها من الوجود بكل مظاهرها ومفرداتها وظلماتها، ولينير الدنيا بوحي السماء، وليقيم دولة الحق والعدل وكرامة الإنسان، فصدق الله تبارك وتعالى إذ يقول: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۗ﴾[البقرة: ٢٥٧].

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص١، ٢.

بيئة النبي ونشأته

تطورت علوم النفس والاجتماع قد تطورت تطورا كبيرا في الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، ونشأت فيها مدارس عديدة، وتشكلت نظريات كثيرة، مع ما لا يكاد يحصى من الكتب والأبحاث العلمية والدراسات الميدانية والتجارب العملية.

وقد شغف الباحثون والدارسون، عند دراسة أي شخصية مؤثرة في التاريخ، ببحث الأحوال التي نشأ فيها، والعوامل البيئية والاجتماعية التي أثرت في نشأتها، وكذلك الأحداث والظروف التي مر بها في حياته قبل أن يشتهر أو يظهر أثره الكبير على مسرح الأحداث. نفس هذا الأمر يتوقف عنده المؤرخون، إذ يحاولون فهم الأحداث ضمن البيئة التاريخية بعواملها المختلفة وتفاعلاتها العديدة التي أدت إلى وقوع الحدث المدروس!

لذلك شغلت بيئة النبي ﷺ ونشأته حيزا كبيرا لدى الدارسين، وهم يحاولون فهم هذه البيئة والنشأة وتحليلها، وجمع العوامل التي أثرت في شخصيته ﷺ، ومنهم من انحرف في تحليله ونتائجه، وفسر الأمر تفسيرا ماديا بحتا، وجعل النبوة جزءاً من الصراع بين القبائل العربية، أو جزءاً من محاولة بني هاشم استعادة مكانتها في مكة، ولكننا كمسلمين نعتقد أن ما مر به النبي ﷺ طوال سني حياته الأربعين قبل البعثة، إنما هو من صناعة الله له، وتهيئته

لتحمل الرسالة والقيام بتبعاتها، ونفس الأمر فيما يتعلق بالأحداث التاريخية، والصراعات بين القوى العظمى في ذلك الزمان، إنما كان من سنن الله وأقداره لتهيئة البيئة التاريخية لظهور الإسلام، وقيام دولة الإسلام وبسط نفوذها على الجزيرة العربية، ومن ثمَّ توسعها التاريخي المعروف.

بقي أن أشير إلى أن حياة النبي ﷺ قبل البعثة هي من دلائل نبوته، وأحد الحجج القرآنية على الكفار، فقد قال الله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ﴾[يونس: ١٦]، أي: لو شاء الله ما أنزل عليَّ القرآن، ولا تلوته عليكم، وقد عشت بينكم مدة طويلة من الزمن قبل هذا القرآن تعرفون حالي، وأنني أميٌّ لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بهذا القرآن البليغ المعجز، فهل يُعقل أن يكون من عندي أو من تلقاء نفسي؟

فحياة النبي ﷺ قبل بعثته من الشواهد على صدق نبوته، فهو ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب، كما أنه لم يكن يُقرض الشعر، ثم جاء بكتاب يعجز عنه الشعراء والأدباء والفصحاء، كذلك كان النبي ﷺ رجلا هادئا، ليس صاحب نزعة تمردية، ولا تطلع للزعامة، ولا رغبة في تكوين أتباع، أو في أن يكون صاحب نفوذ أو مركز تأثير، ثم هو يصل الأربعين من عمره على هذا النحو، ثم يخرج بهذه الدعوة، ويأتي بهذا الكتاب المعجز، فهذا لا يحدث في تاريخ البشر إلا للأنبياء، فإن دراسة تاريخ الزعماء والمؤثرين في التاريخ، يشير إلى أنهم كانت تظهر فيهم غالبا بذور الزعامة والتطلع إليها والسعي للوصول إليها في مسار حياتهم.

نبدأ من عند **جان بروا** وهو يتحدث عن البيئة التي ظهر فيها النبي ﷺ، وكيف أن هذه البيئة أضفت عليه أهمية خاصة، يقول: «في مكة بيت الله! وهو مستقر أفئدة العرب ومهوى نفوسهم، إليه يحجون من كل حدب وصوب، وفيه يستلهمون السماء ويستوحون الأرواح، وحول البيت شيدت منازل التجار وقصورهم وذوو المكانة في قريش، إن مكة

ثابت لها الرئاسة الدينية كما ثابت لها الرئاسة التجارية، فهي مركز التجارة، وممر القوافل الآتية من اليمن والذاهبة إلى الشام»[1].

يشير جان بروا هنا إلى الأهمية الدينية والاقتصادية المعروفة لمكة، فهي كانت مركز الدين، ومركز الاقتصاد في الجزيرة العربية، وهذا يعطيها أهمية خاصة بطبيعة الحال، فدائما ما تكون الحركات التغييرية حين تبدأ من العواصم ومراكز الثقل، فإنها تكون مرشحة إلى اتساع دائرة تأثيرها وتمدد نفوذها في المحيط من حولها.

لقد كانت مكة هي العاصمة الدينية والاقتصادية في الجزيرة العربية، فأي تغيير سيحدث فيها لن يقتصر تأثيره عليها، بل سيمتد ليؤثر في المنطقة كلها، فولادة النبي ﷺ ونشأته وظهور دعوته في مكة تحديدا دون غيرها كان من تدبير الله لنبيه ولدعوته ورسالته. لذلك ليس من المستغرب أننا نجد السيرة كلها حول مكة، فمولد النبي في مكة، وظهور دعوته في مكة، وبدء الصراع في مكة، ثم الهجرة إلى المدينة لتتزعم مكة جبهة الصراع ضد المدينة النبوية، حتى إذا فتحت مكة ودخل أهلها في الإسلام، تبعتهم العرب، ودخل الناس في دين الله أفواجا، ويكفي لندرك حجم تأثير مكة ونفوذها في العرب أن تعلم أن النبي ﷺ دخل مكة فاتحا سنة ثمانية للهجرة بجيش تعداده عشرة آلاف مقاتل، هم كل قوام الجيش المسلم في السنة الثامنة من الهجرة، يعني بعد عشرين سنة من الدعوة، ثم هو يحج بعد ذلك بعامين إثنين في السنة العاشرة من الهجرة، ويحج معه قرابة المائة وعشرين ألفا من المسلمين، وهذا الزيادة الضخمة في عدد المسلمين إنما كانت بعد فتح مكة ودخول أهلها في الإسلام، لتتبعهم العرب ويدخلون في دين الله أفواجا -كما سنرى إن شاء الله-، فولادة النبي ﷺ في مكة في قبيلة قريش التي هي أنبل قبائل العرب، كانت مما أعطي النبي أهمية خاصة، وفي حديث أبي سفيان المشهور مع هرقل، قال له هرقل: «سَأَلْتُكَ عن

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٦.

نَسَبِهِ فَذَكَرْتَ أَنَّه فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذلكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا»[1].

يرصد **جان بروا** هذا المعنى المتعلق بمكانة قريش في مكة، ونسب النبي فيهم، ومكانة هذا النسب العالي فيقول: «وقريش كانوا سادات مكة وأشرافها، هم أحسن العرب وجوها، وأعرقهم محتدا وأسماهم شرفا، وغرة قريش التي تزهو بها وتفاخر هم بنو هاشم، إليهم يرجع أمرها، ومنهم ينبثق السلطان والنفوذ، لهم الكلمة العليا التي لا تطاولها كلمة، وعبد المطلب زعيم الهاشميين وكبير قريش، هو عقلها الحكيم ومستشارها لدى النوازل والملمات»[2].

وهذا معنى قول هرقل الذي ذكرناه آنفا لأبي سفيان: (فكذلكَ الرسل تُبْعَثُ في نَسَب قومها)، يعني في أعلى نسب في قومهم وأشرفه وأعلاه.

وحين نستعرض نسب النبي الكريم ﷺ، نجد أن أجداد النبي كانت لهم المكانة العليا في قريش، فإننا نجد مثلا أن قصي بن كلاب هو الذي حول مكة من قرية صغيرة إلى مدينة مركزية، وأنشأ فيها نمط حكم مدني، فهو الذي أساس دار الندوة لتكون مركزا للحكم وإدارة شؤون مكة، وهو الذي تقاسم أبناؤه شرف مهام خدمة الحرم، فكانت لهم السيادة والرفادة والسقاية واللواء وغيرها، ومن نسل قصي هذا كان هاشم الذي عرف نسله ببني هاشم، وكان هاشم رجلا نبيلا كريما، وقد سُميَ هاشما لأنه كان يهشم الثريد ويطعم الحجيج والأضياف، كما أنه عقد اتفاقيات مع الفرس والروم (بمصطلحنا المعاصر اتفاقيات حرية التجارة، حرية المرور مع القبائل)، ومن أبناء هاشم كان عبدالمطلب، الجد المباشر للنبي ﷺ، وكان هو الآخر سيدا وزعيما، وهو الذي اكتشف بئر زمزم بعد أن كانت طمرته الرمال عبر السنون (وبئر زمزم تشبه في أهميتها اليوم آبار البترول وحقول الغاز الطبيعي)، فكانت موردا مهما لأهل مكة، الشاهد أن أجداد النبي ﷺ كانوا هم

(١) رواه البخاري.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٦، ٧.

رؤوس مكة وأشرافها وذووا الرأي فيها، وهذا مما زاد في الأهمية الخاصة للنبي ﷺ.

وُلد النبي ﷺ من أبويه عبد الله بن عبد المطلب، وآمنة بنت وهب من بني زهرة، يقول **ناصر الدين دينيه** في توصيف هذا الزواج: «كان وهب سيدا من سادات بني زهرة، كما كان عبد المطلب أميرا من أمراء قريش التي هي من أنبل قبائل العرب، وبين بيتين أصيلين في الشرف غير منازع، كان الاتفاق على المصاهرة سهلا، ولذا تمّ القران بين عبد الله بن عبد المطلب وآمنة بنت وهب فورا»(١).

ثم كانت ولادة النبي ﷺ نتيجة هذا الزواج، تلك الولادة التي يقول عنها **جان بروا**: «كم هو عظيم هذا الطفل الذي هو أمل العرب والإنسانية!! الدنيا بأجمعها انتظرت ولادته!»(٢).

ولكن، ومع هذا المستقبل الذي سيغير فيه محمد ﷺ تاريخ البشرية، والذي سيكون فيه رحمة للعالمين، وسينقذ الله به العرب والعجم من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، فقد كانت طفولته ﷺ ليست سعيدة، مر فيها بآلام الفقد، ومعاناة اليتم، يتحدث **هنري ماسيه** عن هذا فيقول: «وطفولة محمد لم تكن سعيدة، حتى إنه لم يعرف والده عبد الله، وقد فقد أمه آمنة وهو في سن السادسة، ثم بعد ثلاث أو أربع سنوات فقد جدّه عبد المطلب، فاحتضنه عمه أبوطالب، وكانت عائلة محمد تشكل جزءا من الأرستقراطية المكية، إنها قبيلة قريش المقسّمة إلى عدة عصبيات»(٣).

مات عبد الله وما زال النبي ﷺ جنينا في بطن أمه، فوُلد يتيم الأب، ثم ماتت أمه أمام ناظريه وهو في سن السادسة، ليصبح يتيم الأب والأم معا، ثم احتضنه جده عبد المطلب، والذي مات هو الآخر بعد سنتين، ورسول الله في الثامن من عمره، فانتقل رسول الله ﷺ

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٧٥.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص١١.

(٣) ماسيه، الإسلام، ص٤٠.

إلى كفالة عمه أبي طالب بن عبد المطلب.

كان من عادة العرب قديما أن يرسلوا أولادهم إلى البادية خلال سنوات الطفولة الأولى، وهذا ما حدث مع النبي ﷺ، فبعد أيام من ولادته المباركة، أعطاه أهله لمرضعة من البادية هي حليمة السعدية[1]، لتقوم بمهمة إرضاعه والعناية به في هذه المرحلة من عمره، وهذه الرضاعة والنشأة في البادية من الأمور التي توقف عندها المستشرقون الفرنسيون، وعلقوا على أسبابها، وحاولوا أن يستكشفوا آثارها على النبي ﷺ.

يقول **جان بروا** في ذلك: «يريدون (أي العرب) بذلك أن تنشأ أطفالهم على هواء البادية الطلق وسعة الأفق وتحمل مشاق العيش وقسوة الحياة والفروسية وذلاقة اللسان»[2].

وهذا صحيح، لأن بيئة البادية نقية عربية خالصة، لم تحتك بالغرباء من غير العرب، أو أهل الحواضر، على خلاف مكة، المدينة التجارية المركزية التي يرتادها العرب من الحواضر المختلفة، كذلك غير العرب من الفرس والروم، فتختلط فيها اللهجات والعادات، لذلك كان أهل مكة يحرصون على إرسال أطفالهم إلى البادية ليجنبوهم التعرض إلى اللهجات والعادات المختلفة في صغرهم، فكانوا يتلقون العربية الفصيحة الصحيحة، فيصح لسانهم، وتسلم قريحتهم، كذلك لكي تصح بنية الطفل، ويشتد عوده، ويعتاد حياة البادية الخشنة القاسية، لأنهم كانوا يعدون الطفل ليكون فارسا في مستقبل الأيام، فكانت حياة البادية أنسب لنشأة الأطفال من كل الوجوه.

ويتحدث المستشرق الفرنسي المسلم **ناصر الدين دينيه** عن هذه المسألة فيقول: «كان

---

(١) حليمة السعدية من بني سعد بن بكر من قبيلة هوازن، هي أم النبي محمد من الرضاعة، اسمها حليمة بنت أبي ذؤيب وهو عبد الله بن الحارث بن شجنة، كانت زوجة الحارث بن عبد العزى بن رفاعة، وقد أدركت بعثة النبي ﷺ، وأسلمت، وكان رسول الله يكرمها ويحسن إليها.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص١٤.

غذاء العرب الصحي المرتكز على القناعة له فضل كبير في تقوية الرسول، وهذا الغذاء يتكون من مختلف الألبان ومنتجاتها، ومن الأقراص[1] التي أنضجت تحت الرماد، وأحيانا من لحم الجمال أو الأغنام الخالية من النضح الخبيث الذي ينبعث من لحوم تلك التي ربيت في الحظائر، هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التي يدين بها إلى البادية، ساعدته كثيرا على تحمل ما ابتلي به بعدُ من محن»[2].

والمعنى نفسه ذهب إليه المستشرق والشاعر والسياسي **ألفونسو دي لامارتين** حيث يقول: «كان الطفل يكتسب من تلك الحياة البدوية الرعوية جسما أسلم، وسلوكا أصلب مما لو بقي بالحواضر»[3].

وفي مسألة الفصاحة يتوقف **جان بروا** ليتكلم عن أثر نشأة النبي ﷺ في بني سعد، وهي من القبائل العربية المشهورة بالفصاحة، وكيف أن هذه الفصاحة التي تربى عليها في البادية العربية كانت من إعداد الله لنبيه ﷺ، وستكون من عوامل بلاغته فيما بعد، يقول **جان بروا**: «مهّد الله لطفولة النبي أفصح قبائل العرب وأنبهها شأنا وأشدها مراسا، ولقد تغذت مواهب الطفل وبدت بشائر العبقرية وآيات النبوة منذ اليوم الذي احتضنته حليمة وضمته إلى صدرها»[4].

بقي النبي ﷺ في بادية بني سعد مع حليمة حتى وقعت حادثة شق الصدر الشهيرة[5]،

---

(١) يقصد أقراص الخبز.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٨٤.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٣١.

(٤) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص١٤، ١٥.

(٥) عن أنس بن مالك رضي الله عنه: (أن رسول الله ـ ﷺ ـ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه (جمعه وضمه) ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعني ظئره (مرضعته) ـ فقالوا : إن

فخافت عليه حليمة، وأرجعته إلى أمه، ثم ذهبت به أمه السيدة آمنة إلى المدينة، حيث أخوال النبي في المدينة من بني عدي بن النجار -يعني أخوال أبيه لأن جد النبي ﷺ كان متزوجا من بني النجار- ولكنها في رحلة عودتها توفيت في منطقة الأبواء، ودفنت بها، وعادت أم أيمن حاضنة النبي ﷺ به إلى مكة.

يتوقف **ناصر الدين دينيه** عند هذه اللحظة فيقول: «ترعرع محمد تحت رعاية آمنة، أكثر الأمهات حبا، وفي ظل عنايتها أخذ يزداد كل يوم جمالا وحكمة، غير أنه لم ينعم بالحنان الأموي الذي لا يعوض غير قليل؛ فقد ماتت أمه فجأة بـ «الأبواء» عند عودتها من سفر إلى يثرب رافقها فيه محمد»[1].

فهكذا كانت طفولة النبي ﷺ، تغلب عليها آلام اليتم ومعاناة الفقد، وهذا مصداق قول الله تعالى لنبيه في سورة الضحى: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ)، وذلك في سياق تعداد نعمه جل وعلا على رسوله، إذ آواه ورعاه في طفولته حال يتمه.

أما عن شباب النبي ﷺ، فإن **هنري ماسيه** يرى أن فترة الشباب في حياة النبي ﷺ لم تكن رغدة ولا سهلة، بل غلب عليها الكد والكدح، يقول: «ومحمد، إذن، يتصل نسبه بمؤسس المدينة[2]، ورغم هذا الأصل العريق فإنه قضى شبابه كادحا»[3].

وقد أشار النبي ﷺ إلى شيء من ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النّبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيّا إلّا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرعاها

محمداً قد قُتِل ، فاستقبلوه وهو منتقع (متغير) اللون . قال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره) رواه مسلم.

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٨٧.

(٢) يقصد: مدينة مكة.

(٣) ماسيه، الإسلام، ص٤١.

على قراريط[1] لأهل مكة»[2].

ويتحدث **ناصر الدين دينيه** عن شخصية النبي ﷺ، وكيف أنه كان منصرفا عن اللهو والعبث، ولم يكن يقضي أوقاته منشغلا بما اعتاد الشباب في سنه وبيئته أن يقضوا فيه أوقاتهم فيقول: «إن استعداده للتأمل والوحدة لم يكن لينسجم مع أخلاق أقرانه الصاخبة، فكان يفضل اعتزالهم في ألعابهم، ويذهب وحيداً حيث الهدوء والسكون»[3].

(١) قراريط: جزء من الدينار، أو موضع بمكة.

(٢) البخاري (٢١٤٣).

(٣) دينيه، محمد رسول الله، ص٨٤.

شباب النبي ورجولته

من أكثر ما توقف عنده المستشرقون في دراسة شخصية النبي ﷺ، البحث في: كيف كانت حياته ﷺ قبل أن ينطق بهذه الرسالة؟ كيف كان يعيش؟ ماذا كانت اهتماماته؟ ما مكانته في المجتمع؟ كيف كان ينظر الناس إليه؟

كذلك تكلموا عن مسألة زواجه من خديجة رضي الله عنها، وعن دورها المهم معه بعد بعثته ﷺ، كما توقفوا كثيرا عند أخلاقه ﷺ، والتي اشتهرت عنه بين الناس، كما تناولوا حادثة الحجر الأسود الشهيرة التي ظهرت فيها حكمته ورجاحة عقله ﷺ.

وحادثة الحجر الأسود هذه رواها أصحاب السير، مفادها أنه لما بلغ رسول الله ﷺ خمسًا وثلاثين سنة ـ قبل بعثته بخمس سنوات، اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لِما أصابها من تصدع جدرانها، وقد تم تقسيم العمل في بناء الكعبة بين القبائل، وتولت كل واحدة منها ناحية من نواحي الكعبة، فجعلوا يبنونها بحجارة الوادي، ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود دبَّ الشقاق بين قبائل قريش، فكل قبيلة تريد أن تنال شرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه، وكادوا أن يقتتلوا فيما بينهم، حتى جاء أبو أمية بن المغيرة المخزومي فاقترح عليهم أن يحكّموا فيما اختلفوا فيه أول من يدخل عليهم من باب المسجد الحرام، فوافقوا على اقتراحه وانتظروا أول قادم، فإذا هو رسول الله ﷺ، وما إن

رأوه حتى هتفوا: «هذا الأمين، رضينا، هذا محمد»، وما إن انتهى إليهم حتى أخبروه الخبر، فقال: «هلمّ إليَّ ثوبا»، فأتوه به فوضع الحجر في وسطه ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا» ففعلوا، فلما بلغوا به موضعه، أخذه بيده الشريفة ووضعه في مكانه.

فعلى الرغم من أن النبي ﷺ من بني هاشم، إلا أنه لم ينحز إليهم، ولم يحكم بأن يضعوا هم الحجر دون غيرهم من القبائل، بل كان من حكمته ﷺ أن جعل القبائل كلها تشارك في ذلك، وهو ما جنب قريشا حربا، الله وحده يعلم متى كان من الممكن أن تنتهي.

إن نبينا ﷺ هو أكثر شخصية عبر التاريخ نالت كل هذا القسط من الاهتمام في نقل أحواله، حتى دُونت وسُجلت ونُقلت تفاصيل حياته، ودقائق شؤونه وأموره، وهذا ما يقرره المستشرق الفرنسي **هنري دي كاستري** بقوله: «ليس من الناس من عرف الناسُ جميع أحواله في حياته كلها مثل محمد، فلقد وصل المحدثون عنه إلى أنهم كانوا يعدون الشعر الأبيض في لحيته»[1].

حاول المستشرق الفرنسي **إميل درمنغم** أن يجمل حياة النبي ﷺ في شبابه فقال: «كان محمد طاهر الشباب، فمما روي أنه بينما كان يرعى القطاع – يعني قطعان الغنم – على التلال بجوار مكة، حاول مرتين أن يبلغ أماكن الضواحي السهلة، ليقضي حاجات شبابه، فسار في طريقه إليها كما يسير فتيان الأرياف في أثناء سفرهم إلى المدن ليمضوا فيها وقتا حسنا، ولكنّ حالا مفاجئة كانت تثنيه عن ذلك في كلتا المرتين»[2].

وهو هنا يشير إلى ما رُوِي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمُّون به، إلا مرتين من الدهر،

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٤٩، ٥٠.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٦٩.

كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة، في أغنام لأهله يرعاها: أبصر إلى غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسمر الفتيان. قال: نعم. فخرجت، فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وضرب دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت فقال: ما فعلت؟ فأخبرته. ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مسُّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئًا. قال رسول الله ﷺ: فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته»[1].

يقول **ناصر الدين دينيه**: «هذا الحياء وتلك الرعاية اللتان يمنحهما الله لمن اصطفاهم، جعلاه بمعزل عما يتعرض له أحيانا مَنْ هم في دور المراهقة من حدة واندفاع، وكان بين أقرانه أحسنهم خلقا، وأكرمهم وأحسنهم جوارا وعشرة، وأصدقهم حديثا، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، وأرعاهم لمقتضيات الصداقة، حتى لقد سمى بين قومه بالأمين»[2].

ويقدم **جاك ريسلر** صورة لصفاته ﷺ الخِلقية والخُلقية، فيقول: «كانت سحنته وردية، وعيناه سوداوين، وشعره جميلا، ولحيته كثيفة، وكان مثل معظم رجال قبيلته لا يجيد القراءة ولا الكتابة، لكنه كان شديد الذكاء، مفرط النشاط، وكان يعبر عن آرائه بفصاحة وطلاقة، اشتهر باستقامته وفكره العادل، فكانت شخصيته ذات سحر عظيم»[3].

---

(١) رواه إسحاق بإسناد حسنه الحافظ ابن حجر، ورواه الحاكم وصححه على شرط مسلم.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٩٢.

(٣) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص٣٥.

أما المستشرق الفرنسي **كلود إتيان سافاري**[1] فيتحدث عن هذه الفترة من حياة النبي ﷺ فيقول: «كان محمد يتحبب إلى الجميع بفضائله وخلقه، ولما بلغ أشده أحب الناس فيه جماله ورجاحة عقله، ولقب بالأمين بين مواطنيه، وحظي بالتقدير لفطنته في الإجابة، وصدقه في الحديث، وإخلاصه في شؤون الحياة، وحسن طويته، وشدة خوفه من الرذائل، لقد كانت هذه هي سمعته التي سمعها ونقلها إلينا جميعُ المؤرخين»[2].

وهذه العبارة الأخيرة منه تدعم ما أشرت إليه من محاولته الكتابة بموضوعية عن سيرة النبي ﷺ، وسعيه لنفي الروايات المكذوبة التي كانت متداولة في الكتابات الغربية.

يتحدث **ناصر الدين دينيه** عن هذه الفترة من حياة النبي ﷺ وتأثيره، وتأثير أخلاقه في حياة الناس من حوله فيقول: «كان ظرفه الطبيعي وصراحته، وما يبدو عليه من نبل، وعلى الأخص هذه الإشعاعات التي فيها من المساتير[3] ما فيها، والتي تنبثق دائما عمن اصطفاهم الله، هذه الإشعاعات التي ترجمها المصورون -فيما مضى- بإكليل من ذهب، ويصفها علماء اليوم -عاجزين عن شرح طبيعتها- بالمغناطيسية، كل هذا كان يجعل الناس يقبلون عليه في مودة وثقة»[4].

---

(١) أسلفت أن كلود إتيان سفاري كان قد ترجم القرآن الكريم في القرن الثامن عشر، وقدم للترجمة بمختصر عن سيرة النبي ﷺ، وهذه المقدمة ترجمت إلى العربية، وعَقَّبَ عليها د. عبد المتعال الجبري، ونشر الكتاب والتعقيبات عليه معا بعنوان «السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون»، عن دار الدعوة في مصر.

وبطبيعة الحال، هناك أشياء أخطأ فيها سفاري، ولكن ينبغي أن أقول بأن مجمل ما كتبه إنما كان محاولة منه أن يقدم صورة موضوعية بالنسبة للأجواء التي سادت أوروبا في ذلك الوقت، تلك الأجواء التي لم تكن تسمح بالتناول الموضوعي لسيرة النبي ﷺ -وقد أشرت إلى شيء من ذلك في موضع سابق من هذا الكتاب- لذلك يعتبر ما كتبه سافاري في هذه المقدمة كان نقلة إلى الأمام في مساحة الكتابات الاستشراقية الموضوعية عن النبي ﷺ وإن ضل في مواطن من كتابه ذلك.

(٢) كلود إتيان سافاري، مختصر حياة محمد، ضمن «السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون»، ص٣٣.

(٣) المساتير: أي: الأشياء الغامضة.

(٤) دينيه، محمد رسول الله، ص٩٤، ٩٥.

ولأن دينيه كان رساما مصورا، فهو يتحدث عن أن المصورين كانوا في رسمهم للشخصيات العظيمة اعتادوا أن يضعوا على رأسها إكليلا من الذهب، أو كما نرى في الرسومات المسيحية، فإنهم يضعون هالة من النور حول وجه الشخصية العظيمة المقدسة، فهو يتكلم عن أن هذا الأمر هو في الحقيقة محاولة من المصورين والرسامين لترجمة الكاريزما أو ما يسمونه المغناطيسية، يعني هذه القدرة الجذابة وهذا السحر الطاغي، وهذا التأثير موجود في الشخصيات الزعامية جميعا، بتفاوت فيما بينها.

وفي المعنى نفسه يقول السياسي والأديب الفرنسي المشهور **ألفونسو دي لامارتين**: «كان الفتى يجلب إعجاب بني قومه به، لنضج عقله المبكر، وأمانته وتعففه في حياته، كما كان يجلب الإعجاب بحسن طلعته وبشر محياه»[1].

ويؤيده في ذلك **جان باروا** في كتابه «محمد نابليون السماء» فيقول: «وكانت أخلاقه فريدة من نوعها، يحدب على الفقراء والأطفال ويؤنسهم جهده، ويوفر لهم أسباب السعادة، وكان قريبا من كل قلب، تراه أبدا باسما، حلو الحديث، منفقا لكل مال يصل إلى يديه، لا يدخر شيئا، كثير الصمت، وفيا، وقلما يستطيع أن يجاريه إنسان في وفائه»[2].

هذه الأخلاق هي التي جذبت الناس إلى النبي ﷺ، حتى عرف بينهم بالصادق الأمين، وكانت هذه الأخلاق أيضا هي التي جذبت إليه نظر السيدة خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها –، وكان أول الأمر فيما بينهما أن النبي ﷺ تاجر لها في أموالها، ثم لما رأت من حسن أخلاقه وأمانته وصدقه وعفافه، رغبت في الزواج منه، وسعت في سبيل ذلك، وكُلل هذا السعي بزواج النبي ﷺ منها، وكانت أكبر منه سنا، وكان النبي في ذلك الوقت فقيرا، وكانت هي غنية ذات مال، أي: من سيدات الأعمال بمصطلح العصر، يتقاطر على أبوابها سادة مكة خاطبين، إلا إنها فضلت النبي ﷺ على الرغم من فقره،

(١) ا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٣٤، ٣٥.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٢٤.

وذلك لما رأت من جميل أخلاقه، وحسن فعاله، وكان في ذلك سعادة الدارين لها، رضي الله عنها.

يتحدث **هنري ماسيه** عن هذا الزواج في كتابه «الإسلام»، مشيرا إلى دور السيدة خديجة المهم في بداية الدعوة فيقول: «زواج محمد، الذي كان في الخامسة والعشرين، من خديجة التي تكبره بكثير، هو حادث هام من عدة نواح: عند اضطراب محمد من نزول الوحي الأول فإن خديجة هي التي ستعيد إليه الثقة بنفسه، وأموال خديجة ستعضد محمدا في معاركه الأولى، ولذلك يمكن القول: إن تأثير خديجة على بدايات الإسلام كان رئيسيا»[1].

وهذه إشارة مهمة في حياة النبي ﷺ، أن كانت وراءه امرأة على هذا القدر من العظمة، وعلى هذا القدر من القوة النفسية التي يستطيع الزوج أن يهرع إليها في الملمات والشدائد، وأن يستعيد بين يديها ثقته بنفسه.

يضيف **جان باروا** في حديثه عن أخلاق النبي ﷺ فيشير إلى حادثة الكعبة ووضع الحجر الأسود، فيقول: «كانت الأقدار الإلهية تحيط محمدا وتسوقه إلى موطن الخلاف، لأنها آثرت ألا يضع هذا الحجر بعد إبراهيم إلا محمد بن عبد الله! وما كاد يطل على القوم من باب المسجد حتى تنادوا: هذا الأمين وكلنا نرضاه!! بسط محمد الرداء وأمسكه كل الزعماء ورفعوه إلى موطنه من الركن: وهنا مدّ يده ووضعه في مكانه فأصبح مقدسا لأن نبيين كريمين وضعاه في هذا الموضع من الكعبة»[2].

ويتوقف **ناصر الدين دينيه** ليرصد أثر هذا الحل الذي أدت إليه حكمة النبي ﷺ، فيقول: «زال الخلاف بفضل بديهة محمد الحاضرة؛ فقد أرضاهم جميعا دون أن يفضل

(١) هنري ماسيه، الإسلام، ص٤٢.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٢٥.

أحدهم على الآخر، ووُفِّقَ -لأول مرة في تاريخ العرب- بين كبرياء رؤساء القبائل، فمنعهم من إسالة الدماء، واحتفظ لنفسه بجانب من شرف وضع الحجر الأسود، ولم ينازعه فيه منازع»[1].

وخلاصة الكلام في وصف أحوال النبي ﷺ في ذلك الوقت يمكن أن نأخذها من **هنري دي كاستري** الذي يقول: «لا يمكن أن ننكر على محمد في الدور الأول من حياته كمال إيمانه وإخلاصه وصدقه، أما في الدور الثاني فلم يتزعزع الإيمان من قلبه مثقال ذرة، وما أوتيه من النصر، كان من شأنه أن يُقويه على الإيمان، لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغا لا محل للزيادة فيه، ولم يكن فيه عيب، بل إن ما نسبوه إليه من هذا القبيل، لا يؤثر بشيء على سيرته الطاهرة»[2].

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٠.

(٢) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٥٢.

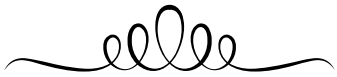

المرحلة المكية

حان وقت الحديث عن أعظم لحظة في تاريخ هذه الأمة، وهي لحظة نزول الوحي على رسولنا ﷺ، وكذلك سنتناول الإرهاصات والمرحلة التي سبقت هذه اللحظة المباركة.

وقد أطال المستشرقون التأمل في هذه الفترة التي سبقت البعثة، والسبب في ذلك هو هذا السلوك الذي هُدي إليه رسول الله ﷺ قبل بعثته، فقد كان ﷺ يخلو بنفسه في **غار حراء**، منقطعا عن مشاغل الدنيا وضجة الحياة، يتأمل في خلق السماوات والأرض، كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ثُمّ حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فَيَتَحَنَّثُ[1] فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق»[2].

وفي رواية ابن إسحاق أنه ﷺ كان يُجاور -أي يعتكف- في غار حراء كل سنة شهرا، وكان اختياره -ﷺ- لهذه العزلة طرفًا من تدبير الله تعالى لنبيه ﷺ، وتربيته وإعداده لتحمل رسالة السماء. ولقد كانت هذه المرحلة وفق أي منظور لمحاولة تحليل شخصية الرسول ﷺ مثار جذب للتأملات والتفكير: ما هذه الخلوات التي دخل إليها محمد ﷺ، وهو رجل هادئ، معروف بحسن الخلق، لا يثير أي نوعٍ من التمردات، أو يبدي أي رغبة في قلب نظام الحكم في مكة، ثم يخرج منها بهذه الثورة الهائلة، التي أسست دينا ودعوة ودولة وحضارة كبيرة؟

لذلك توقف كثيرٌ من الذين كتبوا في سيرة النبي ﷺ توقفوا كثيرا عند لحظات التأمل والخلوة والعزلة في حياته، وتدفقت فيها أفكارهم، تحاول أن تستشرف ماذا حدث للنبي ﷺ، وفيما كان يفكر في ذلك الوقت.

(١) أي: يتعبد.

(٢) البخاري: بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١٦٠).

نزول الوحي

يقول **مارسيل بوازار**، المفكر والقانوني الفرنسي المعروف، صاحب كتاب «إنسانية الإسلام»: «كان يقضي أوقات الفراغ في عمله بالتجارة في العزلة والتأمل في ما بلغته الأقوام العربية من التردي الخلقي، كما كان يخلو -قبل رسالته بثلاثة أعوام- إلى غار حراء خلال شهر رمضان للتبتل وتوزيع الطعام على الفقراء»[1].

أما **إميل درمنغم**، فيتحدث في كتابه «حياة محمد» عن هذه الفترة فيقول: «كان ينقطع عن الناس في شهر رمضان على الخصوص، وذلك في غار حراء القريب من مكة، وكان يؤتى إليه في أثناء عزلته بالزاد فيقضي طويل الأيام في ذلك الغار متأملا عابدا، وما كان له أن يستغني عن العزلة شأن أقوياء النفوس وذوي الجدّ من الرجال، ولم ينفكّ محمد عن الانقطاع حتى بعد أن أصبح رئيس دولة وصارت أمور السياسة والحرب تشغل باله، لما في الانقطاع من مصدر القوة والاتزان والحكمة»[2].

يشير **درمنغم** هنا إلى أن مسألة الانعزال والانقطاع عن مشاغل الدنيا وضجة الحياة، للتأمل في الكون والحياة والوجود، كان دائما من شأن الرجال الأقوياء ذوي الجد، الذين

(١) مارسيل بوازار، انسانية الإسلام، ص٤٢.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٧١.

أثروا في حياة الناس، وأحدثوا فارقا في مسيرة التاريخ، وبينما كان هذا الانقطاع والتأمل في حياة النبي قبل البعثة في غار حراء، فإن عزلته بعد البعثة كانت في قيامه بالليل متهجدا، فرسول الله لم يكن يغيب عن الناس بعد بعثته، ولم يكن يذهب إلى غار، وإنما كان انقطاعه بالاعتكاف مثلا في شهر رمضان، وكذلك قيامه الطويل بالليل، وهذا امتثالا لأمر الله عز وجل له في أول بعثته، في سورة المزمل: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ (١) قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلا (٢) نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا (٣) أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلا ثَقِيلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا).

ومسألة العزلة وأثرها على النفس، والتي تكلم عنها المستشرقون باستفاضة، هي حق بالفعل، فالإنسان إذا كانت له ساعات يقضيها مع نفسه متأملا ومفكرا، فإن نفسه تقوى، وعقله يصح، لأن الانشغال بمغريات الحياة وتفاصيلها الدقيقة التي لا تترك لأحد فرصة للتفكير إنما تجعل الإنسان أشبه بالترس في آلة الحياة الضخمة، بينما التوقف هو الذي يعطي الإنسان الفرصة ليسأل الأسئلة الوجودية الكبرى، وليحدد الأهداف الكبرى كذلك، أو حتى ليتخذ قرارا مصيريا بأن يكمل في هذا الطريق أو لا يكمل، وإن ما رُصد في حياة عظماء الرجال من هذه الفترات المماثلة من العزلة، إنما كانوا يخلدون فيها لأنفسهم، ويمارسون فيها هذا النوع من التأمل والتفكير.

يتحدث **ناصر الدين دينيه** وعن تأثيرها على النبي ﷺ، فيقول: «كانت الخلوة لمحمد، أعظم مربٍّ؛ فقد صَفَّتْ قلبه من كل مشاغل هذا العالم، لذلك أطلقت عليه الآثار «صفاء الصفاء»، وتشربت روحه –رويدا رويدا– روح الصحراء التي لا تحد، فبَصَّرَتْه بعظمة الله اللانهائية»[1].

إن التفكير في هذه الصحراء الممتدة إلى ما لا نهاية يلقي في روع الإنسان أن لهذه

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٦.

الصحراء الكبيرة إلها عظيما، وأن هذه الحياة أوسع من هذه المدينة الصغيرة (مكة)، أوسع من هذه الاهتمامات الدنيوية والمشاغل الحياتية الصغيرة، وأن الكون ما يزال فسيحا كبيرا، وكلما تعاظم في ذهن المرء شأن هذا الكون كلما كان أقدر على استشعار عظمة الله تبارك وتعالى.

يقول **إميل درمنغم**: «لم يكن مثل هذا التأمل الهادئ الخاص بأهل الشرق نتيجة فتور عقيم، بل هو نتيجة نشاط خصب، فالتأمل الطويل يُطَهِّر النفس ويُنَبِّه روح المعاينة ويؤدي إلى كشف ما وراء الحجب ويحثّ على العمل عند الضرورة، وقد استطاع أكابر المتأملين أن يكونوا من المبدعين الذين لم يَمَلُّوا، والتأمل الصحيح يحمل بذور الحركة والتحرر من الهوى الطارئ»[1].

إن هذا التأمل هو الذي يعطي الفرصة لتصحيح وتقييم المسارات التي ينغمس فيها المرء، وأرى أن هذا أحد الأسباب التي شُرع لأجلها قيام الليل، بل الصلاة أيضا، ذلك أن الصلاة فيها الخلوة من التفاصيل التي تشغل حياة المرء، فهي تنبهه خمس مراتٍ على الأقل على مدار اليوم، فتنزعه من هذه التفاصيل التي تسيطر عليه، ليحاول أن ينظر إلى سير الحياة بعين مختلفة، ويردد من الآيات القرآنية والأذكار ما ينقله إلى أجواء أخرى غير أجواء الحياة الصاخبة، ليتزود بالزاد الإيماني الذي يحتاجه ليسير إلى ربه على بصيرة من أمره، فمسألة الخلوة والتأمل مسألة مهمة، حتى لأمورنا الشخصية، فإن ما يطلق عليه علماء الإدارة «التخطيط» إنما هو في الحقيقة ناتج عن نوع من التفكير والتأمل.

وقد حاول **هنري دي كاستري** أن يتخيل فيم كان النبي ﷺ يتأمل ويفكر في خلوته وعزلته، يقول: «ولعمري! فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين، وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدّة التخيل، وقوة الإدراك، لا

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٧٣.

بوضع المقدمات، وتعليق النتائج عليها؟»[1].

من المعروف أن الغربيين يشيع فيهم اعتقاد أن الشرقيين أصحاب فكر وتأمل، وأصحاب خيال خصب، كما أنهم أصحاب أساطير كذلك، فمثلا كتاب **(ألف ليلة وليلة)** من الكتب التي أَثَّرَتْ في مُخَيِّلة الغربيين في تصورهم عن الشرق، فلذلك كانوا حتى وقت قريب يتخيلون أن الحياة في الشرق هي نوع من السحر، ونوع من الأساطير، ونوع من الكنوز، فها هو هنري دي كاستري يتحدث للغربيين أن الشرقي حين يمارس التأمل، فإنما هذا دليل خصوبة العقل وسعة الأفق، وهو بذلك يضرب تصورًا طالما ساد لدى الغربيين عن أنفسهم، إذ يتصورون أنهم أصحاب العقول العملية الواقعية المُنْجِزة، في مقابل الشرقي الروحاني الأسطوري الخرافي.

وفي مثل هذا المعنى يقول **ناصر الدين دينيه**: «إن هذا التأمل ليس إلا بوتقة تصهر فيها العواطف والأفكار الناشئة لتخرج منها صافية؛ إنه مصنع تكتيل القوى الروحية، رغم أنها خفية وأنها لا شعورية، هذه القوى الكامنة التي تتكتل بالمراقبة والتأمل: تمكث مستترة مجهولة، حتى من هؤلاء الذين تنطوي عليها جوانحهم؛ وما مثلها في ذلك إلا كمثل النار الكائنة في أشجار الغابات، فإذا ما أثارتها شرارة واحدة اشتعلت ملتهبة جارفة صاعدة إلى عنان السماء فتبهر العالم»[2].

ولا تنس أيها القارئ أن دينيه كان فنانا ورساما فلذلك نجد أن تعبيراته يجنح فيها إلى الخيال والتصوير المعروف عن الفنانين.

لحظة نزول الوحي:

بينما سيدنا محمد ﷺ في غار حراء إذ نزل عليه جبريل بوحي السماء..

---

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٤٠.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٧.

هنا يحرص **هنري دي كاستري** على أن يرد على الزاعمين بأن النبي ﷺ تلقى هذا القرآن وما فيه من العلوم من أحد من الناس، من أهل الكتاب أو من غيرهم، في مكة أو خارج مكة، يقول: «ما كان يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مرارا -نبيًا أميًا- وهو وصفٌ لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس، لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار»[1].

إن مسألة تلقي النبيّ للقرآن الكريم عن أحد اليهود أو النصارى، هي واحدة أكثر الاتهامات شيوعا في العالم الغربي، وليس هذا بمستغرب منهم، فإن الكافر الذي لا يؤمن بالنبي ﷺ لابد أن يضطر إلى البحث عن المصادر التي استقى منها النبي ﷺ القرآن وما فيه من علوم وأخبار، ولأن القرآن الكريم قد جاء على ذكر كثير من القصص التي جاءت في العهد القديم والعهد الجديد، فنجد أنهم يلتمسون كل الأسباب لمحاولة خلق لقاء وتَعَلُّم بين النبي ﷺ وبين عدد من اليهود والنصارى.

لكن لدى **هنري دي كاستري** دليل آخر على أن محمدا لم يتلق هذا الوحي عن أحد من اليهود والنصارى، يقول: «يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد (التوحيد) وصل إلى النبي من مطالعته التوراة والإنجيل، إذ لو قرأ تلك الكتب لردها، لاحتوائها على مذهب التثليث، وهو مناقض لفطرته، مخالف لوجدانه منذ خلقه، فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر في حياته، وهو بذاته أكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته»[2].

ويُصَوِّر **إميل درمنغم** لحظة نزول الوحي فيقول: «قرأ محمد ذلك (سورة العَلَق) فشعر بأن النور صُبّ في نفسه صبًّا، وتمثل له ذلك النمط، وهو الأمي، فعلم ما هو مكتوب

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٣٩.

(٢) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٤١، ٤٢.

فيه، وأدرك بنور بصيرته أمر كتاب حافل بالأسرار الإلهية»[1].

وقد يثور سؤال هنا: هل كان سيدنا محمد ﷺ يتوقع أن يُنبأ، أو كان يهيئ نفسه ويتجهز لتلقي أمر النبوة، كما حدث مع بعض الذين علموا أن هناك نبيا يبعث في ذلك الزمان؟ مثل أمية بن أبي الصلت[2] أو أبي عامر الراهب -الفاسق[3]- ممن تلقوا عن اليهود والنصارى فعلموا أن هذا زمان نبي، فرأوا في أنفسهم الأهلية لتلقي رسالة السماء وأخذوا يتهيؤون لتلقي الوحي، فهل كان هذا هو حال رسول الله كذلك قبل أن ينزل عليه الوحي؟

يجيب عن ذلك **ناصر الدين دينيه** فيقل: «لم يَدُرْ بِخَلَدِ محمد يوما أنه سيحمل هذا العبء الهائل، ولئن كان بعض الرهبان قد تنبأ له بشيء منه[4]، فإنه لم يعر تنبؤاتهم أي اهتمام، بل لقد نسيها، وإن اضطرابه وخوفه، حينما فوجئ بالوحي، من أن يكون فريسة لتخيلات شيطانية، ليؤكد لنا صحة ما نقول»[5].

ولا شك أن ما حدث لرسول الله ﷺ في حادثة نزول الوحي عليه، وما تلاها من خوف، ثم كلامه مع السيدة خديجة، ثم مع ورقة بن نوفل، يشير بوضوح إلى المفاجأة التي أصابت رسول الله ﷺ بنزول وحي السماء عليه، وأنه لم يكن ينتظر ذلك، فضلا عن

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٨١.

(٢) **أمية بن أبي الصلت**: شاعر جاهلي من أهل الطائف، سمع في رحلاته إلى الشام من القساوسة والرهبان وتلقى عنهم من علم الكتاب، فعلم بزمان بعثة النبي، فطمح أن يكون هو، وكثر في شعره معاني الإيمان، ولكنه لما بُعث النبي حسده وكفر به ومات كافرا!

(٣) **أبو عامر عبد عمرو بن صيفيّ**: من أهل يثرب من الأوس، ترهب وطلب علم أهل الكتاب في الجاهلية، وعلم قرب بعثة نبي، ولما بُعث النبي حسده وكفر به وقاتله، وانضم إلى مشركي مكة، وغدر بالنبي بعد أن عفا عنه النبي ﷺ لما أُسِر في بدر، وقد سماه النبي بالفاسق بعد أن كان يعرف بالراهب!

(٤) ربما هو يقصد ما حدث مع بحيرة الراهب أو مع غيره ممن استبشروا فيه بأنه سيكون نبي هذا الوقت.

(٥) دينيه، محمد رسول الله، ص١١١.

أن يتوقعه أو يتهيأ له.

يقول **إميل درمنغم**: «تلك هي معجزة الوحي، وذلك هو سر الكلام المكتوب المؤثر في الأمي والمُحَرّك له إذا ما اشتمل على نص إلهي، وبذلك سيكون لدى العرب، كما عند اليهود والنصارى، كتاب مقدس يتلونه للعبادة، وبذلك سيكون لديهم شريعة سماوية يسلكون بها سبيل النجاة»[1].

هكذا إذن نزل الوحي على النبي ﷺ، وجاءه الملك الكريم، وقال له اقرأ، وتلقى النبي ﷺ أولى كلمات القرآن الكريم..

يصف **ناصر الدين دينيه** عن أثر هذه الكلمات في نفس النبي ﷺ في عبارة جميلة، فيقول: «نزل الوحي كجذوة وهاجة بددت من نفس محمد كل شك، وأشعلت فيها تلك الآمال اللاشعورية، وتلك القوى الكامنة التي كدّسها في نفسه خمس عشرة سنة تقضت في التأمل والتحنث، لقد فتح الوحي عينيه على آفاق شاسعة، وأظهره على ما يجب أن يقوم به نحو تلك الرسالة من جهود جبارة خطرة»[2].

وهنا تبدأ المعركة الكبيرة، معركة صاحب الرسالة مع الجاهلية في وقته، وجهوده الجبارة الخطرة من أجل محو الجاهلية، ونشر نور الإسلام في ربوع الدنيا..

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٨١.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١١١.

جمال القرآن وإعجازه

كيف تكلم المؤرخون والمستشرقون الفرنسيون عن الوحي القرآني؟.. وكيف رصدوا ما في القرآن الكريم من معاني البلاغة والبيان والجمال، التي أبهرت العرب وأعجزتهم - وهم أهل البلاغة والفصاحة- حينما تلاه عليهم محمد ﷺ؟

نبدأ مع **ناصر الدين دينيه**، من كتابه (محمد رسول الله)، يقول: «إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمدا كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع، بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: «المعجزة الخالدة»، ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام؛ ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون، لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلا عن أنها غير دقيقة»[1].

لقد استغرق كلام المستشرقين وقتا طويلا في محاولة بيان المشكلات التي يجدها الغربي في تذوق القرآن الكريم، وذلك أن ترجمة القرآن إلى لغة أخرى، خصوصا إذا

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٣٦.

كانت غير دقيقة، تذهب بجمال القرآن كما هو في اللغة العربية، فكان الكاتبون في هذا الموضوع يحاولون أن يفسروا للغربيين كيف ولماذا لا تفهم الشعوب الغربية القرآن كما يفهمه العرب.

ولقد وجدت كثيرين منهم يتحدثون عن أن القرآن لا يمكن أن يُحس بتأثيره إلا حين يُسمع مرتلا متلوا في البيئة العربية التي تفهمه وتنفعل له وتتأثر به، ولذلك مثلا نرى **هنري دي كاستري** الذي كان من رجال الإدارة الفرنسية في الجزائر، فهو إذن ممن عاش هذه الأجواء العربية في استقبال واستشعار القرآن، يقول: «لو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب»[1].

وأحب أن أنقل هنا كلام مستشرق فرنسي متخصص في الأدب العربي وهو **ريجيس بلاشير**[2]، وهذا الاسم مشهور جدا في تاريخ الأدب العربي، وله كتاب من ثلاثة مجلدات عن تاريخ الأدب العربي، فهو رجل أديب من أهل الصنعة، لذلك فإن حديثه عن القرآن الكريم هو حديث رجل يفهم هذه اللغة ويتأثر بها، وقد قضى عمره في دراسة الأدب العربي، وله ترجمة للقرآن الكريم، يقول بلاشير: «إن خصوم محمد عليه الصلاة والسلام قد أخطأوا عندما لم يشاؤوا أن يروا في هذا -يعني القرآن- إلا أغاني سحرية وتعويذية، وبالرغم من أننا على علم -استقرائيا فقط- بتنبؤات الكهان، فمن الجائز لنا الاعتقاد مع ذلك بخطل هذا الحكم وتهافته، فإن للآيات التي أعاد الرسول عليه الصلاة والسلام

---

(١) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ص٤٦.

(٢) **ريجيس بلاشير (١٩٠٠-١٩٧٣)**: مستشرق فرنسي، انتقل إلى المغرب وهو في الخامسة عشرة من عمره، لأن أباه كان موظفا في الإدارة الفرنسية التي كانت تحتل المغرب، فتعلم في مدرسة فرنسية بالمغرب وتخرج في كلية العلوم الإنسانية بجامعة الجزائر (١٩٢٢م)، وتخصص في اللغة والأدب العربي، وكتب رسالته للدكتوراة عن المتنبي، وله مؤلفات عديدة أشهرها «تاريخ الأدب العربي»، ويرى كثيرون أن ترجمته تُعد الأفضل بين الترجمات الفرنسية حتى وقتها.

ذكرها في هذه السور اندفاعا وأَلَقًا وجلالة تُخَلِّف وراءها بعيدا أقوالَ فصحاء البشر»[1].

أما **جاك ريسلر** فيقول في كتابه «الحضارة العربية»: «هناك إجماع على اعتبار القرآن أروع كتاب في الأدب العربي، فهو مكتوب بأسلوب بديع، إذ أن القرآن أوحي لكي يُتلى ويُرتَّل بصوت مرتفع، ولا يمكن لأية ترجمة أن تحيط بدقائقه ولطائفه الموسومة بسمات الإحساس الشرقي المرهف، فلا بد من اكتناهه في نصّه الأصلي، لكي تُقَوَّم قوته وجمالياته وشرف مبناه على حد سواء، فنثره الإيقاعي والمدون يثير بحد ذاته فتنة تخترق الأفكار، وتسطع الصور وتشع حرارة وإشراقا، ولا يمكن لأحد أن ينكر أن سلطانه البياني ورقيه الروحاني يتضافران معا ليؤكدا أن محمدا كان قد حظي فعلا بالوحي، بروعة الله وجلالته»[2].

هذا التأثر بكلام الله تبارك وتعالى يكرره **هنري دي كاستري** حين يقول: «إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظا ومعنى، آيات لما سمعها **عتبة بن ربيعة** حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها، وفاضت أعين النجاشي إمبراطور الحبشة بالدموع حين تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة مريم»[3].

وهو يقصد هنا القصة المشهورة التي رواها أصحاب السير حين ذهب عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه المال والملك والسيادة والنساء على أن يترك أمر الدعوة للإسلام، حتى إذا فرغ عتبة، قال له رسول الله: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني؛ قال: أفعل؛ فقرأ عليه رسول الله من سورة فصلت: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ

(١) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٣١.

(٢) ريسلر، الحضارة العربية، ص٣٨.

(٣) هنري دي كاستري: الإسلام خواطر وسوانح، ص٤٢، ٤٣.

أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾[فصلت: ١-٥] ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه؛ ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به؛ قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه؛ قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

فهنا **هنري دي كاستري** يتحدث عن تأثير القرآن الكريم فيضرب مثلا بما حصل لعتبة بن ربيعة، وكذلك بقصة إسلام عمر المشهورة، وببكاء النجاشي لما تلى عليه جعفر بن أبي طالب من سورة مريم، وذلك حين أوقفه النجاشي بين يديه يسأله عن الإسلام وعن سبب فرار المسلمين إلى بلاده الحبشة.

أما **جان بروا** صاحب كتاب «محمد نابليون السماء» فيقول عن القرآن الكريم: «إنه كتاب من السماء فيه معجزة العلم ومعجزة العقل: آيات بينات طافحة بالمعجزات، زاخرة بالخوارق، في كل آية حكمة، وفي كل كلمة بيان، أوليس في إمكانهم وهم أهل اللسن والفصاحة وأرباب البلاغة، فيهم فحول الشعراء ومصاقع الخطباء وفيهم الزعماء أن يأتوا بمثله؟»[1].

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٣٠.

ويقرر القانوني الفرنسي **مارسيل بوازار** أن «القرآن لم يُقدَّر قط لإصلاح أخلاق عرب الجاهلية –فحسب–، إنه على العكس يحمل الشريعة الخالدة والكاملة والمطابقة للحقائق البشرية، والحاجات الاجتماعية في كل الأزمنة»[1].

وعن شمولية القرآن يقول المؤرخ المستشرق الفرنسي **لويس سيديو**: «ما فرَّط القرآن من شيء في تلك الآداب التي قوامها الحكمة وأسها العدل والإحسان وغايتها قصد سبيل الحق والصدّ عن محجة الضلالة والخروج من ظلمات الرذائل إلى أنوار الفضائل، والتطهر من شوائب النقص والتحلي بزينة الكمال، وما قصدنا بإيراد ما سلف إلا أن يكون لهذه الشريعة دليل على تقدس غايتها وحرمة مذهبها ورفعة حكمتها وموافقتها لما أنزل من قبل على الرسل الكرام، فبذلك يهتدي البصير إلى فضل القرآن المجيد إذ جمع فأوعى ما أوتيه النبيون قبل من البينات»[2].

وهذه الكلمة من لويس سيديو لها مقامها، ذلك لأنه رجل ذو قدر ومكانة في عالم المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ الشرق وتاريخ الحضارة الإسلامية، وهو كان يركز في دراساته على مسألة امتداد النسب والصلة بين القرآن الكريم وبين ما أنزله الله تبارك وتعالى على الرسل والأنبياء.

ومثل مقالة سيديو، يبدو **جاك ريسلر** مندهشا وهو يقول: «القرآن يتوقع كل شيء، ويحل مسبقا كل المشاكل، فهو يربط الشريعة الدينية بالأخلاق، ويهدف إلى استتباب النظام والوحدة الاجتماعية، وإلى الحد من البؤس والقسوة والشعوذات، إنه ينزع إلى رفع البسطاء، ويقيم ملكوت الإحسان»[3].

إن هذه العبارة ربما لو قالها مسلم لنظر إليه باعتباره متعصبا متشددا، ولكن هذا

---

(١) بوازار، إنسانية الإسلام، ص١٠٩.

(٢) لويس سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٦٣.

(٣) (٣) ريسلر، الحضارة العربية، ص٥٨.

الرجل الذي لم يُسْلِم، يتحدث عن أن القرآن يتوقع كل شيء، ويحل مسبقا كل المشاكل، ويتحدث عن هذا الارتباط بين الدين والدنيا، بين الشريعة والأخلاق، بين العبادة والقانون، فأحرى بمن لا يشعر في القرآن بهذه المعاني أن يراجع علاقته بالقرآن الكريم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يرد **ناصر الدين دينيه** على من زعم أن القرآن ألَّفه محمد، فيقول: «حقا إنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين أن محمدا قد انتهز فرصة الخلوة هذه فروَّى ورتّب عمله للمستقبل، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فوسوس بأن محمدا ألَّف في تلك الفترة القرآن كله، أحقا لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خالٍ من أية خطة سابقة على وجوده، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية، وأن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها، وخاصة بحادثة وقعت، بعد الرسالة، طيلة فترة تزيد على عشرين عاما، وأنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك ويتنبأ به؟»[1].

وأغلب الظن أن ناصر الدين دينيه يقصد بكلامه **كلود إيتيان سافاري**، وقد ذكرنا سابقا أنه أول من ترجم القرآن الكريم إلى الفرنسية، ذلك لأن **سافاري** زعم أن النبي ﷺ قضى الخمسة عشر عاما ما بعد زواجه من السيدة خديجة في عمر الخامسة والعشرين وحتى عمر الأربعين، في التفكير والتخطيط لأمر هذا الدين الذي جاء به، وإن كانت هذه الفكرة لا تختص بسافاري فقط وإنما هي منتشرة، **فدينيه** يتحدث عن أن الذين يتصورون أن رسول الله ﷺ قد قضى السنوات التي سبقت إعلانه الدعوة في تأليف القرآن يثيرون دهشته واستغرابه من تبنيهم لهذه الدعوى المتهافتة، ذلك لأن كثيرا من سور القرآن جاءت تعلق على أحداث وقعت بعد الرسالة بزمن طويل، فهل من الممكن يمكن أن يتنبأ القرآن بما حصل بعد إعلان الرسالة ب ٢٠ سنة؟! ثم يقرر أن هذا مما لا يمكن وقوعه عقلا.

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٠٧.

في النهاية قام **دينيه** يحاول أن يقنع الغربيين بأن القرآن كتاب من عند الله تبارك وتعالى، فجاء بعدد من أقوال المستشرقين الذين تأثروا بالقرآن (من فرنسيين وغير فرنسيين)، ثم في النهاية ختم كلامه بعد أن أورد هذه الأقوال بقوله: «إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يُحدث مثل هذا التأثير في نفوس مثل هؤلاء العلماء الذين لا يمتون إلى العرب ولا إلى المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون من قوة الحماس الذي يستهوي عرب الحجاز، وهم الذين نزلت الآيات بلغتهم الشعرية الجميلة»[1].

وفي النهاية، ينبغي القول بأن العربي المسلم أولى أن يشعر بجمال القرآن ويتذوق معانيه من هؤلاء الأعاجم! فلا يليق بالمسلم أن يكون علمه بكتاب الله الذي نزل له أدنى وأقل من علم هؤلاء به!

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٣٧.

السابقون إلى الإسلام

لما أوحى الله إلى النبي ﷺ، كانت زوجه السيدة خديجة رضي الله عنها هي أول من هرع إليها، وكانت هي التي طمأنته وهدأت من روعه حين جاءها وقد أصابه الفزع من نزول الملك جبريل عليه، ثم أخذته إلى ورقة ابن نوفل، وكان ورقة رجلاً من العرب ينفر من عبادة الأصنام، ويرى أن ما عليه العرب خطأ، وليس بشيء، ولذلك ساح في الأرض وبدأ في البحث عن الحقيقة حتى قرأ كتب اليهود والنصارى وصار عنده من علمهم، وعاش على الحنيفية والتوحيد ملة إبراهيم، فلما حدثته خديجة بما جرى للنبي ﷺ، عرف أن النبي ﷺ هو نبي هذا الزمان، وبشره بذلك، وأعلمه أن خبره موجود في كتب أهل الكتاب، فكان ذلك مما ثبت قلب النبي ﷺ وأدخل السكينة على نفسه، وكان هذا من فطنة خديجة وفضلها رضي الله عنها.

فيما بعد، جاء الأمر الإلهي للنبي ﷺ أن يتحرك بهذه الرسالة بعدما تكرر عليه نزول الوحي، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾[المزمل: ١]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾[المدثر: ١-٢]، وبدأت مرحلة الدعوة والبلاغ، فبدأ النبي ﷺ في هذه السنوات الأولى -التي هي السنوات الثلاث الأولى من عمر البعثة- في انتقاء الشخصيات التي يعهد إليها بهذا الأمر ويرى أنها محل ثقة، ويمكن الاعتماد عليها في حمل رسالة الإسلام، فكان في هذه الفترة كأنما يشكل ويكون فريق العمل الأساسي، ويجمع الرجال الذين يعتمد عليهم في القيام بأمر هذا الدين، وفي هذه الفترة كانت الدعوة سرية، ولم يجاهر بها النبي ﷺ، ولم يتعرض بها لأهل مكة.

سنجد أغلب المستشرقين، ومنهم الفرنسيون الذين هم حديثنا في هذا الكتاب، حين كانوا يتكلمون عمن أسلم في تلك الفترة، يتوقفون بالاهتمام عند شخصيتين على وجه التحديد، هما خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك لما كان لهما من أثر بالغ في مسار الدعوة الإسلامية.

وأحب أن أشير هنا إلى أن من عادة المستشرقين غير المسلمين أن يتناولوا مثل هذه الأمور من ناحية مادية بحتة، بمعنى أنهم ينظرون إلى إسلام الشخصيتين على أن ذلك إضافة مادية لقوة الدعوة وحسب، دون النظر إلى قضية نعمة الإسلام والهداية التي منَّ الله بها عليهما، ولا مسألة قيامهما بواجبات المسلم تجاه دينه تعبداً وطلباً للنجاة. وأضرب على ذلك مثلا واحدا فحسب، وذلك قول المستشرق الفرنسي المسيحي المتعصب **هنري ماسيه**: «أول من آمن بكلام محمد بعد خديجة هو ابن عمه علي بن أبي طالب، ولكن طفولة علي قَلَّلَتْ من أهمية اهتدائه، وكان الاهتداء الأكثر نفعا[1] هو اهتداء أبي بكر، وهو تاجر عظيم نذر لمحمد محبةً لا تنفصم، ومن ناحية أخرى فإن النبي وجد سندا

(١) تأمل كيف قلل من أهمية إيمان علي لأنه صغير، وعظَّم من أهمية إيمان أبي بكر لأنه تاجر، وهذا من تأثير النظر المادي للأمر كما ذكرناه، وإلا فإن إيمان علي رضي الله عنه -في نظرنا كمسلمين- كان أمراً كبيراً، ونحن ندرِّس للنشء المسلم إسلام علي رضي الله عنه كنموذج للصبي والفتى المسلم الذي يحمل هم الدين، وكيف أن الطفل في هذا السن الصغيرة إذا نمى ونشأ في بيئة صحية، فإنها تعوِّدُه الرجولة وتحمل المسؤوليات الجسام والقيام بالمهمات العظام، وذلك ليس كالبيئة التي نعيش فيها الآن، فإن بيئتنا اليوم تطيل من الفترة الزمنية التي يحتاجها الإنسان من عمره حتى يعقل ويتحمل المسؤولية، فتجد الشاب في عمر ٢٠ سنة وما زال يعتمد على أبويه، وما زال يعتمد حتى في بناء أفكاره على وسائل الإعلام مثلا، بينما في البيئات الصحية الطبيعية، يحظى الفتى بالقدرة على تكوين رأي منذ مرحلة مبكرة، وها هو علي مثال لفتى كان لديه من العقل والاستقلالية وقوة الشخصية ما جعله يختار لنفسه في مسألة كبيرة عظيمة مثل ترك دين آباءه وأجداده والدخول في دين جديد، أما في أيامنا هذه فإننا مثلا ننظر إلى مرحلة المراهقة باعتبارها مرحلة طفل مندفع مراهق غير مسؤول، بينما مرحلة المراهقة هذه هي مرحلة التكليف في الإسلام، فهذا الشاب الطائش عديم المسؤولية الذي يخطئ دون حساب هو في نظر الإسلام رجل مكلف، وكان أمثاله وأقرانه قديما يقودون الجيوش، ويفتحون البلاد، ويقيمون الممالك.

مخلصا في زيد، ولده بالتبني»[1].

وأما إسلام خديجة فيقول **ناصر الدين دينيه**: «آمنت خديجة، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ، فكان لا يسمع شيئا مما يكرهه، من ردّ عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تخفف عنه وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس، كانت تضحية خديجة، تلك السيدة المثالية، توحي إلى محمد باحتقار لا حدّ له لخبث الناس وشرورهم، وكان إيمانها الذي لا تزعزعه الأعاصير، يقوي في نفسه الثقة حينما كان المشركون يصفونه بأنه مُتَقَوِّل على الله»[2].

وقريب من هذا المعنى يتحدث **ألفونسو دي لامارتين** فيقول: «كان إيمان خديجة الشفاف التام بنبوة زوجها يثبت إيمانه ويجلو عنه الريبة، ويخفف عنه ما يلقى من أذى، ويقوّي عزمه، فكانت لمحمد –خلافا لعظماء الرجال– حلقة المؤمنين به في بيته، فالإسلام قد بدأ –أول أمره– بمثابة الأسرة، وظلت شعائره وطقوسه –طويلا– تقام في منزل محمد، قبل أن ينتشر وتقام فرائضه في أي مجمع آخر من مجامع قريش»[3].

وأما إسلام أبي بكر الصديق، فيقول **جان بروا**: «لم يكن أبو بكر في الجاهلية بالمغمور أو المجهول، بل كان نابه الذكر، جم الاحترام والتقدير، معروفا في القبائل بحسن أخلاقه وسموّ منزلته، فلم يكن يؤمن بما جاء به صديقه الأمين حتى شرع يؤدي واجب الرسالة ويدعو الناس إلى الإسلام»[4].

ويقول **ناصر الدين دينيه**: «أشاع إسلام أبي بكر في نفس الرسول سرورا عظيما، وكان أبو بكر صدرا معظما في قريش على سعة من المال وحسن الوجه، وصاحب منظر أنيق،

---

(١) ماسيه، الإسلام، ص٤٥.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١١٣، ١١٤.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٤٢.

(٤) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٢٨.

وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر، وكان أعلم الناس بتعبير الرؤيا، صادقا في حديثه، حسن المجالسة، وقد اختاره قومه قاضيا في المغارم والديات وحكما في المفاخرات، في إيمان حار، أخذ أبو بكر يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه، ويكرس جهده في نشر الإسلام، ويقود أصدقاءه إلى الرسول ليعلمهم الإسلام»[1].

لقد كانت هذه من أعظم خصال الصديق رضي الله عنه، وهي حمل هم الرسالة والدعوة والبلاغ، كأنما أنزلت الرسالة عليه، فما إن آمن بالإسلام حتى انطلق ينتقي من يثق فيهم، ويتوسم فيهم الصلاح، ويدعوهم إلى الإسلام، فجاء للنبي بستة من أعمدة الإسلام من العشرة المبشرين بالجنة، الذين ظلوا رموز وأعلام هذا الدين حتى نهاية حياتهم المباركة، وهذا يدل على كفاءة أبي بكر الصديق، وقدراته الدعوية الكبيرة، وكيف أنه وظف مكانته ومعلوماته وشبكة علاقاته العامة لخدمة الدعوة، وكيف كان متفرسا وبصيرا بالرجال وقادرا على تقييمهم، لذلك كان إسلام أبي بكر فتحا وبركة.

وفي هذا يقول **كلود إتيان سافاري**: «كان أبو بكر مواطنا ذا نفوذ في مكة، مشهورا باستقامته وبثرواته، فشرع محمد يعمل على إسلامه، اعتقادًا منه أنه جدير بأن يعطي قوة لدينه الجديد، وتَوَّج النجاح مجهوداته، وأصبح أبو بكر من أقوى أنصار الإسلام، لقد كان إسلامه نصرا كبيرا، فحمل أبو بكر بين أصدقائه شعلة الإيمان التي ملأت صدره وأخضع بها الكثيرين، وقدَّم إلى النبي عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله، آمن الجميع واعتنقوا الإسلام، وكانوا الرعيل الأول للديانة المحمدية، وتبعهم كثيرون، وغمر الفرحُ محمدا عندما رأى أبا عبيدة وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وقد انضموا تحت لوائه»[2].

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١١٦، ١١٧.

(٢) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٧٢.

ويقول **إميل درمنغم**: «كان لإسلام أبي بكر بالغ الأثر، فقد تابعه على الإسلام من قريش عثمان بن عفان الأموي وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وصهره -بعد ذلك- الزبير بن العوام -فقد تزوج أسماء بنت أبي بكر-، وهذا مع ذكرنا أن أبا بكر لم يسطع أن يهدي إلى الإسلام أباه وأولاده، ولا سيما ابنه البكر»[1].

وهذه أيضا من الأمور التي تستحق التوقف عندها، وهي أن أبا بكر رضي الله عنه هو الصحابي الوحيد الذي أسلم كل أهله، فقد أسلم أبوه وأمه وزوجاته وبناته وأبناؤه، ولكنهم لم يسلموا جميعا في هذه الأيام الأولى، فأبو بكر رضي الله عنه جاء بعثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وغيرهم قبل أن يأتي بوالده وولده، بل ظل ولده عبدالرحمن في صفوف المشركين يقاتل معهم حتى أسلم بعد صلح الحديبية، وكان والده أبو قحافة ممن أسلم بعد الفتح، وفي هذا مصداق لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[القصص: ٥٦]، فأبو بكر رضي الله عنه على الرغم من هذه الإمكانيات الدعوية الكبيرة، والتي استطاع بها أن يأتي بصفوة قريش إلى الإسلام، إلا أنه لم يستطع أن يأتي بأهله الأقربين في السابقين الأولين.

يتحدث **ألفونسو دي لامارتين** عن أثر آخر لأبي بكر رضي الله عنه، حيث أشار إلى أمر هو أقرب إلى علم الهندسة الاجتماعية اليوم، فذكر أن إيمان أبي بكر بشيء كان يمنع أن يكون هذا الشيء محلَّ سخرية، وذلك لما لأبي بكر من القيمة والأثر والقدر في المجتمع القرشي، فإن الفكرة إذا اعتنقها بعض الهمل، أو بعض الناس الذين لا يؤبه لهم، فإن ذلك غالبا لا يكون مؤثرا في المحيط الاجتماعي، لكن حين يعتنقها ذوو القدر الكبير من الناس، ممن يعرفون برجاحة العقل وحسن الرأي، عندئذ يصير للفكرة قدر وجاذبية وقدرة أكبر على التأثير في المحيط الاجتماعي، وهذا المعنى هو ما انتبه إليه **ألفونسو دي لامارتين** فيقول: «حمت مجاهرة أبي بكر بإيمانه بعقيدة محمد الدين الإسلامي الناشئ

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٨٩.

من صبغة الجنون والهزء، وهي أول تجلٍّ للسخرية يرسله عامة الناس دون تمحيص إزاء كل ما يصدم تقاليدهم، إذ كان أبو بكر من أولئك الذين يجلب اعتناقهم رأيا احترام الكثرة من الناس إن لم يكن اقتناعهم بسداد ما يرى، وحينما أعلن أن محمدا هو وليه، وقاه من الاحتقار، ولم يلبث أن جرّ معه أهم القرشيين من بين الفتية الأبطال في مكة: عثمان، وهو من بني أمية المشهورين، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير، ابن أخي خديجة[1]، وطلحة بن عبيد الله»[2].

والمقصد هنا أن الأعمدة التي بُني عليها الإسلام في ذلك الوقت العسير من عمر الدعوة، كانت هي الأعمدة التي قام عليها الدين، فهم الذين أقاموا الدولة مع النبي ﷺ، ونشروا الإسلام وحملوه على أكتافهم للعالمين.

ثمة سؤال محرج يلح على الخاطر دائما، وينبغي أن نفكر فيه جميعا، ترى لو كنا نعيش في زمن النبي ﷺ، هل كان سيختارنا لهذه الدعوة لنكون من رجالها الأوائل وأعمدتها المؤسسة، أم أنه سيرانا أضعف من أن نحتمل مثل هذه الأمانة؟ هل مقوماتنا وأخلاقنا وهمتنا تصل بنا أن نشابه تلك الثلة والعصبة التي اختارها رسول الله لتكون نواة الإسلام الأولى، وعلى رأسهم أم المؤمنين خديجة، والصديق أبو بكر رضي الله عنهم جميعا؟، إن هذا الجيل هو الذي يجب أن يكون القدوة والمثل لنا، وليكن شعارنا:

فتشبّهوا إن لم تكُونوا مثلَهم ... إنَّ التشَبّه بالكرامِ فَلاحُ

(١) الزبير ابن أخي السيدة خديجة لأنه الزبير بن العوام بن خويلد وهي خديجة بنت خويلد.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٤٣، ٤٤.

الجهر بالدعوة وصدمة المجتمع المكي

نزل أمر الله تبارك وتعالى لنبيه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤] فبدأت مرحلة الجهر بالدعوة للأقربين، ثم بدأت فيما بعد مرحلة الجهر بالدعوة لعموم القرشيين والمجتمع المكي.

وإن من أهم ما يلفت النظر في دعوة النبي ﷺ هو إعلانه الواضح أنه لا يؤسس دينا جديدا، ولا يبتدع شيئا لم يوجد من قبل، ولا يخترع فكرة من عند نفسه، وإنما هو رسول من عند الله، أوحى الله إليه وأرسله ليتم به سلسلة الرسالات السابقة، فهو مصدق لما جاء به موسى وعيسى من البينات والهدى، وهو امتداد لدعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى التوحيد، وقد كانت العرب تعرف دين إبراهيم، وكان في الجزيرة العربية يهود ونصارى أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، لذلك، فقد أعلن رسول الله لقومه منذ البداية أنه ليس منفردا بنفسه، وإنما هو إتمام لهذه السلسلة المباركة من الأنبياء والمرسلين من قبله.

يقول المستشرق والمؤرخ الفرنسي **كلود كاهن**: «إن الرسالة السماوية التي نطق بها النبي محمد رسول الله، هي تماما الرسالة ذاتها التي حملها الرسل والأنبياء قبله، من آدم

إلى المسيح، الذي هو واحد منهم»[١].

ويقول المفكر والفيلسوف الفرنسي **روجيه جارودي**[٢]: «لم يدَّع أنه يؤسس دينا بل جاء ليرشد الناس بوحي من الله، إلى أن يتذكروا من جديد العقيدة الأصلية، عقيدة إبراهيم، أعني: ألا نعبد إلا إلها واحدا، وأن ننبذ إذن المعتقدات الباطلة الطفيلية والطقوس التي لا حياة فيها، ولم يكن ذلك [مجرد] استبعاد جميع أشكال الشرك بتعدد الآلهة وعبادة الأوثان، وإنما إخضاع كل سلطة وكل ملكية وكل معرفة لمفهوم النسبية[٣]، إن الله أكبر من أعظم الملوك؛ وإليه وحده يُدان بالإجلال المطلق؛ فهاهنا المبدأ بحق لا يجوز التصرف فيه، بالصمود في وجه كل طغيان وبمعارضة كل سلطة، الأساس الإلهي لمساواة بين جميع الناس، من وراء أي تسلسل في المراتب الاجتماعية»[٤].

---

(١) كلود كاهن، الإسلام، ص٣٦.

(٢) **روجيه جارودي (١٩١٣ – ٢٠١٢)**: فيلسوف فرنسي، ولد لأم كاثوليكية وأب ملحد، واعتنق البروتستانتية وهو في الرابعة عشرة من العمر، واعتنق الشيوعية وهو في العشرين من عمره وكان من رموز الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم اعتنق الإسلام عام ١٩٨٢ وهو في السبعين من عمره وقال إنه «دين المستقبل»، له في آخر عمره جولات ضد الصهيونية وجرائمها وعدد من الكتب فالتي أثارت عاصفة في وجهه وتسببت له بكثير من المتاعب لقوة الصهاينة في فرنسا وأوروبا وصلت إلى المحاكمة والتغريم وحُكْمٍ بالسجن لتشكيكه في المحرقة النازية لليهود في الحرب العالمية الثانية.

(٣) يقصد جارودي بمفهوم النسبية هنا أنه ليس هناك شيء مطلق، ليس هناك حق مطلق، ليس هناك فكرة لا تقبل المراجعة، ليس هناك شيء يسموا فوق الله تبارك وتعالى، فالله هو الحقيقة المطلقة، فيتحدث هنا أن النبي ﷺ إنما عاد لتثبيت هذه الفكرة، هذه ترجمته هو أو محاولته لشرح معنى لا إله إلا الله، بمعنى ليس فقط هدم الأوثان والمعبودات، واستبعاد الباطل، وإنما أيضا إعادة الناس إلى الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له. ثم يشير إلى قضية المساواة، وأنها في أصلها فكرة دينية مبنية على أن الله تبارك وتعالى واحد، وأنه خلق جميع الناس متساوين، وهذا أمرٌ كان أحسن من تكلم فيه برأيي هو علي عزت بيجوفيتش في كتابه «الإسلام بين الشرق والغرب»، حيث أشار إلى أن المساواة ليست حقيقة بأي معيار مادي، فلا يمكننا المساواة بين البشر بناءً على أي معيار مادي، لأن الفوارق والتباينات بينهم لا تنتهي، إنما الأساس الحقيقي للمساواة بين الناس هو أن يؤمنوا بأن الله الذي خلقهم هو إله واحد، فهذا هو ما يجعلهم جميعا على قدم المساواة من حيث الأصل.

(٤) جارودي، وعود الإسلام، ص٣٠، ٣١.

وبهذا، كما يقول **هنري دي كاستري**، «لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة، فمحمد كعيسى، قال بأنه بُعِث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها، فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تَقَدَّمَه، ولذلك كان يُصَرِّح على الدوام بأنه يعيد على الناس ما نزل على الأنبياء من قبله»[1].

ويقول **إميل درمنغم**: «يستشهد محمد في أقواله بالرسل الذين ظهروا قبله، ويذكر أنه لم يصنع غير تكرار ما أتوا به وما أنذروا به، ويقصّ أنباءهم ليدلّ على أن الله يجازي من يكفرون بآياته»[2].

ولهذا فلم يزعم النبي ﷺ لنفسه ميزة غير إنسانية، ترفعه عن كونه إنسانًا، كما كان يفعل الملوك والأباطرة في التواريخ القديمة، إذ كانوا يزعمون أنهم من نسل الآلهة، أو أنهم أنصاف آلهة، أو أنهم أشباه آلهة، أو أنهم مميزون بصفات خاصة عن بقية البشر المحكومين كالدم الأزرق مثلا كما كان منتشرا في أوروبا، وهذا أمر انتبه إليه **ريجيس بلاشير** حين أشار إلى أن النبي ﷺ كان مصرحا دائما بأنه مجرد بشر، وأنه عبد لله تبارك وتعالى، ولا يزيد عن الناس في شيء إلا أن الله اختاره ليوحي إليه ليبلغ رسالة الله إلى الناس كافة، فيقول: «إن محمدا عليه الصلاة والسلام لا يبدو في القرآن إطلاقا، منعما عليه بمواهب تنزهه عن الصفات الإنسانية، فهو لا يستطيع في نظر معاصريه المشركين أن يفخر بالاستغناء عن حاجات هي حاجاتهم، وهو يصرح بفخر بأنه لم يكن سوى مخلوق هالك ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]»[3].

حتى المعجزات التي قد يظن البعض أنها قد تعطي النبي ميزة فوق إنسانية، لم ينسبها النبي ﷺ إلى نفسه، وإنما نسبها إلى الله تبارك وتعالى، وحين كان يطلب منه أن يأتي

---

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٥١.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص١١٢.

(٣) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ١٤.

بمعجزة فلم يكن يزعم أنه هو بنفسه قادر عليها، وأحيانا كان يرفض هذا حين يكون السجال مع القرشيين سجالا لا يطلب منه الهداية وإنما يطلب منه الإعنات.

يلخص **إدوارد بروي** دعوة الإسلام التي سمعها القرشيون، فيقول: «فالله الذي يدعو إلى عبادته هو الواحد الأحد القيوم الكلي القدرة، يدعو الإنسان إلى الطاعة والتسليم المطلق، إلى الإسلام، إذ إن الله كريم رحيم يعد عباده ومن يُسَلّم أمره إليه، أي المسلم، بالجنة، ويبعث في قلبه الإيمان والثقة بوعد الله، وهو لا ينهى المسلم عن السعي وراء خيرات هذه الدنيا، إنما بالشكر تدوم النعم، إذ إن الله هو واهب الأشياء ومُقَسِّم الأرزاق، وهذا الموقف، وهذه القناعة الداخلية لا تلزم صاحبها إلا بالدعاء لله والشكر له، والسير على تعاليمه ووصاياه، والجهاد في سبيله حسبما يدعو إليه نبيه ورسوله، والاعتصام بمكارم الأخلاق، والتزام حبل الفضيلة، والتصدق للغير، من أي لون أو جنس كانوا، وفقا للتقاليد العربية المرعية، والرفق بالمرأة، هذه هي بإيجاز الرسالة التي قام محمد يدعو إليها العرب في مكة، بأسلوب جزل، وعبارة جمعت بين الإيجاز والإعجاز»[1].

هذه القيم التي جاء بها النبي ﷺ كانت ثورة كبيرة في المجتمع المكي، وكانت انقلابا في حياة المجتمع ينعكس على كل جزئيات الحياة، فنجد الفيلسوف الفرنسي المعاصر **إريك يونس جوفروا**[2] يقول: «كان ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وفي القرن السابع الميلادي حدثا تفجيريا وثوريا بامتياز، لا ريب في أن الثورة التي

(١) إدوار بروي، القرون الوسطى، ضمن: موسوعة تاريخ الحضارات العام، ٣/ ١١٢.

(٢) إيريك يونس جوفروا: فيلسوف فرنسي، ولد في ١٩٥٦، واعتنق الإسلام وعمره ٢٧ سنة بعد رحلة بحث في الديانات، سلك طريق التصوف بعدها وتخصص فيه، وكتابه «المستقبل للإسلام الروحاني» قام بترجمته «المركز القومي للترجمة» في مصر.

أثارها الدين الجديد كانت في البداية ميتافيزيقية [روحية] كما تشهد على ذلك تلك الانبجاسات الساطعة المتفجرة للسور القرآنية الأولى ذات الإيقاع المرتج، المتسارع، اللاهث، المتقطع، وهذه السور تهدف إلى إيقاظ الكائن البشري وإخراجه من سباته أو خدره وخموده، فهذه السور ما انفكت تُذَكِّر مرارا وتكرارا بمبدأ التوحيد الإلهي، وكان ذلك في حد ذاته ثورة»[1].

وهو يقصد بالسور المشار إليها هنا، السور المكية – وأغلبها السور الموجودة في الأجزاء الثلاثة الأخيرة من القرآن–، حيث تجد أن الآيات قصيرة متسارعة–، فهو يتحدث عن إيقاع مرتج لاهث، وما تذكر به هذه الآيات من مشاهد يوم القيامة، وتنبيه الناس إلى حقيقة الكون والحياة والآخرة وحقيقة الجنة والنار والنعيم والعذاب، وهو مما يستهدف بعث الهمم، وإيقاظ هذه النفوس.

وعلى إثر هذا الانقلاب الذي أحدثته دعوة الإسلام، بدأ الجدال المرير في مكة، وبدأ القرشيون يحاولون أن يفاجئوا النبي ﷺ بمماحكات وسجالات لفظية، يقول **هنري دي كاستري**: «احتاج الإسلام في الانتشار إلى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التي وجدها، وهو مانع يصادف كل دين جديدة، إلا أنه كان قويا للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم، وإعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة، وكان من الصعب جدا أن يعتنقوا دينا يرى آباءهم غير مطهرين»[2].

ويقول **إميل درمنغم**: «كانت قريش تجادل محمدا على الدوام، ولكن بلهجة الساخر تقريبا، فكان بعضهم ينكرون خلود الروح، وبعضهم يقولون: إنها تعيش بعد

(١) إريك يونس جوفروا، المستقبل للإسلام الروحاني، ص٢١.

(٢) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٦٣.

خروجها من الجسم على شكل هامة، تنعق حائمة حول القبر مُخبرة الميت بحوادث الاحياء، مُطالبةً بالثأر إذا كان الميت قتيلا، وكانوا يذبحون أحيانا ناقة على القبر أو يُقَيِّدونها به لتموت جوعا فتكون مطية للميت في حياته المظلمة، ولكن قريشا، التي هذا أمرها، كانت تبتسم مرتابة عند ذكر محمد للبعث، ليوم الحساب، لساعة الفصل، فيلوح لها البعث وما إليه من الأمور التي هي من جوهر دعوته من المستحيل، فكان محمدٌ يجيب عن ذلك بأن عجائب الخلق معجزةٌ إعجاز البعث، وبأن البعث ليس أصعب من الخلق»[1].

ويعلق **ناصر الدين دينيه** على هذه المساجلات مع المشركين فيقول: «واعترف المشركون في دخيلة نفوسهم بصحة تلك الملاحظات، فكلهم قد أحسوا، في قليل أو كثير، أن قد غزا قلوبهم ذلك الكلام العجيب الصادر من أعماق قلب الرسول الملهم، وكلهم كثيرا ما كانوا على وشك الخضوع لتلك الألفاظ الأخاذة التي أَلْهَمَها إيمانٌ سماوي، ولم يمنعهم عن الإسلام إلا قوة حبهم لأعراض الدنيا، ولملذاتهم وميولهم التي حاربها الدين الجديد حربا شعواء»[2].

ومن الافتراءات العجيبة التي تشيع في بعض الكتابات الغربية أن النبي ﷺ إنما اجتذب الناس إليه بأنه أباح لهم الشهوات والملذات، لذلك نجد ناصر الدين دينيه يؤكد هنا أن الواقع كان عكس ذلك تماما، فمن أهم أسباب نفور العرب عن الإسلام، وعدم رغبتهم في الدخول فيه، هو أنه حرَّم عليهم الشهوات والملذات الحرام التي كانوا ينغمسون فيها في جاهليتهم، بينما هم آثروا ما اعتادوا عليه من الملذات والشهوات، عن الطهر والعفاف الذي جاء به الإسلام.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٠٥.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٢٤.

وتلك الحجة نفسها يكررها **هنري دي كاستري** الذي يقول: «من الموانع التي قوَّت في العرب استعصاءهم على الإسلام، ما اشتمل عليه من مبدأ قهر النفوس، وتذليلها للواحد المعبود، فالقول بالمساواة بين الناس طُرًّا أمامه، كان ثقيلا على آذان العرب، مخالفا لتقاليدهم الأولية، حتى يدينوا إليه بغير عناء»[1].

وبطبيعة الحال، فإن هذه المجادلات لم تتوقف عند حد النقاش الفكري، وإنما انتقلت إلى المحنة والتعذيب.

(١) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٦٣.

التعذيب والمحنة والهجرة إلى الحبشة

لما كان الإيمان يتبعه تكاليف وخضوع لله تبارك وتعالى، وتسليم تام من الإنسان لله تبارك وتعالى، رفضه القرشيون وحاربوه، ذلك لأن السلطة في قريش -وكذلك أي سلطة قائمة- كان لها أركانها وأفكارها وقواعدها التي قد أنشأتها لكي تحكم بها، وتستند إليها في حكمها وهو ما يسمى «الشرعية»، فالتسليم والخضوع لله، كان سيُفْقِد هذه السلطة الحاكمة في قريش السيادة على مكة، وبذلك تضيع مصالحهم ومكانتهم ونفوذهم التي بُنيت على هذه العقائد الباطلة، فكان الكفر بالرسالة التي جاء بها محمد هو خيارهم للحفاظ على ما في أيديهم.

إن النبي ﷺ إذ يقول «لا إله إلا الله»، فإنه يضرب الوثنية والشرك، ويحل محلها التوحيد، ليس ذلك فحسب، فالأمر ليس مجرد أفكار نظرية عقلية، وإنما يضرب كذلك النظام السياسي القائم في مكة، ويقوض أركانه، لقد كانت كلمة «لا إله إلا الله» في ذلك الوقت، تشبه في وقعها السياسي على أسماع أولئك الطغمة السياسية الحاكمة في قريش شعار: «الشعب يريد إسقاط النظام» في أذهان وأسماع الساسة المعاصرين، لأنه حين يحارب النبي الأوثان فإنه لا يحارب مجرد أحجار أو مجرد أفكار، وإنما يحارب نظاما سياسيا واقتصاديا واجتماعيا بني على وجود هذه الأصنام، ولهذا حاربه المكيون تلك الحرب الشعواء، وصبوا عليه وعلى أهله أتباعه ألوان العذاب وصنوف التنكيل.

يتحدث **ألفونسو دي لامارتين** عن أن محاولات القرشيين لصد الناس عن الإسلام، وتحذير الحجاج من سماع كلام النبي ﷺ، ساهمت في الحقيقة في توسع الإسلام، وزيادة انتشاره، وإقبال الناس للسماع من رسول الله ﷺ، يقول: «وفعلوا ما قالوا، غير أن ما اتخذوا من حيلة ليصرفوا الناس عن محمد وما جاء به انقلب انتصارا له وظفرا، كما يحدث ذلك دوما للنظريات الجديدة إذا كان فيها من الحقائق ما جُعِل ليتفتح في الفكر البشري، فالصيحة عليها لإرباكها وإفحامها تغدو وسيلة لنشرها بين الناس، والتشهير بها يكسبها إشعاعا وصيتا لولاهما لاختنق صوتها في الأرواح، وذاك ما حدث لمحمد، فقد رغب جميع الحجيج الذين أعلمهم أهل قريش بمحمد وبسبّه آلهتهم، في أن يروا وأن يسمعوا هذا الذي كان يثير تلك الضجة العظيمة»[1].

ويقرر جان بروان أن «الرسالة الإلهية ليس في مقدور البشر صدُّها أو القضاء عليها، فها أنت ترى أن ذوي قربى محمد كانوا من ألدّ أعدائه وأشدهم محاربة للدعوة وصدًّا لها، مما جعله يذكر تلك الكلمات التي قصّها عليه ورقة حين أعلنه بهذا المصير، ومع ذلك لم يستطيعوا القضاء على الدعوة وتعطيل الرسالة»[2].

وهو يقصد بقوله: (ذوي قربى محمد) هنا، عمه أبا لهب، فقد كان من أشد الناس مهاجمة له وعدوانا عليه، وقد أنزل الله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾[المسد: ١]، وربما يقصد الأقارب الذين هم قريش، فهم جميعا قرابة النبي. وتحققت بهذه العداوة ما قاله ورقة بن نوفل في بداية الدعوة للنبي ﷺ: «يا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ فَقَالَ ورَقَةُ: نَعَمْ؛ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ما جِئْتَ به إلَّا عُودِيَ»[3]، ومن اللطائف في هذه الحادثة أن ورقة بن نوفل كان يعرف مستقبل

---

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٥٠.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٢٩.

(٣) في صحيح البخاري من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

النبي قبل أن يعرفه النبي نفسه! وذلك لما كان عنده من علم بكتب أهل الكتاب، والتي كان فيها كثير من التفاصيل التي لم يكن يعرفها النبي ﷺ.

يتحدث **ناصر الدين دينيه** عن أن هؤلاء المشركين لم تنفع معهم المعجزات، وأن هذا أمر مطرد في تاريخ البشر، وهو أن الفكرة إذا تمكنت من قلب أحد، لم تنفع معه المعجزات لتصرفه عن تلك الفكرة، فلذلك يضرب مثلا تشبيها فيقول: «ما أقل تأثير المعجزات فيما مضى من التاريخ: لقد عبد بنو إسرائيل العجل بعد أن أنقذهم موسى بمعجزته من لجة البحر ومن طغيان فرعون، وما كان أهل مكة ليتأثروا بالمعجزة أكثر من غيرهم من بني البشر»(١).

وكان من نتيجة هذا العدوان والطغيان، ما أشار إليه **إميل درمنغم** بقوله: «لم يجرؤ المسلمون على الصلاة في الكعبة ببطن مكة، فكانوا يجتمعون في التلال المجاورة، على الحجارة السُّمر الخشنة وعلى الأرض الكلسية، وكان أولئك القوم يُفْسدون عليهم اجتماعاتهم في الغالب بأن يفرقوهم بالحجارة، فبينا المشركون على تلك الحال ذات يوم إذ شَجُّوا المسلم سعد بن أبي وقاص، فضرب سعدٌ رجلا من المشركين بِلَحْي بعير فشجّه، فكانت هذه أول مضاربة في الإسلام»(٢).

وهذه الواقعة التاريخية مشهورة في كتب السيرة، وفيها أن أول من ضرب في سبيل الله هو سيدنا سعد بن أبي وقاص، وذلك حين تعرض لهم المشركون وهم يصلون في أحد شعاب مكة فضربوا المسلمين، فضرب سعدٌ رجلا من المشركين بِلَحْي بعير فَشَجَّه، ولكن القصد هنا أن المسلمين لم يكونوا يستطيعون أن يجاهروا بصلاتهم فكانوا يتخفون في بعض الشعاب أو في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه.

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٣٥.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٩٥.

يقول **ريجيس بلاشير** المستشرق المتخصص في الأدب العربي: «كان مشركو مكة في هذه الحالة، كما في سواها، يرون أو لا يريدون أن يروا في رسول الله سوى رجل له علاقة بالجن، مما يقطع صلة الرسالة المنزلة بالذات الإلهية»[1]. وهذا من أشهر تشغيبات المشركين على النبي ﷺ ورسالته، مسألة أن له علاقة بالجن.

ولكن.. لماذا واجه النبي ﷺ كل هذا التشويه؟ ولماذا لم تنفع المعجزات؟! ولماذا لقي هو وأصحابه كل هذا العنت؟!.. لماذا رفضت قريش هذا الإسلام؟!

يقول **جاك ريسلر**، صاحب كتاب «الحضارة العربية»: «إلا أن النبي كان يعيش وسط أمة تاجرة، كان دخلها الأساسي يتكون من الصدقات المدفوعة في سياق زيارة الأوثان في الكعبة، وكان أولئك الذين يحتلون المكانة الأولى بفعل الثروة أو المرتبة، قد سارعوا إلى اعتباره بمثابة منافس خطير من المستحسن البدء بمكافحته، لم يتجرؤوا بادئ الأمر على مهاجمته شخصيا، خوفا من النزاعات الدامية، لأن أفراد عشيرته، حتى المعادين لدعوته، كان يتوجب عليهم الدفاع عنه وفقا للأعراف والتقاليد القديمة، لكنهم لم يتوانوا عن التنكيل بأتباعه»[2].

يشير هنا إلى ما طال أتباع النبي ﷺ من الضعفاء الذين لم يكن لهم ظهير يحميهم من بطش المشركين وأذاهم.

ويقول **كلود إتيان سافاري**: «شدد محمد حملته على الوثنية، وأثبت بطلان عبادة الأوثان، وضلال من يعبدونها، وكانت خطبه تحمل لمحات من النور الساطع، فتبدد الظلمات الكثيفة التي كان الشعب يرزح تحتها، وانزعجت قريش من ذلك، وخشيت أن ترى زوال الدين الذي كانت تحميه، وبدا لها أن النفوذ الذي تتمتع به في ظل الأوثان بدأ

(١) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٥٢.

(٢) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص٣٥، ٣٦.

يتزلزل، فاجتمعوا للقضاء على الذي يقوض بنيانه»[1].

ويقول **ناصر الدين دينيه**: «ولكنه حينما تعرض، بدوره، يهزأ بأصنامهم التي صنعت من خشب أو من حجر، والتي لا تسمع ولا تبصر ولا تنطق ولا تغني عن أحد شيئا، بلغ بهم الغضب منتهاه، ذلك أن محمدا -بفعله هذا- لم يكن يحرجهم في معتقداتهم فحسب، وإنما كان يؤذيهم في مصالحهم المادية إيذاء خطيرا، إذ أن تلك الأصنام كانت في يد الأشراف مصدر ربح عظيم، وكانت أداة فعالة في السيطرة على الشعب الجاهل»[2].

إذن، تلك هي الأسباب الحقيقية التي لأجلها رفض القرشيون دعوة الإسلام، هي ذاتها التي يرفض لأجلها أي طاغية متجبر أيَّ دعوة إلى العدالة والحرية والكرامة، ذلك أنها تؤثر على مكانته ومصالحه ونفوذه، وتجرئ عليه الناس، أولئك الذين لا يراهم هو إلا عبيدا وأتباعا وهملا ورعاعا لا قيمة لهم، ولا يؤبه لقولهم، في حين أنه يكنز الثروات ويراكم الأموال، من نهبه لأرزاقهم وسرقته لأقواتهم، وتسلطه على رقابهم.

يقول **ألفونسو دي لامارتين**: «كانت مهاجمة أوثان الكعبة تعني مهاجمة مكة، مركز الحج عند عرب الجزيرة جميعا، ومهاجمة القرشيين، بني قومه، خير القبائل، لحوزتهم الكعبة المعبد المشترك يفتحونه ويغلقونه، كما تعني مهاجمة التجارة وامتيازاتها، ومهاجمة الثروة العامة التي لم تكن تغتذي إلا بذلك الموسم السنوي الذي كانت تساهم فيه كامل الجزيرة العربية عند زيارة الكعبة»[3].

فهنا نرى كيف أن إيثار الدنيا المتمثلة في المصالح الاقتصادية الخاصة لنخبة الحكم والاقتصاد في مكة، كان هو -في اغلب الأحيان- ما يحملهم إلى رفض الحق، وإن كثيرا من الناس في هذه الحياة الدنيا إذا عرض عليهم، أو وضعوا في اختيار بين المبدأ الذي

---

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٧٩.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٢٢.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٤٤.

يحملونه وبين المصلحة المادية الدنيوية التي تتحقق لهم، فإن كثيرا منهم يسقط في هذا الاختبار، إلا من عصم اللهُ سبحانه وتعالى، ونسأل الله السلامة والعافية، ونبرأ إليه من حولنا وقتنا.

ولذلك فقد اجتهد أهل مكة في التشغيب على دعوة النبي ﷺ، ومن صور ذلك ما ذكره **إميل درمنغم**، يقول: «كانت قريش تحاول أن تفسد على محمد دعوته بالاستهزاء، فإذا ما وعظ خنقوا صوته بالمكاء والتصدية، وإذا مرَّ من طريق تهاتفوا وأغروا به صبيانهم وسفهاءهم»[1].

والمكاء والتصدية بمعنى التصفيق والتصفير، يعني التشويش، والتشغيب، فهذه إحدى وسائل صرف قريش الناس عن نبينا ﷺ.

ويتحدث **جان بروا** عن ألوان أخرى من التشغيب والافتراء على رسول الله ﷺ ودعوته قائلا: «والرسالة أبدا نضال وحرب، وأخذ ورد، وأوار يشتعل من دونه أوار، ولظى من الأحقاد يلتهب في الصدور ويوغر في النفوس، إنهم يشهرون به في كل ناد، وينسبونه مرة إلى الشعر، وطورا إلى الجنون، وحينا إلى الكهانة، ولم يكفكفوا من بذاءتهم ولم يتورعوا أن يصموه في كل مكان، وأن يلحقوا به الأذى يترصدوا له في الطرقات. وأشد ما كان يدهشهم ويأخذ بمجامع قلوبهم أنه على كثرة آذاهم ونقمتهم يرونه ماضيا في دعوته مثابرا عليها ثابتا ثبوت الجبال»[2].

في هذا الثبات وهذه التضحية يقول **ناصر الدين دينيه**: «وأخذت الجمهرة العظمى من أهل مكة -خائفة من هؤلاء المتعصبين الطغاة أو متحمسة بهم- يصدون عن الرسول، أو يفرون منه، وأصبح الأطفال والرجال الذين لا ضمائر عندهم، يلاحقونه في الشوارع

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٩٥.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٢٩.

بسخريتهم، ولكنه تحمل الأذى صابرا غير مبال، وماذا يضيره من السخرية؟ إنها دخان في الهواء»[1].

لكن، قد يثور سؤال هنا وهو: لماذا لم تقدم قريش على قتل النبي ﷺ وإنهاء هذا الأمر؟

والجواب: أن ذلك لكون النبي ﷺ من قبيلة بني هاشم، والعادات والقوانين القبلية المسيطرة على قريش في ذلك الوقت تجعل النبي ﷺ محميا بقبيلته، وموفورا بهذه العصبية التي كان يتزعم حمايته تحتها عمه أبو طالب، وكان هو زعيم بني هاشم، فلذلك لم يستطيعوا أن ينالوا من النبي بنفسه إلا أذى قليلا بالنسبة لما فعلوه بأتباعه الضعفاء.

يقول **ألفونسو دي لامارتين**: «غير أن العرب كانوا يعرفون كم رجلا يُقتل برجل، إن هذا القانون، قانون الدم بالدم، هو الذي كان فيما يبدو أصل نجاة محمد لزمن طويل من موت كان يطوف دوما فوق رأسه، غير أن ذلك القانون لم يكن ليحميه من ضروب سوء المعاملة التي كانت تسلط عليه، وقد جعلت تلك الإساءة إليه من حياته في موطنه محنةً طويلةً»[2].

وإذا لم يستطع كفار قريش النيل من رسول الله ﷺ، فإن ذلك لم يمنعهم من النيل من أتباعه بالتعذيب والتنكيل، وصولا إلى القتل، خاصة من أولئك الضعفاء ومن لا نصير لهم، وفي ذلك يقول **ناصر الدين دينيه**: «وإذا كان هؤلاء السادة لم يمكنهم أن ينالوا ممن اعتنق الإسلام من غير الأرقاء فإنهم صبوا جام غيظهم على من دخل في الإسلام ممن ملكت أيديهم، هل أتاك حديث أمية بن خلف، وقد علم بإسلام عبده بلال بن حمامة، فلم

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٢٦.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٥٢.

يكن له من همٍّ إلا التفنن المخجل في إذاقته العذاب ألوانا»[1].

يقول **دينيه** أيضا: «كانت سمية الشهيدة الأولى في الإسلام، وبلغت من الثبات والصبر مبلغا لم يصل إلى مثله بعض المسلمين الآخرين الذين أضعفهم الحرمان والعذاب، واشتد بهم الضعف حتى وصل بهم إلى العجز عن القيام؛ فندّت عن شفاههم -لا عن قلوبهم- ألفاظ الردة التي أنقذتهم مما هم فيه»[2].

يواصل **دينيه** أيضا فيقول: «امتلأت نفس الرسول حزنـًا، أمام هذه المآسي التي كان يتحملها ضعاف المسلمين الذين لا يجدون من يحميهم، حقـًا إن شجاعة المعذبين والشهداء في سبيل الله برهنت على إسلامهم العميق، ولكنه رأى أن من الخير ألا يستمر هذا البلاء، فنصح الضعفاء ومن لم تدعهم الضرورة إلى البقاء في مكة بالهجرة إلى الحبشة حيث المسيحيون، وحيث التسامح والعدل اللذان اشتهر بهما ملكها النجاشي»[3].

ولذلك خرج المسلمون في هجرتين مشهورتين إلى الحبشة، وكان ذلك محاولة من النبي ﷺ لإنقاذ ضعفاء المسلمين من هذا العذاب، كما أنه كان أيضا محاولة لاستبقاء بعض المسلمين خارج سلطة قريش، لأنه قد خرج مع المهاجرين إلى الحبشة من لم يكن متعرضا للعذاب.

استمرت المدافعة، وتوالت الأحداث، ودخل في الإسلام رجال عظماء، استطاعوا إحداث تغيير في موازين الصراع، كذلك صَعَّدَت مكة في أدوات حربها ضد المسلمين!

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٤٣.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٤٤.

(٣) دينيه: محمد رسول الله، ص١٤٥.

إسلام حمزة وعمر والحصار الطويل

بعد أن هاجرت مجموعة من المسلمين إلى الحبشة، إلى حيث النجاشي، الملك العادل الذي لا يُظلم عنده أحد، تطورت الأحداث في مكة بصورة غير متوقعة! ففي عام واحدٍ أسلم رجلان كبيران مثَّلا قفزة قوية لأوضاع المسلمين في مكة، وهما: حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب.

أسلم كلا الرجلين في العام السادس من البعثة، وكان إسلامهما فتحا كبيرا للإسلام، وفرجا واسعا على المسلمين، وإن حجم التغيير الذي وقع في حال الدعوة بعد إسلامهم، ليُظهر لنا كيف أن إسلام رجل واحد قد صَحَّت رجولته، ذي قدر ومكانة وهمة، يستطيع أن يغير موازين المعركة بين الحق والباطل!

بدأ الأمر بإسلام حمزة، وقصة ذلك أنَّ أبا جَهلٍ مرَّ برسولِ الله ﷺ يومًا عند الصَّفا، فآذاه ونال منه، ورسولُ الله ﷺ ساكِتٌ لا يُكلِّمُه، ثم ضَرَبه أبو جَهلٍ بحَجَرٍ في رأسِه فشَجَّه حتى نَزَف منه الدَّمُ، ثم انصَرَف عنه إلى نادي قُرَيشٍ عند الكعبةِ فجَلَس معهم، وكانت مولاةٌ لعَبدِ الله بنِ جُدعانَ في مَسكَنٍ لها على الصَّفا ترى ذلك، وأقبل حَمزةُ من القَنْصِ مُتَوَشِّحًا قَوسَه، فأخبَرَتْه المَولاةُ بما رأتْ من أبي جَهلٍ، فغَضِب حَمزةُ وخرَج يسعى، لم يقِفْ لأحدٍ، مُعِدًّا لأبي جهلٍ إذا لَقيَه أن يوقِعَ به، فلمَّا دَخَل المسجِدَ قام على رأسِه وقال

له: «يا مُصَفِّرَ اسْتِهِ، تَشتُمُ ابنَ أخي وأنا على دِينِه!»، ثم ضَرَبه بالقَوسِ فشَجَّه شجَّةً مُنكرةً، فثار رجالٌ من بني مخزومٍ -حيِّ أبي جهلٍ- وثار بنو هاشمٍ -حيِّ حمزةَ- فقال أبو جهلٍ: «دَعوا أبا عِمارةَ، فإنِّي سَبَبتُ ابنَ أخيه سبًّا قبيحًا».

إذن، فقد كانت الحمية القبلية العصبية هي مدخل سيدنا حمزة إلى الإسلام، فهو لم يكن مسلما حين ضرب أبا جهل، وإنما فعل ذلك انتقاما منه لابن أخيه محمد ﷺ.

يقول **إميل درمنغم**: «صنع الغضب في قلب حمزة ما لم يقدر عليه العقل والإقناع، وذهب حمزة إلى النبي ليخبره بإسلامه، فصار حمزة بعد ذلك أصلب أبطال الإسلام عودا»[1].

إن دخول سيدنا حمزة الإسلام على هذا النحو، من باب الحمية والعصبية، ينبئنا أنه ليست كل المداخل إلى الدين هي مداخل عقلية، وإنما قد تكون أيضا مداخل عاطفية، وهذا متكرر كثيرا في كلام أئمتنا من العلماء المتقدمين، حتى نجد بعضهم يقول: «طلبنا العلم للدنيا (يعني طلب العلم ليكون قاضي أو ليكون ذو مكانة مرموقة) فأبى الله إلا أن يكون لله»[2]، فمداخل النفوس مختلفة، وما يصلح ما نفس ليس بالضرورة أن يصلح مع أخرى، وما تزال النفس البشرية نفسا غير محصورة، لا يستطيع أن يحيط بها العلم، ولا أن تندرج في الحسابات الرياضية، فسبحان الذي خلق وبرأ وسوى.

نعود إلى حمزة رصي الله عنه، الذي كان إسلامه إضافة كبرى من بني هاشم، لأنه أعَزُّ من أسلم في بني هاشم، لأن الأمر كان مقتصرا في بني هاشم على النبي ﷺ وبعض أتباع ضعفاء، لكن حمزة كان يعتبر الرجل الثاني في بني هاشم بعد أبي طالب من حيث الأهمية والمكانة.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١١٨.

(٢) قال سفيان الثوري رحمه الله: «تعلمنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله»، وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله: «طلبنا العلم للدنيا، فدلنا على ترك الدنيا». أدب الدين والدنيا (١٣٨).

يقول **كلود إتيان سافاري**: «كان إسلام حمزة انتصارا عظيما لمحمد، فقد جدَّدَ أملَ أتباعِه، وخفض رأس قريش، ولم تجسر على أن تظهر حقدها علنا –بعض الوقت»[1].

وما إن أسلم حمزة حتى حصل موقف آخر جاء بعمر ابن الخطاب، وذلك أن عمر أراد أن يقوم بما نسميه الآن «عملية انتحارية»، وهي أن يذهب فيقتل النبي ﷺ، ثم يقتله بنو هاشم، فيكون رجلا برجل لكي ينهي هذه الفتنة التي تتطور في قريش، فخرج متوشحًا سيفه يريد القضاء على النبي ﷺ، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام العدوي، أو رجل من بني زهرة

فقال: أين تعمد يا عمر؟

قال: أريد أن أقتل محمدًا،

قال: كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمدًا؟

فقال له عمر: ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه!

قال: أفلا أدلك على العجب يا عمر! إن أختك وخَتَنَكَ[2] قد صبوا، وتركا دينك الذي أنت عليه!

وهنا نرى كأن هذا المسلم أراد أن يضحي بفاطمة بنت الخطاب وزوجها لإنقاذ النبي ﷺ، وهنا اشتعل عمر غضبا وغيظا، وتحوَّل إلى بيت أخته، وكان فيه في تلك اللحظة: فاطمة وزوجها سعيد بن زيد، ومعهما خباب بن الأرت، ومعه صحيفة فيها آيات من القرآن الكريم من سورة طه، وكان خبابٌ يتولى تعليم فاطمة وزوجها القرآن الكريم. وبينما هم كذلك إذ طرق عمر على الباب!

---

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٨٢.

(٢) **ختن الرجل**: زوج كل امرأة ذات رحم محرم منه، وكان ختن عمر، زوج فاطمة أخته هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، صحابي جليل من العشرة المبشرين بالجنة.

تقول الرواية:

فلما سمع خبابٌ حِسَّ عمر توارى في البيت، وسَتَرَت فاطمة الصحيفة، وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما

قال: ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟

فقالا: ما عدا حديثًا تحدثناه بيننا

قال: فلعلكما قد صبوتما

فقال له ختنه: يا عمر، أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟

فوثب عمر على ختنه فوطئه وطأ شديدًا، فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفحها نفحة بيده، فدمى وجهها، وفي رواية: أنه ضربها فشجَّها

فقالت، وهي غضبى: يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله!

فلما يئس عمر، ورأي ما بأخته من الدم ندم واستحيا، وقال: أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه

فقالت أخته: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل

ثم أخذ الكتاب، فقرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾[الفاتحة: ١] فقال: أسماء طيبة طاهرة. ثم قرأ »طه«] حتى انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ۝١٤﴾[طه: ١٤] فقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه؟ دلوني على محمد

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ لك ليلة الخميس: «اللّهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام».

فذهب عمر إلى النبي ﷺ، وأسلم!

وإذن، فقد كانت اللحظة التي سمع فيها عمر القرآن، ورق له قلبه، هي لحظة التحول في حياته، فقد دخل فيها الإسلام قلبه، وتحول عمر في هذه اللحظة إلى إنسان جديد، يخضع للقرآن، وينصر رسوله ﷺ، بعد أن كان من أشد من يضطهدون المسلمين في مكة، حيث كان يعذب الذين أسلموا من قومه بني عدي حتى يمل ويتعب، فيقول لهم: لا أترككم إلا مللا وسآمة!

وعن إسلام عمر يقول **بلاشير** المستشرق الفرنسي المتخصص في الأدب العربي: «كانت تلك التلاوة إشعاعا من نور الإيمان نفذ إلى قلبه، فقد بهره جمال الآيات التي سمعها فاستعادها كلها متأثرا بها إلى حد البكاء، وليس مستحيلا أن يشعر أشخاص آخرون من حاشية محمد عليه الصلاة والسلام بذلك الجمال العنيف المصحوب عندهم، هذه المرة، بطائفة من معان أخرى ذات منحى ديني»[1].

ويتأمل **جان بروا** في هذا الموقف فيقول كلمة جميلة: «إن عمر على شدة بطشه وهوله وقوته وجبروته ليبدو ضئيلا جدا أمام قوة الإيمان، الإيمان الذي دفع هذَيْن الضعيفين إلى الثبات وجعلهما يصرخان في وجهه ويقولان: أجل! أسلمنا والحمد لله، هذا الإيمان الذي جعل عمر القوي الشديد يتخاذل مستضعفا ويسكن سكوت البركان بعد ثورته والإعصار بعد شدته، يسكن قائلا: أين هذه الصحيفة التي كنتم تقرؤون»[2].

وعن تأثير إسلام حمزة على الأوضاع في مكة، يقول **ناصر الدين دينيه**: «كان رسول الله وحده هو الذي يجرؤ على الصلاة في الكعبة علنا، فلما أسلم عمر، عزم على محاكاته في ذلك، فكان يذهب كل يوم إلى الكعبة ويقف كما كان يقف رسول الله، بين الركن الذي

(١) بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ٢/ ٥٣.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٣٤.

به الحجر الأسود، والركن الذي يتجه نحو اليمن، وكان يصلي متجها نحو بيت المقدس، مثل الرسول، شجع ذلك كثيرا من المسلمين فجاؤوا يصلون بجواره تحت سمع المشركين وبصرهم، وحالت هيبة عمر، الذي استحق بجدارة لقب الفاروق، دون البطش بهم»[1].

ويقول الشاعر والأديب والدبلوماسي **ألفونسو دي لامارتين**: «كانت رهبة سيفه (أي عمر) ترعب الوثنيين، ولم يلبث أن جاء المؤمنون إلى الكعبة يصلون وراءه، فكانت بذلك ديانتان تتنافسان على الحرم نفسه، وكانت عقيدة الله الواحد تواجه الأوثان»[2].

وهذه الكلمة كأنها مستقاة من قول عمر نفسه، فقد وقع تضارب بينه وبين المشركين، فكان يقول: «أحلف بالله، أن لو كنا ٣٠٠ رجل فلقد تركناها لكم أو قد تركتموها لنا»، يعني لو بلغ المسلمون ٣٠٠ رجل، فإما يسود الإسلام ويظهر في مكة حينها، وإما سيترك المسلمون مكة ويسود فيها الشرك. أو بلفظ آخر: لن تتحمل مكة ساعتها صراع القوتين، ولابد أن تخرج إحداهما من مكة نتيجة هذا الصراع.

مع هذا التغير في موازيين القوة لصالح المسلمين، بدأت قريش في البحث عن وسائل جديدة لمحاربة الإسلام، والتضييق على المسلمين، فطُرحت فكرة اغتيال النبي ﷺ، ولكن الفكرة تسربت حتى علم بها بنو هاشم فسارع أبو طالب لجمع بني هاشم في شِعْب أبي طالب وتنظيم حماية دائمة لمحمد ﷺ، فذهبت قريش إلى فكرة المقاطعة العامة والحصار لبني هاشم وهم في شِعبهم. ويمكن القول بأنها كانت أقوى وأقسى وأشد ما صنعته قريش في حرب المسلمين، فقبل صحيفة المقاطعة، كانت قريش تحاول أن تحافظ على حالة السلم الأهلي الداخلي، وبأن لا تنشب بين القبائل حروب أو قطيعة، لكن بعد إسلام حمزة وعمر عزَّ الإسلام، واستقوى المستضعفون من المسلمين، ونشأ جو عام من

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٥٠.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٦٢.

الإقبال على الإسلام، فكان إسلامهما فتحا، فلذلك قررت قريش إعلان المقاطعة العامة لبني هاشم، المقاطعة العامة بمعنى ألا يبيعوا لهم ولا يشتروا منهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم، وأصدرت قريش هذه الصحيفة وعلَّقتها في الكعبة!

ظل هذا الحصار القاسي ثلاث سنوات، فكان أشد ما مر على المسلمين، وعلى من لم يسلم من بني هاشم ممن تعصب لمحمد ﷺ وبقي معه في الشعب، لم يخرج من هذا الحلف إلا أبو لهب، حيث تنكر لأهله من بني هاشم، وبقي مع قريش.

كان حصار الشعب محنة شديدة على المحاصرين، حتى أنهم أكلوا أوراق الشجر، وكان أحدهم -كما تصف الروايات- يُخرِج مثل البعر -يعني مثل فضلات الإبل، لأنه كانوا يتغذون على الأعشاب وعلى أوراق الشجر- فكانت محنة طويلة شديدة استمرت من العام السابع إلى العام العاشر من البعثة.

يقول **كلود إتيان سافاري**: «كان انشقاق عمر -وهو من أشرف نبلاء قريش- نذيرا بقرب انهيار دينها، فاتخذت إجراءات عنيفة للحيلولة دون هذا الانهيار، وأصبح الاضطهاد والأذى عامًّا»[1].

ويقول **ناصر الدين دينيه**: «رغم كثرة الوثنيين من قريش، فإنهم اضطروا إلى الاعتراف بأن حالة حزبهم حرجة، وأنهم إن لم يقوموا بعمل حاسم تجاه تلك الحركة المستمرة الجارفة التي يتبعها كل يوم أنصار جدد، فقد قضي على سيادتهم بين العرب، فاجتمعوا وتناقشوا، ثم تعاهدوا على قطع كل علاقة تربطهم ببني هاشم وبني المطلب، وإخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب، حتى يسلموا إليهم محمدا، ولأجل قطع الطريق أمام كل من تسول له نفسه الإخلال بهذا العهد، كتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة»[2].

---

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٨٤.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٥٠.

ويقول **كلود إتيان سافاري**: «لم يخفف هذا الإخفاق [في استرداد المهاجرين إلى الحبشة] من حقد قريش، ولما لم تتمكن من القضاء على محمد في الخفاء –وهو الذي يحوطه جمع من المتحمسين الذين يسهرون على حياته–، فقد أعلنت مقاطعة جميع بني هاشم، وصدر الإعلان باسم جميع القبائل، فحُرِّم الزواج منهم، كما حُرّم التعامل بينهم وبين سائر العرب، وأصبحت المقاطعة عامة ومستمرة»[1].

وهو يشير هنا إلى إخفاق المشركين في استرداد المهاجرين من الحبشة، فكما هو معروف أن قريش أرسلت سفارة محملة بالهدايا للنجاشي، يطلبون منه أن يسلمه من لجأ إليه من المسلمين الفارين من مكة، ولكن النجاشي رفض أن يسلمهم المسلمين، وبذلك حُميت مجموعة من المسلمين، كانت بمثابة الاحتياطي الاستراتيجي لأمة الإسلام الناشئة.

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٨٦.

عام الحزن ورحلة الطائف والإسراء والمعراج

بدأ فك الحصار عن المسلمين بتحرك بعض القيادات في المجتمع القرشي لنقض صحيفة المقاطعة، بدأ ذلك بحركة من هشام بن عمرو بن الحارث، فأخذ يجمع من لا يرضى بهذه المقاطعة ويحرضهم على نقضها، فاستجاب له أربعة بينهم وبين النبي نوع قرابة ونسب:

زهير بن أبي أمية (وهو ابن عاتكة: عمة النبي ﷺ)

والمطعم بن عدي (وهو ابن نوفل بن عبد مناف، أي من عمومة بني هاشم)

وأبو البختري بن هشام وزمعة بن الأسود (وكلاهما من بني أسد، وهي قبيلة خديجة زوج النبي ﷺ).

فاتفقوا على نقض الصحيفة، وذات يوم قام زهير بن أبي أمية فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونَلْبَسُ الثياب وبنو هاشم والمطلب هَلْكى لا يبيعون ولا يبتاعون؟ والله لا أقعد حتى تُشَق هذه الصحيفة الظالمة القاطعة

فقال أبو جهل: كذبتَ، والله لا تشق!

فقال زَمْعة لأبي جهل: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كتبت

فقال أبو البختري: صدق زمعة

وقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك

وصدّق على ما قيل هشام بن عمرو

فأسقط بيد أبي جهل، فقال: هذا أمرٌ دُبِّر بليل، وتُشُوور فيه بغير هذا المكان!

ولكنه قدَّر أنه يواجه الآن حالة عامة، فلم يستطع أن يمنع نقض الصحيفة، فقام إليها المطعم بن عدي فشقّها، وكانت الأَرَضة قد أكلتها فلم يبقَ فيها إلا ما فيه اسم الله، وقد أوحى الله إلى نبيه بشأن تآكل الصحيفة، فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام عمه أبا طالب بذلك قبل أن يطلع عليها المشركون ويجدوا فعلا أن الأرضة قد أكلت الصحيفة، وبذلك نقضت هذه الصحيفة الظالمة بعد ثلاث سنوات، وخرج الناس إلى مساكنهم بعد هذه المحنة الشديدة.

وبذلك خسرت قريش معركتها هذه أيضا أمام النبي ﷺ وأتباعه الصادقين، وبدا في هذه اللحظة أن الإسلام يستعيد نموه مرة أخرى، فلذلك بدأ المسلمون يشعرون ببعض القوة بعد انتهاء هذا الحصار، ولكن ماهي إلا أيام قليلة، حتى وقعت حادثتان أليمتان، وهاتان الحادثتان كانتا السبب في أن يسمى العام العاشر من البعثة بعام الحزن، وهاتان الحادثتان هما وفاة أبي طالب عم رسول الله، ووفاة السيدة خديجة زوج رسول الله رضي الله عنها. وكلاهما كان سندا عظيما للنبي ﷺ، فأما خديجة فهي سنده المعنوي الداخلي في بيته، وأما أبو طالب فقد كان سنده الخارجي في مكة، وهو سيد بني هاشم، ولم يكن في أعمام النبي بعد أبي طالب من هو مثله أو في مكانته، فتعطيه قريش هذه المهابة والاحترام والمكانة، فكانت وفاة هذين السنديْن في عام واحد، مما جعل هذا العام يسمى عام الحزن.

يقول **ناصر الدين دينيه**: «يبدو أن نمو الإسلام أصبح بعد ذلك مأمونا، غير أن حادثتين

جاءتا فجأة فعرقلتا ما كان في الحسبان، أما أولاهما فهي: موت أبي طالب حامس الرسول، الذي كان لا يمل ولا يسأم، وكان قد تجاوز الثمانين»[1].

ثم يواصل فيقول: «بعد هذه الكارثة الفادحة بأيام ثلاثة، أصيب الرسول بكارثة أخرى أدهى وأمر: ماتت خديجة وفقد الرسول رفيقته المثالية، التي وهبت نفسها له وهو فقير، وآمنت به في حين أعلن الآخرون أنه ساحر، والتي كان يسرّ إليها بآماله وأمانيه فتشجعه، والتي واسته في رفق ومودة في ساعات الشدة»[2].

ويحاول **جان بروا** أن يلتقط الحكمة من وفاة خديجة فيقول: «كانت الأقدار ترعى النبي وتحيطه ببسالة عمه وحنان خديجة، ولعل الله أراد أن يثبت للملأ أن الرعاية إنما هي رعايته، وأن الحفظ إنما هو حفظه، وما أبو طالب وما خديجة إلا من الأسباب الإلهية التي جعلها الله وقاية لنبيه»[3].

إن هذا التعليق أشبه بأن يكون تعليق رجل مسلم يؤمن بأقدار الله تبارك وتعالى، وما أبعده أن يكون تعليق رجل مادي، لذلك، ففي الحقيقة هو تعليق يلفت النظر من بين أقوال المستشرقين!

ويقول **إميل درمنغم**: «وفَقَدَ محمدٌ بوفاة خديجة، تلك التي كانت أول من علمت أمره، تلك التي لم تكفّ عن إلقاء السكينة إلى قلبه، وتلك التي كانت تشمله بحب الأزواج وحنو الأمهات، تلك التي طلب منه جبريل ذات مرة أن يبلّغها قوله «بشّر خديجة ببيت في الجنة من قصب»، تلك التي بلغت الستين من عمرها فلم يفكر في الزواج بغيرها ما دامت حية، بل بقي آية في الوفاء لها»[4].

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٥٣.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٥٣.

(٣) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٣٧.

(٤) درمنغم، حياة محمد، ص١٤٨.

لقد استطاعت قريش أن تنال من النبي ﷺ بعد وفاة عمه، وطاله من الأذى ما لم يكن يقع عليه من قبل، وبدا الأمر وكأن مكة قد انسد الطريق أمام هدايتها، ومع هذه المحنة فكر النبي ﷺ في أن ينقل دعوته إلى مكان آخر، فوقع اختياره على الطائف!

والطائف تشبه أن تكون العاصمة الثانية لبلاد العرب بعد مكة، وهي كانت أشبه بالمصيف، فقد كانت مكانًا جميل الهواء، كثير الحدائق، وكان بين القرشيين وبين أهل الطائف نسب وصلات، وكان لهم أملاك وحدائق في الطائفة، وبسبب أهمية الطائف بعد مكة، فقد حاول النبي ﷺ أن يبدأ مرحلة جديدة في دعوته، بدعوة أهل الطائف إلى الإسلام.

يقول **جان بروا**: «اعتقدت قريش بعد موت أبي طالب وخديجة أن في مقدورها أن تنال مأربها من النبي وأن تقضي عليه وعلى دعوته وأن تبدد أنصاره ورجاله، واعتقدت أن محمدا بعد نكبته بموت أبي طالب وخديجة يخلد إلى السكينة ولا يأتي بحركة ضدهم، خاب ظنهم، ها هو يواصل جهاده ونضاله، وها هو يغادر مكة إلى الطائف»[1].

في شوال من العام العاشر من البعثة، خرج النبي ﷺ إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلا، سارها ماشيا على قدميه، ومعه مولاه زيد بن حارثة، فلما انتهى إلى الطائف عمد إلى ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرة الإسلام

فقال أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة (أي يمزقها)، إن كان الله أرسلك

وقال الآخر: أما وجد الله أحدا غيرك

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبدا، إن كنت رسولا لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك.

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٣٨.

فقام عنهم رسول الله ﷺ، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»، إلا أنهم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم وأطفالهم، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له صفين، وجعلوا يسبونه، ويرمونه بالحجارة، حتى أدموا قدميه، وكان معه زيد بن حارثة، وكان يقيه بنفسه، حتى أصابه شج في رأسه، وظلوا بهما حتى احتمى رسول الله ﷺ بحائط لقريش في الطائف.

يقول **جاك ريسلر**: «ولكنه على الرغم من الاضطهاد المتواصل والشديد، وعلى الرغم من فقدانه زوجته، سنده الأول والوفي، وعلى الرغم من وفاة أبي طالب، عمه الذي كان حاميه أيضا، لم يكلّ ولم يتراجع، بل مضى مبشرا بالدين الجديد على امتداد البلد العربي، كان كل يوم يجلب معه مؤمنين جددا، مقتنعين أشد الاقتناع بكلام النبي البليغ، لكن الوضع كان يزداد صعوبة أكثر فأكثر، هاجر إلى الطائف، وهي مدينة تهاب ارستقراطية مكة وتحرص على عدم إغضابها، فطُرد منها بالحجارة»[1].

بعد ما جرى في الطائف، اضطر النبي ﷺ إلى أن يعود إلى مكة مرة أخرى، ولكنه خاف على نفسه من أهلها، فحاول ﷺ أن يتخذ جوارا، أي أن يدخل في حماية أحدٍ من سادة مكة عند دخوله إليها!

يقول **ألفونسو دي لامارتين**: «لم يجرؤ على الدخول إلى مكة أيضا، حتى يستجير ببعض أعيانها، ليُبقي على حياته، فمكث ينتظر بحراء طويلا دون أن يُجاب إلى جوار أحد منهم، إن في ذلك ما يجعلنا نقدر وطأة الألم الذي ينوء به –رغما عنه– كل من جاء بفكرة حقٍّ عليه أن يبلغها إلى الناس، وإن قطرات العرق وقطرات الدموع وقطرات الدم لترسم آثار المبشر بوحدانية الله على ذلك الرمل، رمل جزيرة العرب وعلى الأرض بأكملها، وما من شك في أن الله لا يحب أن تكون حقيقته (أي: الإيمان به) هبة بلا ثمن، إنه يحب أن

(١) جاك ريسلر، الحضارة العربية، ص٣٦.

تكون أيضا جهادا وفتحا، وفي ذلك مجد الحقيقة وفضل الإنسان»[1].

ولكن رحمة الله عز وجل بنبيه لا حدود له، ولطفه به واسع، وتجلى ذلك في مواساة الله عز وجل لنبيه بأن أرسل له مجموعة من الجن سمعوا منه القرآن وأسلموا، كما جاء في سورة الأحقاف وفي سورة الجن، أنهم استمعوا إلى القرآن وأسلموا وبدأوا بالدعوة في صفوف الجن.

ثم كانت المواساة العظمى برحلة الإسراء والمعراج، تلك الرحلة الكبرى التي أسري فيها بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ومنه عرج به إلى السماء، ولقي فيها الأنبياء، واطلع على أشياء من ملكوت السموات، وأشياء من نعيم الجنة، وعذاب أهل النار، وشرع الله له فيها الصلوات الخمس، وعاد مرة أخرى إلى المسجد الأقصى، فصلى بالأنبياء إماما، ثم عاد إلى مكة وفراشه لا يزال دافئا. وقد حاول النبي ﷺ أن يجعل من هذه المعجزة التي أكرمه الله بها، وسيلة جديدة لدعوة أهل مكة للإسلام من جديد.

يقول **ناصر الدين دينيه**: «رغم تصديق أبي بكر البالغ بالإسراء والمعراج، ورغم ما أحدثته الصلوات الخمس في نفوس المسلمين من حرارة وتحمس، فإن أثر قصة الإسراء والمعراج لم يفد الإسلام –من حيث انتشاره– إلا قليلا، بل لقد قدّم إلى أعدائه شبه انتصار مكَّنهم من أن يضاعفوا سخريتهم وتعذيبهم للمسلمين، أمام هذه الحالة ييأس عظماء الرجال، ولكن محمدا لا يعرف اليأس، وإنما يعرف أن الله القادر سوف لا يخذل قط رسوله الذي أوحي إليه»[2].

من المؤسف، أن المشركين من أهل مكة سخروا من الإسراء والمعراج وكذبوه، وذهبوا إلى أبي بكر يقولون له إن صاحبك يزعم أنه قد ذهب إلى بيت المقدس وصعد

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٦٤.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٦١.

إلى السماء وعاد في ليلة واحدة، فقال هم الصديق رضي الله عنه: «إن كان قال فقد صدق، إني لأصدقه في خبر السماء أفلا أصدقه في خبر الأرض»، وهذه هي الحادثة التي سمي فيها سيدنا أبو بكر باللقب الذي دام معه أبدا وصار علما عليه وهو لقب «الصديق»، ومع أن النبي ﷺ قد وصف لهم الطريق إلى بيت المقدس، وصف لهم بيت المقدس وهو لم يذهب إليه من قبل، ووصف لهم بعض أحداث الطريق، كعير ضلت وقافلة يوشك أن تأتي، ومع ذلك لم يصدقوه. ولا عجب في ذلك، فمن تمكن الفساد من قلبه، فما أقل ما تؤثر فيه المعجزات.

لكن ما يهمنا نحن المسلمين، أن رحلة الإسراء والمعراج كان فيها فرض أعظم شعيرة في الإسلام وهي الصلاة، والصلاة هي العبادة الوحيدة التي فرضت في السماء ولم تفرض في الأرض.

وفي معنى الصلاة يتحدث **ناصر الدين دينيه** بكلام جميل فيقول: «كتب الله الصلاة على عبيده، واقتضت حكمته أن تكون أنفع وأصح ما منحهم من خير، نعم، خمس صلوات في اليوم، تُمَكِّن بني البشر من الراحة التامة خمس مرات يوميا، فتحول بينهم وبين الانفعالات والعواطف المثيرة التي تؤدي تارة إلى المغالاة في الفرح، وذلك طريق يؤدي إلى الرذائل، وتارة إلى المغالاة في الحزن، وذلك طريقٌ يؤدي إلى جنون اليأس، خمس صلوات يوميا، بما لهن من مقدمات الطهارة، يلزمن الإنسان العمل على نظافة بدنه وصفاء روحه»[1].

وفي الحقيقة، فإن هذه الفقرة من الفقرات الجميلة التي وقع عليها المرء في فائدة الصلاة، فاليوم عند المسلم مقسم إلى ستة أقسام بينهما خمس صلوات، فمهما كان المسلم في حال من الانفعال؛ فرحا أو حزنا، فهذه الصلاة تأتي لتذكره بطبيعة الحياة

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص١٦٠.

وبطبيعة الكون، وبخالقه تبارك وتعالى، وبالأمور الروحية التي تمنعه من أن يندفع في حال فرحه إلى الرذائل، وتمنعه من أن يندفع في حال حزنه إلى الكآبة، فهذه الصلوات كأنما هي محطات تفريغ لهذه الطاقة، وتفريغ للأزمات التي جاءت بسبب الدنيا، كما أنها شحن للطاقة الروحية، والزاد الإيماني الذي يكتسبه المسلم من أدائها، شريطة أن يؤديها المسلم بحقها، ولا يتعامل معها باعتبارها حركات جامدة، أو فرض ثقيل على النفس.

إذن، فقد وصل النبي ﷺ إلى حالة من الانسداد الدعوي مع مشركي مكة، كما ووجه بهذه المواجهة العنيفة في الطائف، فماذا بقي أمام النبي ﷺ من وسائل ومسارات يتحرك فيها لنشر الإسلام، وإيصال هداية السماء إلى الناس؟

التمهيد للدولة الإسلامية

إذا تتبعنا جدول أعمال النبي ﷺ في الدعوة فسنرى أنه كان على هذا النحو:

١. كان النبي ﷺ يريد أن يسلم أهل مكة، فإذا أسلم أهل مكة أسلم من ورائهم العرب جميعا

٢. فلما صده أهل مكة فكر في الطائف باعتبارها العاصمة الثانية، والمدينة المقاربة في القوة والمكانة لمكة

٣. فلما صده أهل الطائف، لم يستسلم النبي ﷺ، بل انتقل إلى الخطوة الثالثة، أو إلى مسار ثالث، واستراتيجية جديدة في الدعوة إلى الله، وهي أن يعرض نفسه على القبائل العربية، عسى أن يجد قبيلة تقبل الإسلام، وتوفر لرسول الله الحماية لكي يبلغ رسالة الله تبارك وتعالى، ولتكون هذه القبيلة هي بذرة التأسيس للدولة الإسلامية.

ولتطبيق هذه الاستراتيجية الجديدة، بدأ مع موسم الحج الذي كان في العام الحادي عشر من البعثة في عرض نفسه على القبائل بهذه الفكرة: أن يسلموا، ثم أن يتكلفوا هذه الحماية، ويكونوا أنصار الله، وأنصار رسوله، وأعمدة التأسيس للدولة الإسلامية القادمة.

وبطبيعة الحال، لم تكن قريش غافلة عن ذلك، وما كانت لتدع رسول الله وشأنه مع القبائل، إنما كانت لهذا السعي بالمرصاد، فعملت آلتها الإعلامية والدعائية على منع

وصول هذا الصوت إلى القبائل، وكان النبي ﷺ كلما لقي أحدا من القبائل، أو وفدا من الوفود، كان كفار قريش يتتبعونه ليحذروه من رسول الله ومن دعوته، بل كانوا يستبقون لقاءاته بتحذير عموم القادمين إلى مكة من الجلوس إلى محمد بن عبد الله أو السماع منه، فكان هذا يسبب ابتعاد تلك القبائل عن النبي ﷺ، أو كان بعضها يضع شروطا لقبول الدعوة، كأن يشترطوا أن يكون أمر الزعامة والرياسة فيهم بعد وفاته، ولكن النبي ﷺ كان يقول أن هذا الأمر لله، يضعه حيث يشاء، ولم يكن النبي يعرض مقابلا لقبول دعوته ونصرته إلا الجنة، الجنة وحسب.

وعن هذه المرحلة التي كان النبي ﷺ يعرض نفسه فيها على القبائل، يقول **كلود إتيان سافاري**: «لم تفتّ هذه النكبات في عضد محمد، فلقد كان فوق كل المصائب، وكانت احتفالات الحج قد بدأت، وهي التي كانت تجلب إلى مكة جموعا غفيرة من الناس، وكان محمد يستفيد من هذا الوقت للدعوة ضد الوثنية، وكان يرفع صوته ضد الآلهة المزيفة في الطرقات، وفي الميادين العامة، وفي كل مكان»[1].

أما **ناصر الدين دينيه** فقد تحدث عن أثر الدعاية المضادة التي أطلقها القرشيون ضد الإسلام في نفسيات القبائل العربية، فيقول: «هذه الكلمات (كلمات القرشيين في تحذير القبائل من النبي ﷺ) كانت تثير الريبة والحذر في نفوس العرب، فيبتعدون عن محمد قائلين مثلا: «إن مواطنيك أعلم بك منا، فابدأ بإقناعهم» أو «إذا منحك الله النصر، فإن ثمرة انتصارك لا تعود علينا وإنما تعود على عشيرتك. فلا فائدة ترجى إذًا من التحالف معك». لم يُنهنه مثل هذا اللقاء الجاف من عزم الرسول، وما من شخصية عظيمة وصلت إلى مكة إلا وكان الرسول من أسرع الناس إلى لقائها»[2].

وبينما يعرض النبي ﷺ نفسه على القبائل إذ جاءت النصرة من قوم لم يكن أحد

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٩٠.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٦١، ١٦٢.

يتوقعهم في ذلك الوقت، وهم مجموعة من ستة أفراد من يثرب، التي صارت فيما بعد المدينة المنورة.

يعلق **كلود إتيان سافاري** على لقاء النبي ﷺ بتلك المجموعة فيقول: «كان ستة من يثرب يتجاذبون أطراف الحديث عند العقبة، فدنا منهم واشترك معهم في الحديث فأكبروا الذوق الذي ظهر به في أعينهم فغبطوه عليه، ولمسوا فيه حديث المهذب وكياسة القرشي، فاستمعوا له باهتمام، ولما أدرك محمد وقع حديثه في نفوسهم أراد أن يستكمل إقناعهم فقرأ عليهم بعض آيات القرآن حيث رسم صورا جذابة لقوة الله، وحيث يدعو الناس جميعا إلى عبادة إله الكون الواحد، أخذ الإعجاب بعقول الغرباء، فاستسلموا لسلطان الإسلام، وآمنوا برسالة محمد، وثبتت الحماسة التي بعثها فيهم، ولم تُمْحَ أبدا، ولما عادوا إلى المدينة أصبحوا رسلا للدين الجديد»[1].

لقد توقف أكثر المؤرخين والمستشرقين عند هؤلاء النفر الستة من المدينة، وبحثوا في أسباب استجابة أولئك النفر الستة لدعوة النبي ﷺ دون غيرهم من القبائل، وقادهم البحث إلى دراسة أوضاع المدينة الاجتماعية، وأوضاع المدينة الدينية في تلك الفترة، لكي يستخرجوا من خلالها الأسباب الكامنة وراء استجابة أهل يثرب لدعوة النبي ﷺ.

يقول **إميل درمنغم**: «كان يمكن لليهود الموحدين أن يؤثروا في عرب يثرب تأثيرا دينيا كبيرا لو لم يفعلوا ما عابهم به القرآن من كتم التوراة، ولو لم يعدوا الوحي أمرا خاصا بأمتهم، ولو لم يستخفوا بالعرب المشركين الأميين العاطلين من كتاب منزل، مع تماثل حياة اليهود والعرب وتجارتهما وزراعتهما، ومع تكلم اليهود بلغة العرب ونظمهم القصائد البليغة كالعرب، ولو لم يُضطر العرب إلى مقابلتهم بمثل استخفافهم، ولو لم

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٩١.

يتحذلقوا عندما كانوا يسألون، فمَهَّد يهود يثرب السبل للإسلام بذلك»[1].

يشير درمنغم هنا إلى ما عرفه أهل يثرب من اليهود من أنهم ينتظرون نبيا قادما، ويهددونهم به، فلذلك كان حديث النبي ﷺ هو بمثابة المفاجأة السارة والسعيدة التي سمعها أهل يثرب عن هذا النبي الكريم الذي سمعوا خبره قبل ذلك من اليهود، فهؤلاء الستة كما يقول جان بروا عنهم: «هؤلاء النفر الست كانوا الغرسة الأولى للإسلام في يثرب، آمنوا وبايعوا على إيمانهم، ورجعوا مبشرين قومهم، وهذه في الحسبان صدفة موفقة، ولكنها في مشيئة الأقدار إعطاء لرسالة الإسلام طريقها الأول العملي الذي قدّره الله لنجاحها»[2].

يتحدث **كلود إتيان سافاري** عن نفسية هؤلاء الستة وكيف استقبلوا دعوة النبي ﷺ فيقول: «كانوا قد استمعوا كثيرا إلى اليهود يتحدثون عن نبي سيفرض سلطانه على جميع أمم الأرض، ولعلمهم بمقدار شوق اليهود إلى مجيء هذا النبي، ولاعتقادهم أنهم وجدوا هذا النبي في شخص «محمد»، بادروا إلى اعتناق دينه، لكي يحظوا بالفضل العظيم»[3].

ويقول **إميل درمنغم**: «وعرب يثرب الذين استعدوا للتوحيد بما علموه من حلفائهم اليهود تساءلوا عن كون محمد العجيب الأمر نبي آخر الزمان الذي حدّثهم عنه بنو إسرائيل أحيانا، فَرَأَوْا أن يسبقوا غيرهم إلى مواثقته إذا كان ذلك النبي، وطمع بعضهم أن يهاجر هذا النبي القوي إلى يثرب التي أكلها انقسام القبائل وعصبياتها، والتي عانت حربا أهلية مخَرِّبة بين الأوس والخزرج، فيرأب الصدعَ ويُحِلَّ الوئام محصل الخصام»[4].

فلذلك، ومنذ هذه اللحظة، بدأت طلائع الإسلام توجد في المدينة المنورة، فقد ذهب

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٠.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٤٣.

(٣) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٩٢.

(٤) درمنغم، حياة محمد، ص١٦٢.

هؤلاء الستة إلى قومهم، ودعوهم إلى الإسلام، ثم عادوا في الموسم القادم للحج باثني عشر رجلا من المسلمين الجدد، وهؤلاء الاثنا عشر رجلا بايعوا النبي ﷺ البيعة الصغرى التي تسمى بيعة الإسلام، فبايعوه على الإيمان، وفعل المعروف، والكف عن الفواحش والمنكرات، وتسمى كذلك بيعة النساء، لأنها بيعة ليس فيها جهاد، وهي المذكورة بنودها في سورة الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾[الممتحنة: ١٢]، فهذه بنود البيعة التي بايع عليها هؤلاء النفر رسول الله في البيعة الأولى، وتسمى كذلك بيعة العقبة الصغرى، ثم عادوا إلى المدينة يدعون أهلها إلى الإسلام.

ثم أقبلوا في موسم الحج القادم، وكانوا هذه المرة فوق السبعين رجلا، ومعهم امرأتان مسلمتان، وهذه الطليعة من الأنصار هم الذين بايعوا البيعة الكبرى، التي هي بيعة الجهاد، فبايعوا رسول الله على الحماية والنصرة، فهي بيعة إقامة الدولة إن صح التعبير، يعني أنهم يتكفلون بحماية النبي ﷺ ونصرته، وبأن تكون أرضهم ومدينتهم يثرب هي المكان الذي يمثل أرض الدولة الإسلامية.

عند هذا الحدث، يشير المستشرقون إلى أن مبدأ الجهاد ولد حينها، ولد في هذه الفترة المكية مع بيعة العقبة الثانية في العام الثالث عشر من البعثة النبوية، فمبدأ الجهاد والدفع والحماية ولدت مع بيعة تأسيس الدولة، من هؤلاء المستشرقون الذين أشاروا إلى ذلك **إميل درمنغم**، حيث يقول: «إذن، يكون مبدأ الحرب المقدسة قد وُضِع أول مرة في بيعة العقبة الثانية التي تعرف أيضا ببيعة الرجال، كما عُرِفت بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء، ولم يأذن الله لرسوله قبل هذه البيعة الثانية في امتشاق الحسام، ولم يكن في القرآن قبلها غير الإيصاء بالصبر، وما كان محمد وأصحابه ليقابلوا الاضطهاد بغير الحلم ونسيان الأذى مدة ثلاث عشرة سنة، ثم أُذِن للمسلمين في دَرْء الاعتداء بالاعتداء بعد الآن موقوفا

على أمر الله تعالى»[1].

وفي حقيقة الأمر، فإن هذه البيعة غيرت الخريطة السياسية، لا أقول في الحجاز فقط، ولا حتى في العالم العربي فقط، بل لقد غيرت الخريطة السياسية في كل العالم. لقد كانت هذه البذرة، بذرة أن يكون للنبي ﷺ دولة، هو الإنجاز الضخم، والتحول الكبير في مسار الدعوة، واللحظة الفارقة في عمر الإسلام.

يقول **ناصر الدين دينيه**: «أصبح للرسول بعد هذه البيعة ملجأ أمين في مدينة يثرب، فأمر أتباعه بالهجرة إليها، ولم يطمئن المشركون إلى هذا الأمر، ورأوا أن من الخطر عليهم أن يؤلف ضحاياهم مع أهل يثرب -تلك المدينة التي تنافس مكة- جماعة واحدة، فعارضوا الهجرة، بكل ما يملكون من وسائل العنف، لذلك لم يتمكن المسلمون من الهجرة إلا فرادى أو جماعات صغيرة متتابعة»[2].

وهذا هو الطبيعي في التدافعات الإنسانية والحضارية، لأن وجود دولة للإسلام، -أو وجود دولة لأي فكرة- هو خط أحمر بالنسبة لأي وضع سياسي، فإن أي دعوة تسعى أن تستمر في الحركة والتغيير، فلابد لها أن تقيم لنفسها دولة، هذا من سنن الله في خلقه، ومن طبيعة الاجتماع البشري، ولم توجد دعوة استمرت بلا دولة تتبناها وتحميها وتنشرها، فإن الدعوة إذا لم تتحول إلى دولة فإنها تذبل وتضمر، ولا يُكتب لها الاستمرار طويلا، وأي فكرة لا يستطيع معتنقوها أن يقيموا بها ولها دولة، فإنها لا تلبث أن تندثر وتضيع وتذوب في معترك التدافعات، وبطبيعة الحال كذلك، فإن خصوم هذه الدعوة أو الفكرة لابد أن يحولوا بينها وبين أن تتحول إلى دولة، وهذا خط أحمر، بل هو أكبر الخطوط الحمراء.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٦٤.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص١٦٧.

ونحن إذا تأملنا في سيرة النبي ﷺ، سنرى أن الهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية كانت لحظة فارقة في مسار الدعوة وحركة الإسلام، وأن ما قبلها لا يشبه أبدا ما بعدها، وهذا المعنى كان واضحا ومدرَكا عند الصحابة، وهذا واضح في قرار سيدنا عمر بداية التأريخ للمسلمين بالهجرة النبوية، حتى المشركون كذلك، كانوا مدركين حجم التهديد الي يشكله هذا التحول في مسار الدعوة، لذلك فقد كانوا أشد ما يكونون توترا ورفضا ومراقبة لمسألة تكون بذرة الدولة في المدينة، ولذلك عملوا على منع المسلمين من الهجرة، فهي ليس كهجرة الحبشة التي كانت فرارا من الاضطهاد، بل كانت هجرة تكوين وتأسيس دولة، ولذلك لم يستطع المهاجرون أن يهاجروا إلا مستترين مستخفين أو في جماعات صغيرة متتابعة؛ فلم يبقى بعد ذلك أمام قريش إلا قتل النبي ﷺ لكي تموت هذه البذرة في مهدها قبل أن ترى النور.

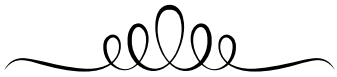

المرحلة المدنية

الهجرة وتأسيس الدولة الإسلامية

استطاع كثير من المسلمين أن يتفلتوا من أيدي المشركين، وتتابعت رحلات هجرتهم زرافات ووحدانا، حينها وصل المشركون في سعيهم إلى منتهاه، وقرروا قتل النبي ﷺ مهما تكن النتائج.

هذه اللحظة يصفها **كلود إتيان سافاري** فيقول: «كان المشركون على علم بارتباطاته مع أهل المدينة، كما كان هروب أتباعه وأقاربه قد كشف لهم عن نواياه، ورأى المشركون أنه إذا استُقْبِل في المدينة بما يرتضيه فإنه يستطيع أن يُسَلِّح قبيلتيْن قويتيْن، هذا الخوف جعلهم يتخذون قرارا قاسيا، هو القضاء على عدو آلهتهم وعدو قوتهم»[1].

ويقول **ناصر الدين دينيه**: «أقرت الجماعة الغادرة هذا الرأي، واعتقد المشركون -منذ إقراره- أنهم قد تخلصوا من عدوهم، غير أن المشيئة الإلهية أخلفت ظنهم، فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يعرفه بمؤامرة دار الندوة، ويأمره بالهجرة، ويطلب إليه ألا يبيت على فراشه الذي كان يبيت عليه. كان بمنزل الرسول أمانات وضعها عنده المشركون لثقتهم في طهارته، فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها، لذلك أتى بعلي المخلص الوفي، وكلفه بردها، بعد أن أخبره بنبأ دار الندوة، وقال له: نم على فراشي، وتسج ببردى هذا

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١١٠.

الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»[1].

ويقول **مارسيل بوازا**: «وائتمر المكيون لقتل النبي، وعلم بالأمر، وتمكن من النجاة بشبه معجزة بمساعدة شجاعة من ابن عمه علي، كما تقول كتب السيرة. وفي المدينة استقبل محمد بالتهليل في شهر تموز -يوليو- عام ٦٢٢م، وكانت «الهجرة» التي يحدد بها المسلمون مطلع سنتهم، والتي تعتبر بداية التاريخ الإسلامي، وتعني اللفظة حرفياً ترك البلاد الى أخرى، والمنفى، والنجاة بالنفس، أما الدين فقد أضفى عليها معنى خاصاً هو الخلاص من الجهل، ورفض الشر، واطراح الكفر، وبكلمة تكون الهجرة فعل إيمان، ومن المفيد التذكير بأن الهجرة (ابتعاد طوعي وإن يكن محدداً بأسباب لا إرادية) يتجدد بلا انقطاع اذا حدث اذلال أو اضطهاد، وعلى المسلم أن يهاجر اذا اقتضى الأمر ليجاهد في سبيل الله حتى يزول كل ظلم»[2].

وفي تقديري أن بوازار هنا يحاول أن يقرب للغربيين قول النبي ﷺ: «والمُهَاجِرُ مَن هَجَرَ ما نَهَى اللهُ عنْه»[3] في مسألة رفض الشرك والكفر، وكذلك يُثَبِّت فكرة أن الهجرة مستمرة في البلاد التي لا يستطيع فيها المسلم أن يقيم دينه.

لكن ما يهمنا الآن هو أن هذه الهجرة كانت هي البداية للدولة الإسلامية، وكان لهذا أثر كبير أشار إليه بعض هؤلاء الباحثين والمستشرقين، ومنهم **هنري ماسيه**، حيث يقول: «تلك الليلة [ليلة الهجرة] تشكل نقطة انطلاق التاريخ الإسلامي، إنها الهجرة، والمؤمنون المكيون الذين سبقوا محمدا إلى المدينة هم المهاجرون، وهكذا انتهى دور الألم بالنسبة لمحمد»[4].

---

(١) آتيين دينه، محمد رسول الله، ص ١٦٩.

(٢) مارسيل بوازار: انسانية الاسلام، ص٤٤، ٤٥.

(٣) البخاري (١٠).

(٤) ماسيه، الإسلام، ص٤٦.

ويقول **إميل درمنغم**: «وهكذا أوشكت أن تظهر في بلاد العرب دولة جديدة قائمة على أسس دينية بعيدة من المبادئ القبلية والعشرية»[١].

وهنا، سيظهر للناس مواهب أخرى للنبي ﷺ، فقد ظهرت مواهبه كداعية فذ، ولكن هذه الدولة تحتاج إلى ما هو أكثر من القدرة على الدعوة وتبليغ الرسالة، ولذلك يلتقط **دومينيك سورديل**[٢] هذا المعنى فيقول عن النبي ﷺ: «هذه الهجرة جعلت منه رئيس دولة وقائدا حربيا، يتخذ قرارات سياسية وعسكرية، يُسَيِّر السرايا ضد المكيين، وينظم جماعة المهاجرين والأنصار، ويصدر تشريعا جديدا مع استمراره في توجيه دعوته الدينية»[٣].

أما المفكر الفرنسي **روجيه جارودي** فيحاول أن يقدم للغربيين صورة للدولة التي صنعها النبي ﷺ فيقول: «أعطى النبي، حقيقة، عندما أصبح المؤسس لدولة في المدينة عام ٦٢٢ المثل الأول لجماعة من نموذج لم يكن يُعرف حتى ذلك الحين؛ فهي ليست بعدُ الجماعةُ القبلية، المتحدة بروابط الدوم لدى البدو الرُّحَّل أو المقيدة بالأرض لدى الحضريين، كذلك ليست «أمة» بالمعنى الغربي للعبارة، مرتكزة على وحدة أرض وطن، وسوق ولغة أو تاريخ، أعني على معطيات كالعرق والجغرافيا أو التاريخ –وبالتالي على الماضي– ولكن على مجتمع نبوي مبني على تجربة مشتركة من تعاليم الله»[٤].

وهذه الكلمة من جارودي كلمة دقيقة جدا، وهذه الكلمة –في الحقيقة– فيها خلاصة المعركة التي تخوضها أمتنا حاليا، فإن كلمة أمة بالمفهوم الغربي ليست هي كلمة أمة

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٠.

(٢) دومينيك سورديل (١٩٢١ – ٢٠١٤) هو مؤرخ فرنسي متخصص في العصر الذهبي للإسلام، كان أستاذًا في جامعة باريس السوربون، له العديد من المؤلفات منها: (الإسلام في القرون الوسطى– الإسلام، قراءة غربية معاصرة – الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي – الإسلام: العقيدة، السياسة، الحضارة).

(٣) سورديل، الإسلام، ص٢٩.

(٤) جارودي، وعود الإسلام، ص٣٥، ٣٦.

بالمفهوم الإسلامي، كلمة أمة (Nation) بالمفهوم الغربي تعتمد على أشياء لم يخترها الإنسان، مثل الأرض أو العرق أو التاريخ المشترك أو مصالح مشتركة، لكن الدولة التي أسسها النبي ﷺ والتي يتوق المسلمون إلى إعادتها اليوم، هي الدولة التي أساسها الدين، فكل مسلم هو مواطن في هذه الدولة المسلمة، بمعنى أن المواطن في الفكر الغربي وفي السياق الغربي، هو المسلم في الدولة الإسلامية، ولكنه كل مسلم على وجه الأرض، وليس في بقعة جغرافية محددة منها، ذلك أن قاعدة الدولة الإسلامية هي قاعدة الدين، ليست قاعدة الدم أو العرق أو الأرض أو التاريخ المشترك، هي دولة تقوم على فكرة وعقيدة، فكل من حمل هذه الفكرة واعتنق هذه العقيدة، فهو مواطن في الدولة الإسلامية.

وفي هذا النقل عن جارودي نجده يحاول تقريب هذه الصورة إلى الغربيين لكي يتبينوا هذا الفارق، ومن المؤسف أن كثيرا من المسلمين لم يعد يتبين هذا الفارق في ظل الدعوات المعاصرة للمواطنة، لأن الغرب قد غلب على أمتنا، وأنشأ في بلادنا دولا وطنية قطرية على مبادئه الغربية، فلذلك تشوش هذا المعنى عند كثير من المسلمين، بل عند كثير من المنتسبين إلى العلم والثقافة والدعوة، وبطبيعة الحال، فإننا نرى هذه الفكرة قد بلغت أشكالها المتطرفة عند علماء السلطان، الذين يتحدثون عن المعاني والانتماءات الدينية فينسبونها إلى الوطن، فتجده يحدثك عن الجهاد في سبيل الوطن، والجهاد في سبيل تراب الوطن، والتبرع للأوطان، فصار الوطن بديلا عن الدين والعقيدة.

يقول **إميل درمنغم** وهو يتحدث عن حال النبي ﷺ بعد استقراره في المدينة: «استقر محمد بالمدينة فاستطاع أن ينظم شؤون العبادة بالتفصيل، وأقام في جزيرة العرب مجتمعا مدنيا على أسس جديدة بعيدة من عصبيات القبائل والعشائر، مما لم يصنع مثله مؤسسو الديانات إلا نادرا، فكان محمد بذلك الرسول والمشترع والسياسي والقائد في آن

واحد»[1].

وهنا أحد أهم مواضع الاقتداء بالنبي ﷺ، وموضع إنجاز النبي ﷺ الذي لم يُعرف لأحد، ذلك لأن كل أصحاب الديانات الكبرى لم يؤسسوا دولا، وبقراءة مادية تنظر إلى التاريخ فقط، سنجد أن موسى عليه السلام مات في زمن التيه، فقد عصاه بنوا إسرائيل، ولم يطيعوه في دخول الأرض المقدسة، حتى ماتوا وهم في التيه ليس لديهم دولة، وعيسى عليه السلام في القراءة المسيحية، هو صاحب دعوة مهزومة، ففي النهاية استطاعت السلطة أن تنتصر عليه وأن تقتله وتصلبه (حسب قراءتهم الباطلة، فنحن نؤمن أن سيدنا عيسى أدى ما عليه من دعوة الناس إلى الله، ثم رفعه الله إلى السماء)، لكن القصد أن المسيحية لم تنشئ دولة، وإنما دخلت المسيحية إلى نسيج الدولة عندما اعتنق الامبراطور الروماني قسطنطين الكبير[2] العقيدةَ المسيحية، حينها لبست الدولة الثوب المسيحي، وحدث الاختلاط بين المسيحية والوثنية، والتي يعبر عنه القاضي عبد الجبار المعتزلي بقوله: «النصارى ترومت ولم تتنصر الروم»[3]، يعني أن تأثير الحضارة أو الدولة الرومانية في المسيحية، وما أصبغت عليها من الوثنية والتماثيل والصور وعبادة القديسين والآلهة، أكثر من تأثير الديانة المسيحية في الدولة الرومانية.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٧٥.

(٢) قسطنطين العظيم (٢٧٢- ٣٣٧م)، ويعرف بـ: قسطنطين الأول وقسطنطين بن هيلانة، حكم ثلاثين سنة (٣٠٦ - ٣٣٧م)، وانتصر في حروب فاصلة حتى انفرد بالحكم وقهر خصومه، وكان أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية بعدما عاش حياته وثنيا، فأصدر مرسوم التسامح مع المسيحية من بعد ما كانت مجرمة، وعقد مجمع نيقية المشهور في التاريخ المسيحي، ويلقب أحيانا بأنه «الإمبراطور المسيحي الأول»، وإن دارت نقاشات حول حقيقة إيمانه بالمسيحية وحقيقة فهمه لها!

(٣) القاضي عبد الجبار، تثبيت دلائل النبوة، ص١٧٣.

أما سيدنا محمد ﷺ، فقد كان صاحب دعوة، واستطاع أن يؤسس دولة على أسس وقواعد هذه الدعوة، وانتقل هو بنفسه من صاحب الدعوة، الذي يدعوا الناس ويجادلهم وينشر دعوته فيهم، إلى رجل الدولة، الذي يملك التفعيل والتطبيق والتنفيذ للقواعد والمبادئ التي يدعو إليها، فلذلك كان نجاح سيدنا محمد ﷺ هو النجاح المطلق على المستوى الديني والدنيوي في نفس اللحظة.

غزوة بدر وميلاد الدولة الإسلامية

في المدينة بدأ فصل جديد من فصول النضال والكفاح، وخاض النبي ﷺ غمار المعارك والحروب، ونبدأ بالحديث عن غزوة بدر الكبرى.

سمى الله تبارك وتعالى غزوة بدر في القرآن الكريم بـ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾[الأنفال: ٤١] لأنها فرقت بين الحق والباطل، ولأنها فصلت بين مرحلتين من مراحل الدعوة الإسلامية؛ مرحلة ما قبل الدولة ومرحلة الدولة، كذلك لآثارها الكبيرة التي عمت فيما بعد الجزيرة العربية بأسرها، بل عمت العالم كله، رغم أنها كانت تبدوا - لو نظرنا إليها في ذلك الوقت - كأنها حرب عادية من تلك الحروب اللامتناهية التي كانت تخوضها القبائل العربية.

أول ما نزل الإذن بالقتال للنبي ﷺ كان في العام الثاني للهجرة، وكان ثمة مجموعة من السرايا قبل غزوة بدر الكبرى.

وقعت غزوة بدر في ١٧ رمضان من السنة الثانية من الهجرة، وهذه الغزوة كان مبدأها أن استخبارات النبي ﷺ نقلت له أن عيرا لأبي سفيان قد خرجت من مكة قاصدة الشام، فخرج لها النبي ﷺ ليعترض طريقها، ويستولي عليها، ليسترد بذلك جزءً من أموال المسلمين التي نهبها كفار قريش بعد هجرة المسلمين من مكة، وخرج لها النبي ﷺ في جمع من أصحابه إلا أنها فاتتهم في طريقها إلى الشام، ثم لما جاءت الأخبار للنبي ﷺ

بقرب عودة القافلة إلى مكة، ندب رسول الله أصحابه للخروج معه لاعتراض القافلة، ولم يعزم على أحد بالخروج، بل كان الأمر على التخيير، ذلك لأنه لم يظن أنه سيلقى جيش قريش، بل عير أبي سفيان، مع حراسة محدودة.

ومن المهم أن نشير هنا أن خروج النبي ﷺ لملاقاة عير قريش، إنما كان ليسترد بعضا من أموال المسلمين المنهوبة، لأن المسلمين بعد أن هاجروا من مكة، استولى أهل كل مسلم على ماله من بعده، على البيوت والدور والدواب وغيرها، وقد ذكرنا سابقا أن المهاجرين إنما هاجروا متخفين، فلم يكن يخرج أحدهم إلا بزاد المسافر، تخفياً وتخففاً، وبعض الناس أدركهم المشركون في الطريق مثل صهيب الرومي رضي الله عنه، فلم يخلوا بينه وبين طريق الهجرة إلا بعد أن دلهم على كل ماله، فاحترزوه لأنفسهم ظلما وبغيا وعدوانا، فهذه الأموال التي اغتصبها القرشيون إنما كانت في هذه العير، لذلك أراد النبي ﷺ أن يعترضها ليسترد بها بعض أموال المسلمين المغصوبة.

خرج رسول الله ﷺ في قرابة الثلاثمائة من أصحابه، ثم حصلت القصة المشهورة، وأفلت أبو سفيان بالعير، وجيشت مكة جيشا كبيرا يبلغ ثلاثة أضعاف جيش المسلمين، وقدر الله اللقاء بين هذين الجيشين، ومنَّ الله على رسوله والمؤمنين بنصر مؤزر كبير، أعز الله به دينه، وقضى به على الكثير من رؤوس الكفر في مكة، لتكون بذلك غزوة بدر وما حققه المسلمون فيها من انتصار عظيم هي إعلان ميلاد دولة الإسلام.

يقول **جان بروا**: «إن إبلاغ الرسالة الى العالم هو الهدف الأول والأخير للنبي محمد، ولم تكن مشاغل الأسرة والحياة لتحول بينه وبين أدائها أبداً، وإنك إذا نظرت الى عنف قريش ومؤامراتها الدموية وربط جأشها على اغتياله مراراً، بل اذا نظرت الى كل القبائل العربية حينذاك، ألفيت الغزو جل عملها، ولم يكن النبي إلى ذلك الوقت -وإن كثر حوله الرجال- قد أُذن له في النضال ودفع العدوان بالعدوان، ولكن بعد كل تلك الاعتداءات جاء الوحي الإلهي يبيح له حرب المعتدين: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ

نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾[الحج: ٣٩-٤٠]، وجاء أيضًا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ١٩٠]»[1].

من الضروري أن ننبه هنا إلى أنه لم يكن النبي ﷺ هو من بادر بالاعتداء على قريش، وإنما كان إعلان العداء منهم ابتداءً، وبصور شتى، فمن تعذيب للمسلمين المستضعفين وفتنتهم وردهم عن الإسلام، إلى التربص بالمهاجرين، ثم نهب أموالهم واغتصابها ظلما وجورا، وصولا إلى أن من كان يذهب من المدينة إلى مكة ليحج ويعتمر على نحو ما يفعل العرب، كان يجد من أهل مكة الصدود والتهديد والعدوان، فحالة الحرب كانت معلنة وقائمة، وكانت الأموال في عير أبي سفيان هي جزء من حق المسلمين المغصوب، وإنما كان خروج النبي ﷺ لها ليستعيد أمواله وأموال المسلمين، فهذا تنبيه يسير لكي لا يتوارد إلى الأذهان أن النبي ﷺ هو الذي بدأ هذه الحالة الحربية مع المشركين.

في غزوة بدر خرج النبي ﷺ ومعه ٣١٤ رجلا، وهو المشهد الذي يرصده **جاك ريسلر** في كتابه «الحضارة العربية» فيقول: «على رأس ٣٠٠ رجل، تحركهم الشجاعة والثقة بمقادير الدين الجديد، كان الإسلام قد خاض معركته الأولى وربحها، وبفعل نجاح استعراض القوة هذا، كان النبي قد أدرك الضرورة الملحة لنشر الإسلام والدفاع عنه بقوة السلاح وبسلطان العقيدة في آن»[2].

وحينما تأمل السياسي والأديب والشاعر **ألفونسو دي لامارتين** في غزوة بدر، وتأمل في هذا الجيش، قال كلاما ما أشبهه بكلام المسلمين، بل ربما لو تكلم به مسلم اليوم لنُسب إلى التعصب، يقول: «ذلك هو الجيش الذي سيبدل وجه العالم بأعمق مما بدلته

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء، ص٥٢.

(٢) ريسلر، الحضارة العربية، ص٣٦، ٣٧.

الجيوش التي تعد مليون رجل كجيش خشايرشا بن داريوس[1] ملك الفرس، أو نابليون، فليس بعدد المقاتلين تقاس الأحداث، وإنما تقاس بما وراء الأحداث من أسباب، فإذا كان مليون جندي يقاتلون إرضاء لطموح غازٍ أو تعظيما لمجده، هلكوا دون أن يخلفوا أثرا سوى عظامهم على الأرض، أما إذا كان ثلاثمائة وأربعة عشر يقاتلون في سبيل نصرة فكرة لا يبتغون منها نفعا عاجلا، هي فكرة وحدة الله، وإظهارها على أهل الشرك، فإنهم يفتحون ثلث العالم ليثبتوا فيه –على مدى الزمن– العقيدة التي كانت تدفعهم، فالنصر مهما كان قول بعض الملوك الماديين في عصرنا هذا ليس للجيوش الجرارة، النصر لله ولمن يقاتل في سبيل الله ضد روح الفساد في البشر»[2].

وبعد غزوة بدر وما تحقق فيها من نصر كبير، تحول المسلمون إلى قوة صاعدة في الجزيرة العربية، بمعنى أن الدولة الإسلامية كانت قبل غزوة بدر تشبه أن يقال عنها في الخطابات العلمية: الدولة المزعومة، أو أنها أشبه بتجمع من اللاجئين، أو مجموعة من المتمردين على النظام المستقر في الحجاز وفي الجزيرة العربية، ثم جاءت غزوة بدر لتكون إعلان ميلاد قوة إقليمية جديدة، وهذه سيرة الدول عبر التاريخ، فالدول إنما تبرز وتظهر إلى الوجود بالحرب كما أنها تنتهي ويقضى عليها بالحرب كذلك، فالحرب هي الصفحة الأولى في تاريخ أي دولة، وهي الصفحة الأخيرة في تاريخ أي دولة أيضا، فغزوة بدر كانت ميلادا للدولة الإسلامية، ميلادا لقوة هذه الدولة، وإعلانا بأن خريطة القوى السياسية في منطقة الحجاز والجزيرة العربية قد تغيرت، وصارت هناك قوة جديدة تسمى الدولة الإسلامية في المدينة.

---

(١) خشايارشا الأول (٥١٩–٤٦٥ ق. م.): ملك من عظماء ملوك فارس، وابن لواحد من أعظم ملوكهم وهو داريوس أو دارا، حكم عشرين سنة، أنزل باليونان –الأعداء التاريخيين للفرس– هزائم بالغة حتى اجتاح عاصمتهم أثينا، واتخذ عاصمة له في آسيا الصغرى!

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٧٥.

أما على الصعيد المحلي الداخلي، فقد ترك انتصار المسلمين في غزوة بدر آثاره الداخلية في المدينة كذلك، وكان من أبرز تلك الآثار أن أسلم الذين كانوا لا يزالون على الشرك، ومن لم يشرح الله صدره للإسلام، فقد اضطر لأن يسلم علانية، ويبطن الكفر، وهؤلاء هم المنافقون، وبذلك تمت تصفية معسكر المشركين الموجودين في المدينة، وبعدها نشأة ظاهرة النفاق لأولئك الذين اختاروا الكفر فأبطنوه، وأظهروا الإسلام، لأن الناس أسلمت، وقويت شوكة المسلمين بعد بدر، فلم يستطيعوا أن يظلوا مجرد قلة منبوذة، فدخلوا في الإسلام ظاهرا استبطنوا الكفر والعداء للإسلام والمسلمين.

يرصد **إميل درمنغم** بعض نتائج غزوة بدر فيقول: «ولما كانت غزوة بدر، ونال محمد فيها نصرا مؤزّرا، أسلم كثير من مشركي المدينة عن إيمان أو عن غير إيمان، ورأى عبد الله بن أبيّ أن يبايع النبي، وما كان عبد الله بن أبي صادق الإيمان، فكان رأس المعارضة، ولم يألُ جهدا في إثارة المشكلات في سبيل محمد»[1].

ويواصل كلامه عن أثر الغزوة في أوضاع الجزيرة العربية، فيقول: «كانت غزوة بدر فاتحة انتصارات لم تلبث أن غيرت وجه الدنيا، ومما حدث في تلك السنة أن تمّ النصر لنصارى الروم على مشركي الفرس كما أخبر به القرآن فكان ذلك سببا لمضاعفة فرح المسلمين»[2].

وقصة انتصار الروم على الفرس التي أشار إليها درمنغم، كان من شأنها أن الفرس انتصروا على الروم حين كان المسلمون لا يزالون بمكة قبل الهجرة، وفرح المشركون بنصر الفرس، لأنهم ليسوا أهل كتاب وإنما محسوبين على عبادة الأوثان، وحزن المسلمون على هزيمة الروم، على اعتبار أن الروم أهل كتاب من النصارى، فنزل قول الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٨٩.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٢١٧.

سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾[الروم: ١-٥]. وفي ذلك الوقت، ظن المؤمنون أن هذه الآية تعني أنه في بضع سنين، سينتصر الروم على الفرس، وهو ما قد كان بالفعل، ولكن نصر الله المذكور في الآية كان شيئا لم يتوقعه المؤمنون آنذاك، وهو أن المؤمنين المضطهدين في مكة، الذين يعانون تحت ظل الحكم القرشي الظالم المشرك، هم أنفسهم، وفي خلال بضع سنين، سوف يؤسسون دولة، ويكون لهم جيش، وسيحاربون أهل مكة، وسوف ينصرهم الله عليهم ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ﴾[الروم: ٤-٥]، فهذا هو نصر الله الذي أشارت إليه الآية الكريمة.

يقول **ناصر الدين دينيه**: «هذه الغزوة الخالدة، التي لم يكن بها من المحاربين إلا عدد قليل، كانت نتائجها من الأهمية بحيث غيرت وجه العالم»[1].

غيرت وجه العالم، لأنها كانت إعلانا وبداية لميلاد دولة الإسلام، وميلاد دولة الإسلام يساوي ميلاد قوة جديدة إقليمية، وهذا يساوي تغير خريطة القوى السياسية الموجودة في الجزيرة العربية، وما تلاه من تغيير متدرج على خريطة القوى في العالم بأسره.

لقد كانت غزوة بدر بمثابة الاختبار الأول، فالدول تختبر في قيامها بالاختبارات العسكرية، فلا توجد دولة قامت دون أن تخوض حرب، سواء في ذلك حرب تأسيس أو حرب تحرير أو حرب استقلال، فكانت غزوة بدر بالنسبة للدولة الإسلامية هي الغزوة التي ولدت الدولة الإسلامية كقوة سياسية ستغير وجه الدنيا لاحقا.

أما أهل مكة، فكانت نتيجة المعركة بالنسبة إليهم صادمة، وغير متوقعة في أسوأ كوابيسهم، لدرجة أن الرجل الذي حمل نبأ هذه الهزيمة إلى مكة، لما ذهب يقول لهم

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٠٨.

مات عتبة بن ربيعة، ومات شيبة، ومات أبو الحكم بن هشام (يقصد أبا جهل)، ومات أبو البختري بن هشام، وغيرهم من قادة قريش، لم يصدقوه البتة، بل إن صفوان ابن أمية (وهو ابن أمية بن خلف الذي كان يعذب بلالا، وقد قُتل أمية أيضا غزوة بدر)، قال هذا رجل مجنون، وأمرهم أن يسألوا الرجل عنه -يعني إن كان صفوان ابن أمية قد قتل أيضا، في حين أنه لم يشارك أصلا في المعركة-، فقالوا له: ما فعل صفوان ابن أمية؟ فقال ها هو جالس في حجر الكعبة، فكان الخبر خبرا صاعقا على قريش، حتى إنه لما سمع أبو لهب - عم النبي ﷺ- بهذا الخبر، أصابه المرض حتى مات منه بعد أيام من شدة الغيظ والقهر والكمد.

ترى هل ستسكت قريش عن هذه الهزيمة المروعة؟!

الهزيمة الأولى للدولة الإسلامية

عقدت قريش العزم على أن تحبس أموال القافلة التي عاد بها أبو سفيان، والتي كانت السبب في إنشاب هذه الحرب، على تجهيز حرب انتقامية ضد المسلمين، كذلك منعت قريش النياحة على قتلاها -يعني: منعت إقامة مراسم العزاء-، ولا أن يرثي أحد قتلاها في قصائد الشعر، وظلوا بعد ذلك نحو السنة يجهزون لحرب يثأرون فيها من المسلمين.

بعد مقتل أغلب قادة قريش في بدر، آلت زعامة مكة إلى أبي سفيان بن حرب، فجهز جيشا كبيرا قوامه ثلاثة آلاف رجل، وقصد به المدينة، وبلغت أنباء هذا الجيش بتفاصيل عدته لرسول الله ﷺ، فجمع النبي ﷺ الصحابة واستشارهم فيما يرونه تجاه هذا الوضع، كانت الآراء بين أن يبقى المسلمون في المدينة ويدافعون عنها من داخلها، أو أن يخرجوا لملاقاة جيش المشركين خارج المدينة، وكان رأي رسول الله ﷺ أن يتحصن المسلمون في المدينة، ويقاتلوا المشركين فيها، لكن أغلب الصحابة -خاصة من لم يخرج مع النبي في بدر، وكان متحمسا لتعويض فرصة بدر بمعركة مثلها- أشاروا على النبي ﷺ بالخروج، ونزل النبي عند القول الذي اجتمع عليه غالبية صحابته، فتجهز النبي ﷺ، وأمر الصحابة بالتجهز، وخرج بجيش قوامه ألف مقاتل، إلا أن عبد الله بن أبي بن سلول، وكان رأس المنافقين في المدينة، انسحب بثلث الجيش حين وصلوا أحد، وبقي مع النبي ﷺ سبعمائة من أصحابه، بما يقارب ثلث عدد جيش المشركين.

اتخذ رسول الله ﷺ عددا من الإجراءات العسكرية، فجعل ظهر الجيش المسلم إلى جبل أحد، ووضع عدد من أمهر الرماة على جبل الرماة، ليحموا ظهور المسلمين، ويرشقوا خيل المشركين بالنبال في حال حاولوا تطويق جيش المسلمين أو مهاجمة مؤخرة الجيش، وأمر النبي ﷺ أولئك الرماة، وشدد عليهم بألا يغادروا مواقعهم أبدا حتى يأمرهم ﷺ بذلك، مهما كانت نتيجة المعركة، وقال لأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل لكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطئناهم فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم».

ثم جرى ما هو مشهور من انتصار المسلمين على المشركين في أول المعركة، وهروب المشركين من ساحة القتال، ولما رأى الرماة أن المسلمين قد انتصروا على عدوهم، وبدأوا في جمع الغنائم، نزل أغلبهم من على الجبل للمشاركة في جمع الغنائم، مخالفين بذلك أمر رسول الله ﷺ، وكذلك لم يستمعوا لنصائح أميرهم عبد الله ن جبير الذي ذكرهم بأمر رسول الله ﷺ ألا يبرحوا مكانهم حتى يرسل إليهم، فحدثت الثغرة في طوق الحماية الذي وضعه رسول الله ﷺ، وهذه الثغرة استغلها خالد بن الوليد، الذي كان قائد فرسان المشركين يومئذ، فدار بفرقة الفرسان حول جبل الرماة، وقتل العشرة من الرماة الذين ثبتوا مع أميرهم عبد الله بن جبير، ولم ينزلوا من على الجبل، ثم انقض خالد بفرسانه على مؤخرة جيش المسلمين، وهنا انقلب ميزان المعركة، واختل جيش المسلمين، ووقعت الكوارث، فقُتِل حمزة رضي الله عنه، أسد الله وأسد رسوله، وهذه كانت فاجعة كبيرة، لأن حمزة كان بطلا عسكريا، فوق أنه عم النبي ﷺ وسيد من سادات بني هاشم.

وكذلك قُتِل مصعب ابن عمير أول سفير في الإسلام، وكان مصعب شديد الشبه بالنبي ﷺ، فلذلك أشيع أن النبي قد قتل، فلما أشيع ذلك انهارت معنويات الجيش المسلم، وبدأت تتزلزل حركته، وحوصر النبي ﷺ في موضع من أرض المعركة، وحوله جماعة

قليلة من أصحابه، وحاول كثير من فرسان المشركين قتله، إلا أن الصحابة رضوان الله عليهم استبسلوا في الدفاع عنه، وفدوه بأرواحهم، وقتل سبعون من خيرة المسلمين، وانسحب البعض عائدا إلى المدينة، إلا أن النبي ﷺ استطاع أن يلملم شتات الجيش، وانسحب بهم إلى شعاب أحد، وظن المشركون أنهم قد نجحوا في قتل رسول الله ﷺ ووزيريه أبي بكر وعمر، إلا أن عمر أخبر أبا سفيان أن الله قد أخزاه، وأبقى لدينه رسوله وصاحبيه، وكان أبو سفيان يستطيع، لو أتته الجرأة، أن يواصل السير إلى المدينة، ولكنه خشي أن تنقلب لحظة النصر هذه إلى هزيمة، فآثر العودة إلى مكة، دون أن يقيم ثلاثة أيام في مكان المعركة كعادة ما كان يفعله المنتصرون العرب - حيث كانوا يقيمون ثلاثة أيام في موضع المعركة-، وكان النبي ﷺ في اليوم الثاني لغزوة أحد، قد جهز جيشا تحسبا لعودة أبي سفيان بجيشه للإغارة على المدينة، وخرج بهم رسول الله ﷺ، فيما يعرف بغزوة حمراء الأسد، وأرسل ﷺ من يستطلع له حال جيش المشركين، فوجدهم قد ركبوا الإبل، وهذا دليل العودة، فلو أنهم كانوا قد ركبوا الخيل، لكان هذا يعني أنهم يستعدون لجولة أخرى من المعركة، وبذلك انتهت معركة أحد بما يشبه الانتصار للقرشيين، ولكنه انتصار غير كامل على عادة العرب في ذلك الوقت.

ومع ذلك فقد أثرت نتيجة هذه المعركة تأثيرا شديدا في المسلمين، فقد استشهد فيها سبعون من صحابة النبي ﷺ، ثم كان الأثر الكبير المتعلق بسمعة الدولة الإسلامية، فقد اهتزت إلى حد كبير تلك الصورة التي ظهرت لقوة المسلمين بعد بدر، فإنه من المعروف أن المنتصر يفرض هيبته، كما يعظم نفوذه، بينما المنهزم يتجرأ الناس عليه، حتى القوى الصغيرة التي لا يعبأ بها عادة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ﴾[الأنفال: ٦٠]، فإن القوة ترهب العدو، كما ترهب آخرين لم يكونوا موجودين في المعركة، ولكن الضعف والهزيمة أمام العدو، يجرؤهم ويدخلهم في قائمة الأعداء.

استرعى استبسال الصحابة انتباه الشاعر الدبلوماسي **ألفونسو دي لامارتين**، وذلك حينما حاصر المشركون النبي ﷺ وحالوا قتله، يقول: «جَمَّعَتْ شواهدُ التضحيةِ وأماراتُ التفاني والإخلاص حول القائد من المسلمين ما كان كفيلا بحفظه من السقوط بأيدي أعدائه وبدفع القرشيين عنه، غير أن خبر سقوطه عن فرسه وموته تفشى بين من بقي من مقاتليه فروَّعهم وأرهقهم»[١].

أما **إميل درمنغم** فيشير إلى ما فعله النبي ﷺ من سرعة التعافي مما حدث في يوم أحد، ليعيد تجميع جيشه وتنظيمه في اليوم التالي مباشرة، ويخرج به إلى حمراء الأسد، فيقول: «ضاعف محمد، الذي أبدى من الحزم ما تعقب به العدو غداة قهر المسلمين، [يقصد: غزوة حمراء الأسد] جهوده بعد واقعة أحد، وعزم على جعل المدينة قبضته وإعداد جنوده وشغل أعدائه، ونظّم كتيبة للفرسان وأصابل للدواب، ناهيا عن تربية البغال، مقبلا على تربية الخيل»[٢].

يشير **درمنغم** هنا إلى أن النبي ﷺ في ذلك الوقت قد منع من إنزاء الحمر على الخيل، وهو الأمر الذي يتولد منه البغل، والبغل حيوان دون الخيل في القوة، فلذلك نهى النبي عن هذا، وفسر بعض العلماء العلة من وراء هذا النهي أنه للحفاظ على جودة سلالة الخيل – الذي يحتاجه المسلمون في الجهاد–، وألا ينجب الحيوان شيئا أقل منه في الجودة، وهذا مبحث في «حقوق الحيوان في الإسلام»[٣]؛ ولكن القصد هنا أن أهل السير قد ذكروا أن النبي ﷺ بعد أحد كان أشد اهتماما بتربية الدواب، إلى الدرجة التي منع فيها أن تنزى الحمر على الخيل.

أما **ناصر الدين دينيه**، فقد انتبه إلى الدروس والفوائد التي جناها المسلمون من غزوة

---

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٨٤.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٢٦١.

(٣) ينظر مقال لي بعنوان: حقوق الحيوان في الإسلام (٥) حق جودة السلالة، على مدونتي melhamy.blogspot.com

أحد، فيقول: «فإن كان الإسلام قد عانى فيها (أحد) خسائر أليمة، فقد جنى منها الكثير من الفوائد المعنوية، ولم تنتج الهزيمة إلا من عصيان الجند لتنبيهات الرسول الحكيمة، ثم مخالفة أوامره الصارمة قبيل القتال، فكان هذا إشارة للمؤمنين أن يلتزموا في المستقبل الطاعة التامة لنبيهم، وأن ينفذوا أوامره بكل دقة، حتى في حالة ما إذا افتقد الرسول أو مات، وقد نصت على ذلك الآية»[1].

وهو يقصد هنا قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾[آل عمران: ١٤٤].

ويستمر **ناصر الدين دينيه** في تعديد فوائد هزيمة أحد، فيقول: «وكذلك فرق الله بين المؤمنين المخلصين والمنافقين من أمثال عبد الله بن أبي بن سلول وأشباهه، وكان الرسول عليما بأخلاق المنافقين غير أن عامة المسلمين لم يكونوا يدرون مدى غدر هؤلاء ونفاقهم، فظهر لهم ذلك جليا، بعد انخذالهم الخبيث في ساعة الخطر، وقد شهد محمد ﷺ بفضل أحد رغم الهزيمة، على المسلمين»[2].

وهذا مما لا شك فيه، فإن تمايز الصف المؤمن، وخروج الخبث منه أمر مهم للغاية لتماسك هذا الصف وثباته في الأزمات، وهذا ما حدث قبيل بداية المعركة، حين انسحب عبد الله بن أبي بن سلول من الجيش، مع ٣٠٠ من رجاله، وهذا يمثل ثلث الجيش المسلم حينها، وكان هذا غدرا خطيرا، ونوعا شديدا من تخذيل المسلمين عن القتال، ورفع معنويات المشركين، ونزلت الآية تقول: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ﴾[آل عمران: ١٦٧].

---

(١) دينية، محمد رسول الله، ص٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٢٩.

يتناول **ألفونسو دي لامارتين** آثار هزيمة أحد، فيقول: «لم تنل هزيمته في جبل أحد من سلطته النبوية في المدينة، فواصل الإعلان عن أوامر القرآن ونواهيه واحدا واحدا، وكان صيته قد ذاع وسارت به الركبان في الصحراء، كما ذاعت التعاليم التي يدعو إليها، فاجتذب ذلك شيوخ قبائل الجزيرة إلى المدينة، فكان يتحدث معهم ويبهرهم بفصاحته وبلاغته، ويعقد مع قبائلهم معاهدات سلم وصداقة»(١).

وفي تقديري أن ألفونسو دي لامارتين يقصد بمسألة أن بعض شيوخ القبائل جاؤوا إلى المدينة لملاقاة النبي ﷺ والسماع منه، ما فعله أبو براء العامري، المعروف بملاعب الأسنة، وكان سيد بني عامر، حين جاء إلى النبي ﷺ ليسمع منه، فدعاه رسول الله إلى الإسلام، فلم يبعد ولم يسلم، فكأنما كان مترددا، أو قرب إلى المحايد، ولكنه طلب من النبي ﷺ أن يرسل معه إلى نجد من يدعو القبائل القاطنة فيها إلى الإسلام، فتخوف النبي ﷺ على صحابته من بني عامر، فقال أبو البراء أنه سيجير وفد صحابة رسول الله -يعني سيدخلهم في حمايته-، ولا يمكن لقومه بني عامر أن يخفروا جواره، وهي الحادثة التي أنتجت فيما بعد مأساة بئر معونة.

إذا أتينا إلى ما بعد غزوة أحد على مستوى الجزيرة العربية بشكل عام، فسنجد أن هذه الهزيمة التي وقعت بالمسلمين قد جرأت عليهم بعض القبائل العربية، فمن هؤلاء قبيلة بني أسد، بقيادة طليحة ابن خويلد الأسدي، فقد حاولوا أن يجمعوا جمعا ويغيروا به على المدينة، ولكن عيون النبي ﷺ -الذين هم جهاز المخابرات الإسلامي- أوصلوا للنبي ﷺ هذه المعلومة، فأرسل لبني أسد سرية بقيادة سيدنا أبي سلمة ابن عبد الأسد، فأغار عليهم، وفرق جمعهم.

كذلك عزم خالد بن سفيان الهذلي على تنظيم جمع لغزو المدينة، وأقام معسكرا

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٨٧.

خاصا يحشد فيه الفرسان لهذه الغاية، فأرسل له النبي ﷺ رجلا من أصحابه، هو عبد الله بن أنيس الجهني، فاغتال خالد بن سفيان في معسكره، وبالتالي انتهى هذا الخطر، وهذا نوع من الحرب يسمى الآن الحرب الاستباقية، وقد برع فيه رسول الله ﷺ، وقضى به على كثير من الأخطار التي كانت تهدد المسلمين، وكان يعتمد فيه بشكل ساسي على شبكة العيون الواسعة المنتشرة في الجزيرة العربية، والتي كانت توافيه بالأخبار أولا بأول، ثم المرونة والحركة السريعة في التعامل مع هذه الأخطار، بالسرايا أو الغزوات أو العمليات النوعية، مثل اغتيال رأس الخطر للقضاء على التهديد، ونحو ذلك، كل بحسب ما يقتضيه الحال.

ثم تعرض المسلمون بعد ذلك لعمليتيْ غدر، كانت الأولى حين جاء وفد من قبيلتي عضل والقارة، يطلبون من النبي ﷺ أن يرسل إليهم من يعلمهم أمر دينهم، فأرسل النبي معهم عشرة من الصحابة، فغدروا بهم وقتلوهم، والثانية هو ما حدث مع الوفد الذي أرسله النبي ﷺ مع أبي البراء العامري الذي أشرنا إليه آنفا، فإن عامر ابن الطفيل قد خفر جوار ملاعب الأسنة، واستنهض بني عامر لقتال الصحابة، فأبوا أن يجيبوه؛ لأنهم قد دخلوا في جوار سيدهم أبي البراء، فاستغاث عليهم بني سليم، فنهضت معه عصية ورعل وذكوان، وهم قبائل من بنى سليم، فأحاطوا بصحابة رسول الله، وقتلوهم جميعا، وكانت فاجعة شديدة حلت بالمسلمين، أن قتل منهم سبعون آخرون بعد أحد بأيام.

والشاهد من هذا، أن الهزيمة في غزوة أحد قد أثرت على وضع المسلمين، ولم يستطع المسلمون أن يعودوا إلى مكانتهم الأولى التي حققوها بعد بدر إلا بموالات السرايا تلو السرايا، لضرب جموع المتربصين بالمدينة، وتحقيق الانتصارات عليهم، والقضاء على رؤوسهم.

يلتفت إلى هذا الأمر **إميل درمنغم** فيقول: «ما حلَّ بالمسلمين في بئر معونة كان مصيبة عليهم، لا بعدد قتلاهم الذي كان أكثر مما ببدر وكان يعدل ما بأُحُد، بل لما نُكِب به نفوذ

محمد بين القبائل البدوية، وآلم ذلك محمدا، فصبّ اللعنات على الخائنين»[1].

يقصد قيام النبي ﷺ بالقنوت على قبائل عصية ورعل وذكوان شهرا، يدعو عليهم بعد صلاة الصبح أن ينتقم الله منهم جراء غدرهم بالمسلمين.

وهكذا انتهت غزوة أحد وما ترتب عليها، ليأتي الدور الآن للحديث عن أكبر تهديد واجهته الدولة الإسلامية في عمرها كله.

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٦٢.

أخطر تهديد للدولة الإسلامية

ذكرنا أن من آثار هزيمة المسلمين في أحد جرأة القبائل على الدولة الإسلامية، وكان ممن تجرأ كذلك على إلحاق الأذى بالمسلمين هم بنو النضير، وهم حي من أحياء اليهود الذين كانوا يسكنون بالمدينة، وكان بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، إلا أنهم -كعادة اليهود قديما وحديثا- غدروا بالمسلمين، وحاولوا اغتيال النبي ﷺ، إلا أن الله نجاه منهم، ثم أمرهم رسول الله بالخروج من المدينة، فأبوا ذلك، وتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبي ﷺ، ثم أجلاهم عن المدينة، فانتقل الكثير منهم إلى خيبر، ثم سعى قادة هذا الحي من اليهود إلى جمع حلف عسكري ضخم -يشبه التحالف الدولي بمصطلحات اليوم- من قبائل العرب، بهدف القضاء المبرم على الدولة الإسلامية، وعلى النبي ﷺ، فخرجوا إلى مكة، ومنها إلى زعماء غطفان، وسائر القبائل الكبرى في الجزيرة العربية، ونجحوا في تكوين أكبر تحالف عسكري في ذلك الوقت، مكون من جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وقصدوا به إلى المدينة النبوية.

في ذلك الوقت، لم يكن عدد المسلمين مجتمعين في المدينة -رجالا ونساءً وأطفالا- يبلغ عشرة آلاف نسمة، ولذلك فقد كانت محنة خطيرة، مثلت أكبر تهديد يواجه الدولة الإسلامية حتى ذلك الحين، لأنه تهديد بالاجتياح والإبادة والفناء.

على إثر ذلك، جمع النبي ﷺ صحابته يستشيرهم فيما ينبغي فعله لمواجهة هذا التهديد، فتنوعت آراؤهم حيال الأمر، ثم كان اقتراح سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق، وكانت هذه وسيلة حربية فارسية، يلجأ إليها القوم أصحاب القرية أو المدينة، في حال هاجمهم جيش لا يستطيعون صده عن بلادهم، فكانوا يخندقون حول أنفسهم، وكانت أياما شديدة عصيبة على المسلمين، اجتمع فيها الجوع والبرد والخوف عليهم، وهي اللحظة التي وصفها القرآن الكريم بقوله: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾[الأحزاب: ١١].

يسرد **إميل درمنغم** خبر هذا التحالف فيقول: «تحالفت قريش واليهود ومشركو الأعراب وتحزبوا على الإسلام واستعدوا للقضاء عليه، وحرَّض بنو النضير الذين هاجروا إلى خيبر الناسَ على النظام الجديد الذي يهدد فوضى بلاد العرب، ووصفوا محمدا بالطاغية الذي يريد إخضاع جميع القبائل بالسيف، وأُهْرِع أعراب تهامة ونجد إلى نصرة قريش، وكان للأحزاب في المدينة العيونُ من بني قريظة اليهود الذين تمَنَّوا إبادة حلفائهم المسلمين جهرا تقريبا»[1].

وتعبير «نشر الفوضى في بلاد العرب» يشبه التعبيرات المستخدمة في عصرنا مثل قولهم: «خطر على السلم العالمي»، و«خطر على النظام الدولي»، و«دولة مارقة»، ويا للعجب! تظل نفس المعاني، بل أحيانا نفس الألفاظ، يرددها أهل الباطل قديما وحديثا في مواجهتهم لأهل الإسلام، حتى يصدق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ﴾[الذاريات: ٥٣] فكأنما أوصى بعضهم بعضا بهذه الكلمات والأوصاف والاتهامات.

أما بنو بنو قريظة فقد كانوا حيًا من أحياء اليهود، يسكنون في ناحية الجنوب الشرقي من المدينة، وكان بينهم وبين النبي حلف وعهد، إلا أن حيي بن أخطب اليهودي -أحد

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٦٥، ٢٦٦.

زعماء يهود بني النضير- جاء إلى زعيمهم كعب بن أسد وحرضه على نقض العهد مع المسلمين، فنقض يهود بنو قريظة عهدهم مع المسلمين في أحرج وقت ممكن، في وقت الحرب التي تهدد باجتياح الدولة الإسلامية، والقضاء عليها قضاءً مبرما، وكان هذا أبشع غدر تعرضت له الدولة الإسلامية في تاريخها.

يعلق **كلود إتيان سافاري** على أجواء هذا الوقت العصيب، وفي أجواء حفر الخندق، فيقول: «لم يكن محمد ليخلد إلى النوم وقد علم عن طريق عيونه بالتجهيزات الهائلة التي كانت تنظم ضده، وكانت استحالة مقاتلة كل هذه القوى البالغة التفوق من حيث العدد قد جعلته يميل إلى فكرة الاحتماء داخل أسواء المدينة، ولكن سلمان الفارسي الذي كان محل ثقة كبيرة نصحه بأن يحفر خندقا حول التحصينات ليصد هجمة الأعداء الأولى، فأقر النصيحة، وفي لحظة كانت كل المدينة تباشر عملها، فكان لا يُسمع في أرجاء المدينة إلا ضجيج المطارق وأصوات العاملين»[1].

وهنا تصحيح يسير، إذ إنه من المعلوم أن المدينة النبوية في ذلك الوقت لم تكن لها أسوار ولا تحصينات عسكرية كتلك المعروفة في الامبراطوريات المجاورة، فلم تكن العرب تفعل ذلك حينها، لكن كانت المدينة تقع بين جبلين، هما (حرة واقم) في الشرق، و(حرة الوبرة) في الغرب، وفي جنوبها توجد آطام وبيوت ونخيل، إضافة إلى حصون يهود بني قريظة في المدخل الجنوبي الشرقي للمدينة، فكانت بذلك المدينة محصنة من ثلاث جهات، وبقيت الجهة الشمالية مفتوحة، وهنا كانت فكرة الخندق ليسد المدخل الشمالي الذي يستطيع أن يدخل منه جيش المشركين إلى المدينة.

وبمجرد اتخاذ القرار بحفر الخندق، وتحديد مكان حفره، باشرت المدينة عملها، وصار الجميع يعمل في حفر الخندق، لأنهم كانوا يسابقون الزمن، فعدد المسلمين قليل،

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٣٨.

وعملية حفر خندق حربي بهذه الضخامة لم تكن مهمة سهلة، إضافة إلى وعورة التربة، وعدم احتراف المسلمين هذا النوع من التحصينات، وكان وصول جيش المشركين قبل اكتمال حفر الخندق، يساوي اجتياح المدينة، لأنه لم يكن لأحد بهم طاقة.

لذلك وصف **إميل درمنغم** هذا النشاط الوافر للمسلمين بقوله: «ما كان محمد ليرضى بمقاتلة عدو كثير العدد في ميدان مكشوف مع إمكان اعتماد العدو على مساعدة اليهود والمنافقين له سرا، فجعل محمدٌ المدينة في حالة دفاع، ووضع الأولاد والنساء في الأحياء المحصنة، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق واسع حول المدينة لشلّ صولة المهاجمين، وحَفْرُ الخنادق مما لم تعرفه جزيرة العرب، فأثار حفر ذلك الخندق العظيم الحيرة والعجب، ولسرعان ما أدرك محمد بعبقريته العسكرية قيمة أمر يكون خير ما تدافع به مدينة مؤلفة من أحياء منفصلٍ بعضها من بعض، وكان لا بد من استعانة محمد بنفوذه الكبير في حمل المسلمين على الرضا بهذا الطراز الغريب من الحرب، وعلى صُنع ما يرونه مُزريا من الحفر ونقل التراب، فجعل من نفسه قدوة»[1].

وقد جاء في كتب السيرة أن النبي ﷺ كان يشارك المسلمين في عملية الحفر، حتى كان التراب يغطي جلده ﷺ، كما كان يبادر إلى ما يستعصي على المسلمين من الحجارة والصخور الكبيرة، لأن الأرض لم تكن طينية أو رملية محضة، بل كان يغلب عليها الطبيعة الصخرية، وكان زاد المسلمين يومئذ قليل، فكان رسول الله ﷺ يربط على بطنه الحجر والحجرين من شدة الجوع، وبفضل التخطيط الجيد لعملية الحفر، والجهود العظيمة المتواصلة ليلا ونهارا، استطاع المسلمون بفضل الله إكمال عملية الحفر، وبناء التجهيزات الحربية على الخندق، قبل مجيئ جيش الأحزاب، وحين وصل المشركون، تفاجؤوا بهذه الحيلة الجديدة التي لم يكن لهم بها سابق معرفة.

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٦٦.

يصف إميل درمنغم هذا المشهد فيقول: «تقدم أبو سفيان وجنوده، فوقفوا حيارى مضطربين أمام الخندق، وأمام وابل من نبال المسلمين، ثم عسكروا وحاصرا المسلمين، وظل الفريقان متقابلين نحو شهر»[1].

أما **كلود إتيان سافاري** فيقول عن هذه اللحظات: «كان قائد المؤمنين راسخا وسط صخب شعب مذعور، يضرب لهم المثل الأعلى في الصبر والجلد، وكانت السكينة تضئ جبينه وهو يصدر أوامره في هدوء مدهش، وبعد أن أسلم زمام حكم المدينة إلى ابن أم مكتوم، خرج من المدينة على رأس ثلاثة آلاف مقاتل وزّعهم بين المتاريس والخندق، وقرر الانقضاض على الأعداء لحظة محاولتهم عبور الخندق، واتخذ موقفا حصينا للدفاع، وبذلت الأحزاب عدة محاولات لاقتحام الخندق ولكنهم رُدُّوا خاسرين»[2].

فكانت خطة النبي ﷺ، هي حفر الخندق الذي من شأنه أن يمنع اقتحام جيش الأحزاب للمدينة، وخلف هذا الخندق توجد كتائب جيش المسلمين، يسهرون على حماية الخندق، ويمنعون أي محاولة لعبور الخندق، سواء عبر ردم أجزاء منه، أو بناء جسور عليه، وبذلك لم يكن هناك صدام أو التحام مباشر بين الجيشين، إنما كان تراشقا بالنبال، والتحامات محدودة مع بعض المجموعات التي كانت تستطيع عبور الخندق من بعض المناطق هنا أو هناك، فكان يتصدى لهم رسول الله ومعه فرسان المسلمين، إلى جانب هذا الحال الذي كان يتطلب اليقظة الدائمة، والعمل الدؤوب الشاق من المسلمين، فقد كان الجو شديد البرودة، والزاد والمؤن قليلة محدودة.

يصف **ناصر الدين دينيه** هذه الحال فيقول: «حالهم كان يرثى لها، وكانوا يتحملون متاعب كثيرة، فقد هبت عليهم ريح باردة ثلجية، كتلك التي يكثر هبوبها شتاءً على تلك الوديان الصحراوية، ذات الإشعاعات الشديدة، فأوشكت أجسامهم أن تتجمد بردا،

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٢٦٨.

(٢) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٤٠.

وقطع الأعداء طرق المؤونة عنهم، فأصبح المؤمنون والجوع يعض فيهم ويوشك أن يشل قواهم، لولا إيمانهم الذي كان يبعث فيهم الدفء والقوة، وكان غداؤهم الوحيد حبات من الشعير المطبوخة في دهن الضأن الذي بدأ يفسد»[1].

وهذه الحال وصفها أيضا **إميل درمنغم**، فقال: «كان المسلمون يطوفون حول الخندق ليل نهار اجتنابا لمباغتتهم من إحدى النقاط، وكان العمل شاقًّا، وكان من المحتمل أن يصبح الموقف خطرا ما طال الحصار، وما عاهد بنو قريظة اليهود المشركين على المسلمين، فرأى محمد أن يلجأ إلى السياسة وأن يقضي على حلف المشركين بمفاوضته غطفان على انفراد، فعرض عليهم ثلث ثمار المدينة على أن يرجعوا عنه وعن أصحابه»[2].

وكان هذا شيئا يفعله النبي ﷺ لأصحابه، ليخفف عنهم وطأة الحصار والجوع والبرد والخوف، فرأى رسول ﷺ أن يفتت جمع هذا التحالف، فراسل قادة غطفان، وعرض عليهم مغادرة حصار المدينة على أن يعطيهم ثلث ثمارها هذا العام، ذلك لأن غطفان إنما جاؤوا لأجل المال الذي وعدهم به قادة يهود بني النضير، فقد وعدوهم بثمار خيبر لمدة عام، وكانت غطفان هي القوة الأكبر في جيش الأحزاب، إذ بلغ تعدادهم ستة آلاف مقاتل، فرأى النبي ﷺ أن يصرفهم عن المدينة، ثم يخرج بعد ذلك فيقاتل من بقي من جيش المشركين، وقبل أن يتم النبي ﷺ الاتفاق مع غطفان، استشار سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، وهم قادة الأنصار من الأوس والخزرج، فقالا له: يا رسول الله، أمرا تحبه فنصنعه، أم شيئا أمرك الله به، لا بد لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٣٥.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٢٦٩.

الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا - يعني يأخذونها ضيافة وإكراما أو يشترونها بالمال-، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا، (والله) ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا. فكان هذا الصمود العظيم من الأنصار مما جعل النبي ﷺ يطمئن إلى جبهته الداخلية.

ثم كان أن جاءت الضربة من ظهور المسلمين، وذلك بغدر يهود بني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين، ومواطئتهم لحلف المشركين، واتفاقهم معهم على استئصال شأفة المسلمين من المدينة، وعرف المسلمون أن اليهود قد غدروا، وأنهم اتفقوا مع المشركين على حرب المسلمين، ثم حدثت قصة نعيم بن مسعود المشهورة، والتي يضعفها أهل الحديث، ولكن يثبتها أهل السير، حيث أسلم نعيم بن مسعود الغطفاني في ذلك الوقت، ولم يعلم قومه بإسلامه، واستطاع أن يتسلل إلى النبي ويخبره بأمر إسلامه، وقال له النبي ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذّلْ عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة»، فذهب إلى قومه غطفان وإلى قريش، وكذلك ذهب إلى اليهود، وأدار بينهما المؤامرة التي خلخلت صفوف هذا التحالف، ودب الشك بينهم، وانعدمت الثقة بين قادتهم، ثم جاء النصر النهائي، بأن أرسل الله تبارك وتعالى على المشركين ريحا شديدة، قلعت خيامهم، وأكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، فصاروا لا يستطيعون الإقامة في المعسكر خارج المدينة، كما لا يستطيعون اقتحام المدينة لوجود الخندق، ورباط المسلمين ويقظتهم الدائمة عليه؛ فلم يكن أمامهم إلا الانسحاب مخذولين مهزومين، وهذا ما جاء في قول الله تبارك وتعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾[الأحزاب: ٩]، وبذلك انتهت

محنة الحصار، وغزوة الخندق على خير حال كان ينتظر أن تنتهي إليه.

في نهاية غزوة الخندق قال النبي ﷺ: «الآنَ نَغْزُوهُمْ ولَا يَغْزُونَنَا»[1]، وهذه أيضا قاعدة في التاريخ وفي السياسة وفي طبائع الدول، فالدول إما تتمدد وإما تنكمش، إما تكون في حالة تقدم أو في حالة تأخر، والدول التي تأمن من الاجتياح تكون قد بدأت مرحلة الصعود والتمدد والقوة، لذلك حينما انتهت أخطر مؤامرات المشركين لاستئصال المسلمين، وفشل هذا الجيش العرمرم في اجتياح المدينة، كان ذلك علامة انكسار أقوى موجة عدائية ضد المسلمين، وبدأت الدولة الإسلامية منذ ذلك الحين في التوسع والتمدد.

يقول **إميل درمنغم**: «وهكذا خُتِم أمرُ الخندق، وإن شئت فقل: غزوة الأحزاب، بغير قتال وبغير ضحايا تقريبا (قُتِل فيها ثلاثة من المشركين وستة من المسلمين)، مع ما كانت تُهدد به الإسلام بالفناء إلى الأبد، قال النبي بعد انصراف الأحزاب: الآن نغزوهم ولا يغزوننا»[2].

وهكذا انقلب أمر الخندق من التهديد بالفناء إلى التبشير بالتوسع والتمدد..

(١) صحيح البخاري، من حديث سليمان بن صرد.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٢٧٢.

الحديبية.. نقلة ضخمة

رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه سيذهب للعمرة، وأمرهم أن يتجهزوا للسفر، وخرج رسول الله ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه، يسوقون الهدي معهم، ولا يحملون إلا زاد المسافر، والسيوف في القرب.

ومن المعلوم أن قريشا كانت لها كامل السيادة على البيت الحرام، وهي التي كانت تتولى سائر شؤونه وشؤون الحجيج من أعمال الرفادة والسقاية وخدمة الحجيج وغيرها، فوضعَ خروجُ النبي وأصحابه للعمرة قريشا في موقف في غاية الصعوبة والحرج، فلو أنها سمحت لرسول الله وأصحابه بدخول مكة معتمرين، فإن ذلك يعد اعترافا منها بهزيمتها أمام رسول الله، فها هو ذا الرجل الذي كان يُعذَب فيها هو وأصحابه بالأمس، يدخلها اليوم في جمع غفير من أصحابه معتمرين، بعد أن صاروا قوة في الجزيرة العربية، ويستطيعون أن يعتمروا كما يعتمر بقية العرب، من ناحية أخرى، فإنها إن منعته عن بيت الله الحرام، وحالت بينه وبين العمرة، فإن هذا يعتبر عرفا غير مقبول لدى العرب، فإنه يظهر بيت الله الحرام وكأنه صار ملكا لقريش، تمنع منه من تشاء وتسمح به لمن تشاء، وهذا الحرج الشديد الذي وقعت فيه قريش هو ما انتهى أمره في النهاية إلى صلح

الحديبية؛ حيث توقيع اتفاق، حاولت به قريش أن تحفظ هيبتها ومكانتها، وأن تلعق أثر هزيمتها، على إثر تفوق النبي ﷺ وقوة دولته، وعلى أساس الاتفاق، منعت النبي من أن يعتمر عامه الذي خرج فيه، على أن يعتمر في العام الذي يليه، ولكن قبل الوصول إلى هذا الاتفاق كانت هناك مراحل من المفاوضات.

عبَّر الدبلوماسي الأديب الشاعر **ألفونسو دي لامارتين** عن تقييمه لصلح الحديبية بعبارة ذكية تدل على حضور عقله السياسي وهو يحلل هذا المشهد، يقول: «قرر محمد – بعد أن ظهر، هو نفسه أو بواسطة قواد جيشه، على جميع قبائل الحجاز- أن يعدّ العدة حتى تبلغ عقيدته مكة، وذلك بزيارة مظفرة إلى الكعبة، وقد تجلى بعد نظره في السياسة الدينية كأفضل ما يكون التجلي في تلك الخطة؛ فلو كان يريد أن يكون غازيا، لسار إلى الكعبة ودخلها دخول القائد الظافر، لا دخول صاحب دعوة دينية»[1].

يتحدث دي لامارتين هنا عن أن النبي سلك هذا المسلك السلمي في زيارة الكعبة، لكي تصل هذه الدعوة إلى قلوب أهل مكة، ولا يتجيش القرشيون ضده باعتباره جاء يريد الحرب، فمن وجهة نظره أن النبي ﷺ كان قادرا على أن يبدأ الحرب في هذه اللحظة، ولكن بداية الحرب كانت تشوه صورة النبي أمام قبائل العرب، وتظهره كرجل أراد أن يجتاح الكعبة، فلذلك سلك النبي مسلك أداء العمرة لكي يشهد الناس على ما تفعله قريش من صدها إياه عن بيت الله الحرام.

ويواصل **ألفونسو دي لامارتين** فيقول: «ولم يكن أهل قريش –وقد انهزموا أو تفرقوا– قادرين على الوقوف أمام ذاك الذي طردوه واعتنق نصف العرب مذهبه، ولكن محمدا، وإن كان بيده أن يطردهم وأن يقضي عليهم آثر أن يهاودهم، فقد أدرك –وهو على حق– أن من يقضي على مكة –وهي مدينة مقدسة– ومن يقوض الكعبة –وهي معبد ذرية

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٩٥.

إبراهيم جميعًا-، يمكن أن يكون المسيطر المستبد، ولكنه لن يكون ألبتة نبي العرب، كان ينبغي للأفكار والمبادئ التي كان محمد ينوي إقرارها في جزيرة العرب، أن تكون على صلة بما استقر في أعراف بني قومه، حتى يقبلوها ويأخذوا بها، فقد قَبِل من أعرافهم البيت، وطرد منها الوثن»[1].

وبسبب هذا الموقف الحرج الذي حُصرت فيه قريش، فقد صاروا يوفدون إلى رسول الله السفراء الذين يحاولون إرجاعه إلى المدينة دون أن يقدم عليهم عامه هذا، بهدف ألا يظهروا بمظهر العاجز المنهزم أمام رسول الله وصحبه، فأرسلوا له من يكلمه باللين، ثم أرسلوا من يهدده أيضا.

وتعامل النبي ﷺ مع هؤلاء السفراء بما يناسب ميولهم وأفكارهم؛ فحين نرى معاملة النبي ﷺ مع الحليس بن علقمة زعيم الأحابيش، قال عنه أنه من قوم يعظمون الهدي، وأمر أصحابه أن يطلقوا الهدي في وجهه، فلما رأى الحليس الهدي، علم أن رسول الله لم يقدم لحرب، وإنما قدم معتمرا، وبالتالي فلا يجوز منعه، فعاد إلى القرشيين وقد انقلب أمره عليهم، وقال لهم أنهم إذا منعوا محمدا من العمرة، فإن العرب ستنافر قريشا، ثم كيف يحج للبيت أبناء كلب ولخم وقضاعة، وغيرها من القبائل البعيدة، ثم يمنع عنه ابن عبد المطلب، الذي كان سيد مكة، إلا أن قريشا تركوا رأيه، ولم يسمعوا له.

ثم أرسلوا فيما بعد بُدَيْلًا بن ورقاء الخزاعي، وكان كلامه هادئا مع رسول الله.

ثم أرسلوا عروة بن مسعود الثقفي[2]، وقد كلم النبي ﷺ كلاما شديدا، وقال أنهم لم يروا رجلا قبله قد اجتاح قومه، وهدده بأن قريشا قد لبست جلود النمر -يعني استعدوا

---

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٩٥.

(٢) وهو من زعماء ثقيف أهل الطائف، وكان وسيما وقد وصفه النبي ﷺ بأنه شبيه عيسى بن مريم عليه السلام، وكان رجلا معظما، فهو أحد المقصودين بقول المشركين ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾[الزخرف: ٣١]، وقد أسلم فيما بعد، وسعى في دعوة قومه ثقيف إلا أنهم قتلوه فمات شهيدا رضي الله عنه.

للحرب-، وزعم أن أصحاب رسول الله سينفضون عنه إذا وقعت الحرب، إلا أن سيدنا أبا بكر الصديق رد عليه حينها ردا شديدا، وأغلظ له القول حتى يرتدع، ثم عاد عروة ابن مسعود الثقفي -هو رجل سفير وعسكري- وقد أظهر له النبي ﷺ شدة تماسك المسلمين، فعاد إلى المشركين يقول: «أي قوم والله لقد وفدت إلى الملوك، ووفدت إلى كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدا، والله إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ اقتتلوا على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها».

ومن جهته أرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان لكي يفاوض القرشيين، فأخروه عندهم، وأشيع أن عثمان قد قُتِلَ، فاجتمع أصحاب رسول الله وبايعوه على القتال والموت دونه ﷺ، وهي البيعة المشهورة التي سميت «بيعة الرضوان»، لأنه نزل فيها قول الله تعالى: ﴿*لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾[الفتح: ١٨]، وكانت هذه البيعة بيعة على الموت، بمعنى أن هؤلاء الرجال الذين جاءوا معتمرين، سيتحولون إلى محاربين ليأخذوا بثأر عثمان رضي الله عنه، الذي ظنوا أن المشركين قد قتلوه.

وحين سمع القرشيون بأنباء هذه البيعة سارعوا بإطلاق عثمان، وأرسلوا مفاوضهم سهيل بن عمرو، وهو رجل دبلوماسي، وكان خطيبا فصيحا مفوها، ومن المقدمين في قريش، فيمكن أن نعتبر أن عروة بن مسعود الثقفي يشبه أن يكون موفدا كوزير الدفاع أو وزير الحرب، أما مجيء سهيل بن عمرو، فيشبه أن يكون بمثابة وزير الخارجية، لذلك حين أبصره رسول الله قال: «هذا سهيل، قد سهل الله لكم أمركم».

يصور **إميل درمنغم** مشهد قدوم عروة بن مسعود الثقفي فيقول: «وأرادت قريش بإرسالها هذا الغريب، أن تظهر بمظهر غير المكترث، إن لم تكن قد أرادت الاستخفاف أو الإنكار عند الضرورة، وهذا إلى أن قريشا كانت تودُّ أن يدبّ التعب وروح الفوضى في

أصحاب محمد إذا ما طالت المفاوضات، بيد أن محمدا أبدى من الأناة والبراعة السياسية ما يورث العجب»[1].

كذلك يعلق **ألفونسو دي لامارتين** على قصة عروة ابن مسعود الثقفي فيقول: «وأخذت الدهشة المفاوضين القرشيين لما رأوا من آيات الاحترام والإجلال التي كان يبديها العرب –مسلمين كانوا أم كفارا– لابن جلدتهم الذي أخرجوه من بلدهم ورأوا فيه مجنونا يسب الآلهة»[2].

أما **كلود إتيان سافاري** فيتحدث عن حبس عثمان رضي الله عنه، وأثره على مسار المفاوضات فيقول: «لقد أدى تطرف قريش [امتناعهم عن السماح بالعمرة وحبسهم عثمان] إلى تماسك قوى محمد (بيعة الرضوان)، فعمل على الاستفادة من حَدَثٍ غيرِ مُوَاتٍ في ظاهره، وأخذ يَعُدَّ عُدّته كي ينتقم لإساءتها معاملة سفيره، ولكن قريشا تراجعت عن اندفاعها الأول، وفكرت في سوء تصرفها وفي آثاره السيئة، فأطلقوا سراح عثمان وأرسلوا سهيلا يطلب الصلح»[3].

وعن قدوم سهيل بن عمرو يطلب الصلح، يقول **إميل درمنغم**: «أرسلت قريشٌ السيد الخطيب، والسياسيَّ الماهر، سهيل بن عمرو، ليعرض على النبي الصلح، فوُزِنت كل كلمة من عقد الصلح، وأبدى النبيُّ من الحذق ما داور به سهيلا الذي كان يظن أنه يدير المفاوضات»[4].

وانتهى الأمر إلى الاتفاق المعروف، وفيه:

١. أن يرجع النبي ﷺ عن مكة هذا العام ويعتمر العام القادم

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٣٤.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص٩٦.

(٣) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٥٦.

(٤) درمنغم، حياة محمد، ص٣٣٦.

٢. وأنه من جاء من المشركين مسلما إلى محمد فإنه يرده، ولا يقبله إلا بإذن أهله، ولكن من ارتد من المسلمين إلى قريش فإن قريشا لا ترده، (وهذا هو البند الذي دارت عليه المفاوضات، وغضب منه الصحابة رضي الله عنهم، لأنه بدا لهم أن فيه إجحافا في حق المسلمين، إذ كيف يأتي الرجل مسلما ثم نرده إليهم، وفي نفس الوقت من يرتد من المسلمين إلى قريش، فلا يردونه إلى المسلمين، لكن رسول الله أعلم الصحابة أنه إنما فعل ذلك عن وحي من السماء، وأن الله عز وجل سيجعل للمسلمين المستضعفين في مكة فرجا ومخرجا)

٣. وأما البند الثالث المهم هو إمكانية عقد الأحلاف، فدخلت بنو بكر في حلف قريش، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ.

يقول هنري ماسيه: «إذن، فقد خضع في الظاهر لخصومه، ولكنه في الحقيقة تفاوض معهم مفاوضة الند للند، وهو نجاح دبلوماسي كبير رغم خيبة أمل المسلمين الذين عادوا إلى المدينة دون أن يزوروا الكعبة»[١].

ويقول **إميل درمنغم**: «وتُعَدّ هذه المعاملة، مع ذلك، فتحا مبينا لمحمد الذي استطاع بها أن يفاوض البلد الذي أخرجه مفاوضة النظير للنظير، وأبصر محمد أن الثمرة أينعت، ورأى ألا يتعجل في اقتطافها، ولم يُدرك أصحابه ما في اعتداله من حذق»[٢].

ويقول **كلود كاهن** عن هذه المفاوضات، وما حققه النبي ﷺ فيها: «مع الوقت، ومن دون أن تلحق بالقرشيين هزيمة ساحقة، أدرك هؤلاء أن قوة جديدة قد وُلِدت، وأنه لا بد من التفاوض معها إن كانوا يريدون لتجارتهم ألا تصاب بخراب شامل، فأتاحت الهدنة التي نجمت عن ذلك، لمحمد أن يجمع حوله عددا متزايدا من القبائل الحليفة وأن يضم

(١) ماسيه، الإسلام، ص٥١، ٥٢.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٣٣٧.

إليه بعض الواحات، كواحة خيبر مثلا في الشمال وواحة نجران في الجنوب»[1].

كان صلح الحديبية كما سماه القرآن الكريم فتحا مبينا، وسورة الفتح التي مطلعها ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] نزلت بعد الحديبية، ولكن كيف يكون فتحا، والنبي لم يدخل مكة معتمرا، ولا قاتل المشركين وانتصر عليهم ودخل مكة فاتحا؟

في الحقيقة، فإن الفتح في هذا الصلح إنما كان الاعتراف السياسي بالدولة الإسلامية، ويشبه هذا بالمصطلحات المعاصرة (الاعتراف في الأمم المتحدة)، يعني اعتراف العالم بوجود هذه الدولة المستقلة ذات السيادة، ولقد استفادت الدعوة استفادة عظيمة من هذا الصلح، وبنوده المتعددة، ومنها هذا الاعتراف الذي وفرته هذه الاتفاقية، فأسلم في عامين إثنين بعد الحديبية مباشرة عددا مماثلا للذين أسلموا طوال تاريخ الدعوة منذ بدايتها، وكان هذا التوسع الدعوي من النتائج المباشرة لهذا الصلح، بعد أن وُضعت الحرب عشر سنين -هدنة- بين النبي ﷺ وقريش، وحصل نوع اعتراف إقليمي -إن صح التعبير- بالدولة الإسلامية، ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، فأمن الناس، وسهلت حركة الدعوة، وتجرأ من كان له مصالح مع قريش تمنعه من الاستماع لرسالة الإسلام، فأقبل الناس على الإسلام، ودخلوا في دين الله أفواجا.

لكن بقي هذا البند الذي أثار نفوس الصحابة رضي الله عنهم، والمتعلق برد من جاءهم مسلما وتسليمه إلى قريش مرة أخرى، في حين أن المشركين غير ملزمين برد من رجع إليهم من المسلمين كافرا، إلا أن رسول الله قال لمن راجعه من الصحابة في ذلك: «إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري»، وهذا مما يدل على أن هذا البند كان فيه نوع من الوحي.

سيظهر أثر هذا البند حين يأتي رجل من مكة اسمه أبو بصير مسلما إلى المدينة،

(١) كلود كاهن، الإسلام، ص٣٥.

فأرسل قومه في إثره رجلين يطلبونه من النبي ﷺ وفقا لبنود المعاهدة، فرده رسول الله معهم، إلا أن أبا بصير استطاع أن يهرب منهم في طريق العودة إلى مكة، ثم انحاز إلى سيف البحر في الطريق بين مكة والمدينة، ثم لحق به من كان مستضعفا من المسلمين في مكة مثل أبي جندل بن سهيل بن عمرو، حتى اجتمع منهم عصابة – يشبه ما نسميها الآن ميليشيا مسلحة– على ساحل البحر، وهو طريق قوافل قريش إلى الشام، فصار لا تمر قافلة لقريش إلا هجموا عليها، فقتلوا من فيها وغنموا القافلة، وهم في ذلك خارج سلطة المدينة النبوية، ولا يخضعون لبنود المعاهدة، فلا يستطيع القرشيون أن يلوموا رسول الله على فعلهم، أو يتهموه بنقض الاتفاق، فلذلك سعى القرشيون أنفسهم إلى حذف هذا البند من المعاهدة، ورجوا رسول الله أن يستقبل أبا بصير ومن معه من الرجال في المدينة، ومن لحق بالمسلمين بعد ذلك فهو آمن.

يقول **ناصر الدين دينيه**: «كان هؤلاء الرجال يضارعون أبا بصير في جرأته وشجاعته، فأقاموا بهذا البلد الذي تكسوه الشجيرات الكثيرة، والذي يسهل فيه نصب المكائد الحربية، وكانوا ينهبون كل قافلة تجرؤ على المخاطرة فيه، وقد اجتذبوا إليهم، بنجاحهم في هذا الأمر، وبمغانمهم الكثيرة رجالا من عرب غفار وأسلم وجهينة، أسلموا وانتظموا معهم، فكوّنوا جيشا صغيرا للمؤمنين في هذه المنطقة، بلغ عدده ثلاثمائة مغير، وفهم المؤمنون عندئذ هدوء الرسول واستبشاره ساعة قبول ذلك البند من العقد الذي ينص على رد اللاجئين، والذي ظنه الناس في أول الأمر ضارا بالمسلمين»[1].

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٤٩، ٢٥٠.

يقصد دينيه هنا ما أشرنا إليه آنفا من تشكيل كتيبة من الرجال الذين أسلموا وخرجوا من قريش ولم يستطيعوا أن يذهبوا للنبي ﷺ، لأن العهد يقضي بأن يردهم المسلمون إلى قريش، فهؤلاء الرجال الشجعان انضموا إلى أبي بصير وكونوا هذه الميليشيا.

يواصل **دينيه** وهو يتحدث عن نتائج صلح الحديبية وما أدى إليه من مكاسب للدولة الإسلامية فيقول: «وهكذا بدت رحلة الحديبية أول الأمر غير ذات نتائج كبيرة، ثم إذا هي في حقيقتها عظيمة الشأن، ولقد خصّها القرآن بمقام يوازي تقريبا مقام بدر، وأعظم نتائج رحلة الحديبية هي أن المهاجرين والأنصار لم يترددوا في مبايعة الرسول عندما ظن أن الحرم سيُهاجم»[1].

وهنا يقصد دينيه بيعة الرضوان، حيث لم يتردد المهاجرون والأنصار في مبايعة النبي ﷺ على الموت عندما أشيع مقتل عثمان.

وفي العام التالي أدى النبي ﷺ عمرة القضاء، وكانت هذه أول عمرة يعتمرها، واعتمر معه المسلمون، وكان أول مشهد للمسلمين وهم يطوفون بالكعبة، يسجله **كلود إتيان سافاري** فيقول: «وقصد الكعبة، وقبّل الحجر الأسود في خشوع، وطاف بالبيت العتيق، وزار الصفا وتل المروة، وأذّن للصلاة في مقام إبراهيم، ومكث ثلاثة أيام يؤدي مناسك الحج [الصحيح: العمرة] التي فرضها الدين وبعد أن ذبح الهدي، ذهب يعسكر على بعد ستة أميال من مكة، وكانت مكة خالية فقد انسحب غالبية السكان إلى الجبال المجاورة، وكان يستطيع الاستيلاء عليها، ولكن الإخلاء بميثاق تعاهد عليه علانية يؤدي إلى القضاء على قوته من أساسها، إن طموحه الذي كانت

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٥٠.

تنظمه السياسة لم يكن يعميه، ولم يُمسك عليه أعداؤه فرصة واحدة أخلّ فيها بأي اتفاق»[1].

ويعلق **ناصر الدين دينيه** على عمر القضاء قائلا: «فكان لعمرة القضاء صدى عظيم، إذ جرَّت، فورا، كثيرا من ذوي النفوذ إلى الإسلام، ومن أولئك ثلاثة أبطال هم: عثمان بن طلحة، وعمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ثم إنها هيأت العرب الآخرين للإسلام، وشجعتهم على تقليد هؤلاء الثلاثة الكبار»[2].

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٧٠، ١٧١.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٦٥.

الفتح الأعظم

بعد فراغ النبي ﷺ من جبهة الصراع الداخلية مع قريش وسائر القبائل العربية، بدأ ﷺ في التمدد عالميا، فبدأ بإرسال الرسائل إلى الملوك والأمراء في الدول والامبراطوريات المجاورة، فأرسل النبي إلى كافة الملوك في الدول المحيطة بالجزيرة العربية، فأرسل إلى اليمن وكان في ذلك الوقت تابعا لفارس، وأرسل إلى عمان والبحرين، أما خارج الجزيرة العربية، فقد أرسل إلى مصر، والحبشة، وكسرى في فارس، وقيصر الروم، وكانت هذه الرسائل نقطة تحول في مسار الدعوة الإسلامية، لتخرج الدعوة من محيط العرب، ومحيط الجزيرة العربية إلى الآفاق العالمية، لأن الإسلام رسالة الله للعالمين، ورسول الله خاتم المرسلين، وقد أرسله الله بدعوة الإسلام للناس كافة.

وقد تباينت ردود فعل الملوك والأمراء على رسالة النبي ﷺ، فمنهم من رد ردا حسنا، ومنهم من أرسل الهدايا، ولكن منهم من أساء في الرد كذلك، إلا أن رسولا واحدا من رسل النبي ﷺ وهو الحارث بن عمير الأزدي قد قُتل، إذ قتله أمير غسان، والغساسنة – كما ذكرنا قبل ذلك– هم قبائل عربية سكنت شمال الجزية العربية وجنوب بلاد الشام، وكانت تلك البلاد خاضعة لقيصر الروم، وكان ملوك الغساسنة هم عمال قيصر على ما تحت أيديهم من البلاد، وعلى الرغم أن هرقل نفسه قد علم أن رسالة الإسلام حق، وأن رسول الله هو خاتم الأنبياء الذي يجدونه في كتبهم، إلا أنه ضن بملكه، ولكنه احترم رسالة

رسول الله، وعامل رسول رسول الله معاملة حسنة، إلا أن الغساني الذي هو عامل هرقل، ودونه في المرتبة، قد استكبر وطغى وقتل رسول رسول الله، وهذا ليس بمستغرب، فكثيرا ما يكون التابع أو العميل أو الصنيعة أشد من سيده نفسه!

كان الحارث بن عمير هو الرسول الوحيد الذي قتل في حياة النبي ﷺ، فعزم النبي على حرب ملك غسان، وجهز جيشا لذلك قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وهو أكبر جيش خرج من المدينة في تاريخ الدعوة الإسلامية حتى ذلك الحين، لذلك فقد سميت هذه السرية غزوة مؤتة، على الرغم من عدم خروج النبي فيها بنفسه، ولما علم الغساسنة بخروج جيش المسلمين، جمعوا جيشا عرمرما قوامه مائة ألف من عرب شمال الجزيرة العربية، واستمدوا الروم فأمدوهم بمائة ألف من الجنود الرومان، وبذلك اجتمع لشرحبيل بن عمرو الغساني جيشا قوامه مائتي ألف مقاتل، وكان هذا أكبر اختلال في موازين القوى العسكرية يحدث في تاريخ الدعوة الإسلامية.

ولأن هذا أول خروج لجيش إسلامي خارج الجزيرة العرة لحرب الروم وحلفائهم، فقد سمى النبي ﷺ ثلاثة من القادة العسكريين على رأس هذا الجيش، القائد الأول سيدنا زيد بن حارثة – رضي الله عنه – قال فإن أصيب فجعفر بن أبي طالب –وكان للتو قد عاد من الهجرة إلى الحبشة، حيث كان هو زعيم المهاجرين إلى الحبشة، ثم عاد في أول السنة السابعة إلى المدينة–، قال فإن أصيب فعبد الله ابن رواحة، فإن أصيب فليولي المسلمون من اختاروه منهم، وكان هذا أول جيش يخرج فيه خالد بن الوليد بعد إسلامه.

لما وصل المسلمون إلى أرض العدو، علموا بضخامة الحشد الذي جمعه الروم لحربهم، فتشاوروا في الأمر، هل يرجعون إلى المدينة، أم يرسلون إلى رسول الله ليعلموه بالأمر، ويطلبون منه مددا عسكريا، إلا أن سيدنا عبد الله ابن رواحة –وهو القائد الثالث لهذه المعركة– قال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون –يعني الموت– للتي خرجتم تطلبون –يعني الشهادة في سبيل الله–، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وإنما نقاتلهم بهذا

الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة»، فتحمس الصحابة للقتال، وقرروا البقاء وخوض المعركة ضد جيش الروم، فكانت معركة في غاية القوة، استمرت حوالي سبعة أيام، واستطاع المسلمون في نهايتها أن ينسحبوا بأقل الخسائر، وبطبيعة الحال، فقد كان خبر هذه المعركة أمرا مدويا في الجزيرة العربية، حيث ثلاثة آلاف من العرب يتجرؤون على قتال مئتي ألف، نصفهم من الروم!!.

لن نتوقف كثيرا عند تفاصيل هذه المعركة، ويمكن أن يُرجَع في ذلك إلى الكتب المفصلة، ولكن سننتقل للحديث عن تعليقات بعض المستشرقين الفرنسيين عن المعركة، وفي الحقيقة، فإن عامة المستشرقين يهتمون بملاحظة هذه البدايات الأولى لاصطدام الدولة الإسلامية بالإمبراطوريات القائمة في ذلك الوقت، ومنها امبراطورية الروم.

نبدأ مع **كلود إتيان سافاري** وهو يتوقف عند مسألة إقبال الجيش المسلم على الاصطدام بالروم، فيقول: «وتغلب هذا الشعور (حماسة عبد الله بن رواحة) على الموقف، وغدا المؤمنون يكونون بنيانا يتألف من ثلاثة آلاف رجل شديد المراس في القتال، أمضوا سبع سنوات من الانتصارات قد رفعت معنوياتهم وأصبحوا لا يُقهرون، ولكثرة ما قهروا أعداءهم فلم يُخفهم مائة ألف رجل، واندفعوا في المعركة التي كانت طويلة ودامية»[1].

ويصف ما حصل في هذه المعركة فيقول: «وسقط زيد وهو يقاتل في الصفوف الأولى بعد أن أثخنته الجراح، فحمل جعفر الراية وأخذ يدافع عن مجد المسلمين، فقطع جندي يده التي يحمل بها الراية فحملها بيده الأخرى، فلما قطعت حملها بعضديه حتى اللحظة التي سقط فيها فوق الراية، فحمل عبد الله الراية الملطخة بالدماء، وأبلى بلاء حسنا في صد

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٧٣.

الأعداء عنها، حتى سقط تحت ضربات العدو كما سقط القائدان السابقان، وأخذ المسلمون يولون الأدبار، فأسرع خالد وحمل لواء الإسلام ونادى من حوله من المقاتلين الشجعان، واستؤنف القتال بعنف شديد، وبذل خالد جهدا أخيرا فاخترق كتائب الأعداء وشق قلب جيشهم وأجبرهم على الفرار، ولم يحل بينه وبين النصر سوى الليل، وبعد أن انتخب قائدا بالإجماع، عسكر في ساحة القتال، وقبل الشروق كان جيشه يحمل السلاح ويتقدم في نظام، وعندما أصبح على مرمى بصر العدو لجأ إلى الخدعة والمناورة الحربية، فوسع صفوفه وأجرى فيها تقدما وتأخرا، وبحيل عظيمة استطاع أن يوهم العدو المذهول أنه يقود جيشا ذا عدد وفير»[1].

في الحقيقة، فإن خطة سيدنا خالد بن الوليد في إتمام هذا الانسحاب بأقل قدر من الخسائر هي أحد عبقرياته العسكرية التي لا تزال تثير الدهشة، وكيف استطاع أن يصمد رضي الله عنه بهذا الجيش الصغير -٣ ألاف مقاتل- في مقابل مائتي ألف، وكيف استخدم جغرافيا المنطقة بمهارة فائقة، ثم كانت مناوراته المذهلة لإيهام العدو بأن جيش المسلمين قد أتاه مدد، وأن المدد لا يزال يتتابع قادما من المدينة، وذلك حتى يستطيع ان يتراجع بجيشه في أمان، دون أن يجرأ الجيش الرومي على تتبعه في قلب الصحراء، مخافة الوقوع في الكمائن أو أن تكون هذه مناورة عسكرية من الجيش المسلم، ثم عاد رضي الله عنه بالجيش سالما إلى المدينة المنورة، وهذه الحادثة هي التي سماه فيها رسول الله ﷺ (سيف الله المسلول).

وبالعودة إلى الوضع الداخلي في الجزيرة العربية، فقد حدث أن قبيلة بكر، الذين دخلوا في حلف قريش وعهدها في الحديبية، هاجمت قبيلة خزاعة الذين كانوا قد دخلوا في حلف رسول الله وعهده، وقد أمدهم بعض القرشيين في هجومهم هذا بالسلاح والعتاد، وبذلك تكون قريش قد نقضت عهدها مع رسول الله، وحصل بذلك خرق للهدنة، ونقض

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٧٣، ١٧٤.

لصلح الحديبية، فتجهز رسول الله ﷺ للحرب، وأمر أصحابه بالتجهز دون أن يعلمهم بوجهته، لأنه أراد أن يبقي الأمر سرا عن قريش، لكي يستطيع أن يدخل مكة بدون صدام عسكري شامل مع قريش، وبأقل قدر ممكن من الخسائر.

وكان أبو سفيان زعيم مكة قد جاء إلى المدينة النبوية، وحاول أن يجدد العهد مرة أخرى بعد أن نقضته قريش وحلفاؤها من قبيلة بكر، إلا أن رسول الله لم يكلمه، بسبب نكثهم للعهد، ورفض تمديد الهدنة.

يقول **ناصر الدين دينيه** في تحليل هذا الموقف: «كان قدوم أبي سفيان إلى المدينة عاملا من العوامل التي حثّت الرسول على المبادرة بغزوة مكة؛ إذ كشف عن نواياه، فلم يشغله بعد ذلك من شاغل سوى تجهيز حملة لمباغتة مكة قبل أن يحصنها أهلها».

وهنا نرى أهمية الاستعداد المستمر، واليقظة الدائمة، وهذه أحوال سياسة الدول الناجحة، فحتى مع وجود الاتفاقيات والمعاهدات، إلا أن الدولة التي لا تتوقف عن الإعداد، وتأخذ بأسباب القوة دائما، هي التي تفوز في نهاية الأمر، وليس بالضرورة أن تنقض هي الاتفاقيات، ولكنها تكون على أهبة الاستعداد متى ما نكث خصومها بالعهود، أو تجاوزوا معها الحدود، فالنبي ﷺ لم يرض من أبي سفيان بتجديد المعاهدة بعد ما فعلته قريش من خرقها للهدنة، وقتلهم لحلفاء النبي ﷺ من بني خزاعة.

جهز النبي ﷺ جيشه، وكان في ذلك الوقت قد بلغ ١٠ آلاف مقاتل، وهذا كان أكبر جيش تعرفه العرب لقوة عربية مستقلة، وهكذا تغير المشهد تماما، وصارت يد النبي ﷺ هي اليد الطولى، فبعد أن كان مستضعفا سنين عددا في مكة، وبعد أن حوصر في المدينة من جيش الأحزاب، ها هو الآن يجهز جيشا لم تعرف العرب مثيلا له من قبل في حروبها الداخلية.

يقول **كلود إتيان سافاري**: «أصبح نفس القائد –الذي لم يكن في وسعه أن يجمع يوم

بدر سوى ثلاثمائة وثلاثة عشر جنديا، يقود عشرة آلاف مقاتل تحت راية الإسلام»[1].

وخرج النبي ﷺ بجيشه من المدينة متوجها لفتح مكة، واستطاع أن يحافظ على سرية هذه الخروج حتى وصل إلى تخوم مكة، وتفاجأت قريش بجيش النبي الكبير وهو على أبواب مكة، وساعتها حصل ما يمكن أن نسميه الصدمة المعنوية، أو الرعب والروع.

كان أول معرفة لقريش بخبر الجيش أن أبا سفيان قد خرج في ليلة من الليالي يستقصي الأحوال والأخبار حول مكة، فإذا به يجد نارا عظيمة -هذا يدل على جيش كبير-، وكان معه في تلك الليلة بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، فتساءلوا فيما بينهم لمن يكون هذا الجمع الضخم، فقال بديل لأبي سفيان: ما أراها إلا خزاعة قد حمشتها الحرب -يعني خزاعة تريد أن تثأر-، فقال أبو سفيان أن خزاعة أذلّ وأقلّ من أن تكون هذه نيرانها.

في تلك الأثناء كان العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ قد خرج مهاجرا بأهله إلى المدينة والتقى رسول الله في بعض الطريق، ثم قفل عائدا معه إلى مكة، وقد كان رضي الله عنه قد ظل موجودا في مكة مع إسلامه، وكان ينقل الأخبار للنبي ﷺ، وإن كان بعض الأقوال تقول أنه لم يسلم إلا في ذلك الحين، لكن على كل حال، سواء كان مسلما من قبل، أو كان قد أسلم لتوه، فإنه كان قد خرج مهاجرا في تلك الأثناء، ثم إنه قد خرج في ليلة على بغلة رسول الله يلتمس أحدا من أهل مكة ليرسله إليهم حتى يأتوا فيطلبوا الأمان من رسول الله ﷺ، فقُدِرَ له أن يسمع صوت أبي سفيان أثناء حديثه مع صاحبيه، فأقبل عليهم، وأعلمهم أن هذه ليست نار خزاعة، وإنما هو جيش رسول الله ﷺ قد جاء لفتح مكة، ثم خوَّفَ أبا سفيان من مغبة إصراره على الكفر، ونصحه أن يأتي معه إلى رسول الله، فيسلم بين يديه ويأمن على نفسه وأهله.

وبالفعل، فقد ركب أبو سفيان مع العباس على بغلة رسول الله، وذهبا إلى خيمة النبي

(١) سافاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص١٨١.

ﷺ، وبينما هم في طريقهم إلى خيمة رسول الله، رأى سيدنا عمر أبا سفيان، فقال: «أي عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير حرب ولا عقد»، ثم أسرع يريد أن يستأذن رسول الله في قتل أبي سفيان قبل أن يأخذ له العباس الأمان، لكن البغلة التي كان يركبها العباس كانت أسرع من سيدنا عمر، فوصلا إلى خيمة رسول الله قبل أن يصل إليها عمر رضي الله عنه، فأمر رسول الله ﷺ العباس أن يذهب بأبي سفيان إلى رحله، فإذا أصبح فليرجع لرسول الله به.

فلما أصبح غدا العباس به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله؟

قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي ما أكرمك وأحلمك وأوصلك، لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئا (يعني لو كانت آلهة حقا لكانت نفعت)

قال رسول الله: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، هذه والله كان في النفس منها شيء حتى الآن

قال العباس: ويحك يا أبا سفيان! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن يضرب عنقك.

فكأن هذه العبارة أزالت ما بقي من رواسب في نفس أبي سفيان، فشهد شهادة الحق وأسلم.

أراد النبي ﷺ أن يكون أبو سفيان هو من يلقي هذه الصدمة والرعب في نفوس أهل مكة، حتى لا يقاتلوا رسول الله، ويدخل رسول الله مكة بغير قتال، وقال العباس لرسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فأراد رسول الله أن يكرمه، فأعلمه النبي ﷺ بقرار هو بمصطلحنا المعاصر الآن، أشبه بحظر التجول، حيث قال له النبي ﷺ أن من دخل داره فهو آمن، من دخل البيت الحرام فهو آمن، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

ثم أمر رسولُ الله العباسَ أن يجعل أبا سفيان في موقع حيث يرى كتائب الجيش الإسلامي وهي تمر في طريقها إلى مكة -أشبه باستعراض قوة عسكري-، وبالفعل عُرض الجيش أمام أبي سفيان، فذهل منه وقال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما، ثم ذهب أبو سفيان إلى مكة وهو يحمل هذه الروح، ودعا أهل مكة إلى الاستسلام لرسول الله وعدم المقاومة، إذ لا طاقة لهم بجيش رسول الله.

يقول **إميل درمنغم**: «دُهش أبو سفيان من هذا الحلم الذي لم يكن لينتظره، وأبصر ما يقتضيه الحال فنطق بالشهادتين وعاد لا يفكر في غير نيْل أصلح الشروط لوطنه مكة، فأعلن النبي أن كلَّ من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثم أراد النبي أن يبهر أبا سفيان فعلاً، فأمر بأن تَمُرَّ به جنود الله فيراها، فمرت به القبائل مع رايتها، فمرَّ النبيُّ في كتيبته الخضراء، فقال أبو سفيان للعباس حين رآها: ما لأحد بهؤلاء طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداةَ عظيما»[1].

ودخل النبي ﷺ إلى مكة فاتحا منتصرا، وكان هذا اليوم هو الفتح الأعظم، واليوم الكبير في تاريخ الإسلام، اليوم الذي كان بذرة انهيار الوثنية في كل الجزيرة العربية، ولذلك كان هناك نوع من التربص والترقب لما سيفعله النبي ﷺ في هؤلاء الذين طردوه وآذوه وسخروا منه وعذبوا أتباعه، ثم حاولوا قتله، حتى اضطر أن يهاجر بدينه من بلده، ثم هم حاربوه وحاصروه، ثم عاهدوه فنقضوا عهدهم معه، فما الذي كان يتوقع من النبي ﷺ؟

هذه لحظة توقف عندها أغلب كتاب السيرة، فيقول **إميل درمنغم**: «طلعت الشمس، وكان للإنسانية أن تتيه فخرا بذلك اليوم الأغرّ، فقد دخل النبي مسقط رأسه راكبا ناقته القصواء»[2].

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٥٠.

(٢) درمنغم، حياة محمد، ص٣٥١.

أما **ناصر الدين دينيه** فيقول: «توجه أهل مكة في اليوم التالي إلى الصفا، حيث دعاهم الرسول ليأخذ عليهم العهد والميثاق، ولم تكن تبدو عليهم أمارات الخزي التي تبدو عادة على المنهزمين، فقد اطمأنوا إلى المنتصر حينما سمعوا حديثه وشاهدوا أفعاله، ألم يكن قاهرهم من بني جلدتهم؟ ألم يكن مجده مجدا لهم، وانتصاره انتصارا لهم، وسلطانه سيصبح سلطانا لهم؟ وكان أكثرهم في الحقيقة، رغم عداوتهم لمحمد، يتألم لفراق ذلك المواطن العبقري الذي لُقّب في شبابه بالأمين، وكان الناس يحنون لذكر شخصيته ذات السحر الغريب وجاذبيته التي لا تُقاوَم»[1].

كذلك توقف جوستاف لوبون عند لحظة عفو النبي ﷺ على أهل مكة فيقول: «عامل محمد قريشا -الذين ظلوا أعداء أشداء له عشرين سنة- بلطف وحلم، وأنقذهم من سَوْرة أصحابه بمشقة، مكتفيا بمسح صور الكعبة وتطهيرها من الأصنام الـ ٣٦٠، التي أمر بكبها على وجوهها وظهورها، وبجعل الكعبة معبدا إسلاميا، وما انفك هذا المعبد يكون بيت الإسلام»[2].

وهذا الانقلاب في موازين القوى يرصده المؤرخ الفرنسي **فرناند بروديل** في كتابه «تاريخ وقواعد الحضارات»، فيقول: «كان آخر الأمر أن مَكَّنَتْ حروب العشر سنوات تلك محمدا من دخول مكة سيدا فاتحا، ولكن تصرفاته مع أهلها -رغم ما لاقاه من صعاب هائلة- اتسمت بكثير من التسامح، وبسلوك متفرد في اتخاذ القرار الحاسم والعمل بحكمة»[3].

وهي في الحقيقة ست سنوات وليست عشرة، لأن النبي ﷺ دخل مكة في العام الثامن من الهجرة، وأول معركة في الصراع الحربي كانت في السنة الثانية من الهجرة،

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٢٧٧.

(٢) جوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٠٨.

(٣) بروديل، تاريخ وقواعد الحضارات، ص٤٨.

التي هي غزوة بدر، وبذلك تكون ست سنوات من الصراع الحربي مع قريش، ولكن من الطبيعي أن تحدث مثل هذه الأخطاء من الباحثين والمؤرخين.

نعود إلى **إميل درمنغم** وهو يقول: «كان حبّ العفو آخذا من نفس النبي الغالب كل مأخذ، فقد قرَّت عين النبي بفتح مسقط رأسه، فصار لا يُفكّر في غير تألُّف القلوب بالإحسان كما أمره القرآن، وكان النبي من الفطنة ما علم به بُعْدُ سياسة الانتقام من الصواب»[1].

بقي لنا في فتح مكة أن نعلق على مشهد، نستطيع أن نقول أنه أقرب إلى العاطفية، ولا يلتقطه إلا من كانت له نفس رومانسية، فلذلك توقف عنده الأديب والشاعر الفرنسي ألفونسو دي لامارتين، وهذا المشهد هو زيارة النبي ﷺ لقبر أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها.

يصف **ألفونسو دي لامارتين** هذا المشهد قائلا: «وبعد تلك الأعمال الدالة على سيادته وسلطانه، ذهب يترحم على قبر زوجته الأولى، الفاضلة خديجة، وظل طويلا أمام القبر في خشوع، لم يجرؤ أحد على سؤاله عن سببه ولا على أن يقطعه عنه، ولم يكن أحد قادرا على أن يدرك مدى ما كان يجيش بصدره من هواجس وذكريات وفرح وترح، وقد عبر المحنة طويلا، وانتصر آخر الأمر. وكان يرى عندئذ أنه أنجز العمل الذي أوكل إليه. فجاء يضعه كإكليل زهر على قبر تلك التي كانت أول من آمن به، في زمنٍ كَفَر الناس جميعا به وأنكروه، وكانت أول أتباعه، وكانت أول من أفضى إليه بما يعتزم الاضطلاع به من أمر عظيم، لقد سلبه موت خديجة أعذب ما في النصر بالفتح من متعة، متعة أن تحسّ بالظفر الزوجة التي قاسمته –طوعا– ما لقي

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٥٥.

من اضطهاد وازدراء، غير أنه اكتفى بأن رتل على قبرها آيات من القرآن صلاة على تلك المرأة المؤمنة»[1].

بفتح مكة، تكون قد دخلت عاصمة العرب الأولى في الإسلام، وكان ذلك إيذانا ومقدمة لدخول الجزيرة العربية كلها في الإسلام، وهو ما حصل بالفعل في العام التالي الذي سمي عام الوفود.

(١) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٠٤.

عام الوفود.. وأخيرا صار للعرب قائد

كانت مكة عاصمة العرب، بمعنى أنها كانت المدينة التي يتوجه إليها الناس، والمدينة التي احتوت الكعبة التي يعظمها العرب، ويحجون إليها، وكانت قريش هي القبيلة التي لها السيادة على البيت الحرام، وكانت هي أعظم قبائل العرب مكانة، ونفوذا اقتصاديا وروحيا، وحينما قصد أبرهة الحبشي الكعبة بالهدم، سلط الله عليه وعلى جيشه الطير الأبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فأهلكهم جميعا، وجعلهم كالعصف المأكول في القصة المشهورة، والتي جاء ذكرها في سورة الفيل.

لذلك كان العرب يؤمنون بأن الله لا يسلط على مكة شيئا يكرهه، لذلك فقد كانوا في مجملهم ينتظرون نتائج هذه المعركة التي اشتعلت بين المكيين -إذا نظرنا للأمر بنظرة قبلية بحتة-، فهذا محمد من نسل عبد المطلب، ومن نسل هاشم، وفي الصدر من قريش، جاء بدين جديد، يدعوا فيه إلى عبادة الله، وتجديد دين إبراهيم، فعاداه قومه المكيون، وضيقوا عليه، وعذبوا أتباعه، حتى اضطروهم للهجرة من بلدهم مكة، ثم اشتعلت بينه وبين أهله المكيين هذه المعارك والحروب، فكان العرب متربصين، ينتظرون ما ستسفر عنه هذه المعركة، وإلام سيؤول هذا الصراع.

فلما فتح سيدنا محمد مكة، وصارت الكعبة تحت سيطرته ونفوذه، ولم تأت الطير

الأبابيل بحجارة من سجيل، ولم يقع عليه وعلى أتباعه أي نوع من العقاب الإلهي، أو الهلاك الجماعي، أيقنت العرب أن دين محمد هو الحق الذي يرتضيه رب البيت الحرام، وهذه من وجهة نظر اعتقادية.

إضافة إلى ذلك، فإن الانتصار والسيطرة على العاصمة بشكل عام، يعني خضوع أهل العاصمة وسادتها وقادتها -في الغالب- إلى المنتصر والسيد الجديد، ومهما حصل في أي دولة من أحداث دون السيطرة على العاصمة، فإن العاصمة تظل هي حجر الزاوية في بقاء نظام الحكم أو زوال نظام الحكم، فإذا استطاع نظام الحكم أن يسيطر على العاصمة فقط ولا يسيطر على بقية الأطراف فإنه يبقى قائما، ولا يقال عنه بأنه قد سقط، مهما فقد من الأطراف والأقاليم، بينما إن استطاع الاحتلال مثلا، أو استطاعت الثورة أن تسيطر على العاصمة، فهنا يعتبر النظام قد سقط، وخضعت العاصمة للسلطة الجديدة.

فدخول النبي ﷺ إلى مكة إذن، هو الذي جعل الإسلام في مرتبة عالية سياسيا، وأتي بوفود العرب إليه يدخلون في دين الله أفواجا، مما يعني دخولهم تحت سلطة الدولة الإسلامية، وخضوعهم لنظامها السياسي، إذ إنه ليس في الإسلام فارق بين الدين والدولة، فالدخول في الإسلام هو دخول في نظام الإسلام، وفي دولة الإسلام كذلك.

وقد شهد العام الثامن أيضا -إضافة إلى فتح مكة- فتح مدينة الطائف، والتي كانت بمثابة العاصمة الثانية في بلاد الحجاز، ليأتي العام التاسع ليكون هو العام الذي توافدت فيه قبائل العرب تباعا على المدينة النبوية، وظل تتابع الوفود القادمة إلى المدينة لمبايعة رسول الله على الإسلام حتى وفاته ﷺ في العام الحادي عشر من الهجرة.

يقول **إميل درمنغم**: «والعرب، بعد أن ظلوا، في الغالب، ساكتين إزاء ما كان يقع بين المدينة ومكة من القتال صاروا ينحازون إلى النبي المنصور»[1].

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٦١.

ويقول **جاك ريسلر**: «جاءت وفود من كل الجهات تبايعه كأمير نبي، صار من الآن فصاعدًا سيد الحرم المقدس، وهكذا استسلمت لمحمد، سنة ٦٣١ م، الجزيرة العربية التي لم تكن قد خضعت من قبل لأي رجل واحد، لقد هزم الإسلام الوثنية الشرقية، وصار هو ذاته دين الدولة»[١].

وقد كان هذا إنجازا كبيرا حققه النبي ﷺ، فلأول مرة في تاريخ جزيرة العرب، تتوحد جزيرة العرب تحت راية واحدة، وتخضع لرجل واحد، فالعرب كانوا يأنفون من الملك، ويأنفون من الخضوع للنظام، ويتطرفون في مسألة الاعتزاز بالنفس، والاستقلال الذاتي حتى لم يعد يجمعهم نظام سياسي ولا جيش نظامي، فكانت هذه هي اللحظة الأولى التي يندرج فيها العرب تحت نظام واحد، تحت قيادة رجل واحد.

ويقول **كلود إيتيان سافاري**: «كان العام التاسع الهجري متميزا بالسفراء الذين جاءوا نبي الإسلام صاغرين، فقد كان جلّ أمراء القبائل حتى ذلك الحين يقومون بدور المتفرج أمام المعارك التي دارت بمكة أو بالمدينة، وكانوا ينتظرون حكم النصر الفاصل لكي يحددوا موقفهم، فما إن تحدد النصر ورأوا قريشا –وقد كانت تتمتع بإجلال العرب لها بصفتها الأمينة على الدين وحارسة الأراضي المقدسة– قد خفضت جبينها لقانون الإسلام، جاء المشركون أفواجا يقدمون الولاء للمنتصر ويبايعونه على الطاعة»[٢].

نفس هذا الموقف يعلق عليه **ألفونسو دي لامارتين** قيقول: «وأطلق على السنة التاسعة لهجرة محمد سنة الوفود، وكانت تلك السنة عنده سنة الحصاد، فقد انغرست وحدانية الله في كافة أرجاء جزيرة العرب، وفيما جاورها، وكانت الطرق تغطيها القوافل التي كانت تأتي المدينة لتقديم آيات الولاء لمحمد، ثم تنقل ديانته إلى أهل الشرق»[٣].

---

(١) ريسلر، الحضارة العربية، ص٣٧.

(٢) سفاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٢١٢.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١١٣.

وبطبيعة الحال، فإن دخول القبائل العربية في الإسلام دينا ودولة، قد أدى إلى توسع الدولة الإسلامية توسعا مفاجئا، وهنا ستظهر المزيد من الأعباء التي ستحملها الدولة الإسلامية، وستضاف إلى حمل النبي ﷺ كزعيم سياسي للدولة.

يلتفت **ناصر الدين دينيه** إلى مسألة الأعباء التي أضيفت إلى الدولة الإسلامية وما كان على النبي ﷺ من متابعة وتنظيم شؤون هذه القبائل المترامية في الجزيرة العربية فيقول: «أقام الرسول بالمدينة حيث شُغِل بتلقي الاستسلامات الكثيرة التي أثارتها انتصارات الإسلام، وأهم هذه الاستسلامات استسلام أمراء دومة الجندل واليمن وعمان، وكذا أمراء الحيرة واليمامة والطائف ونجران.. إلخ! وكان فوق ذلك يصرف جهوده في تلك الحكومة الشاقة، حكومة العرب الذين اتحدوا لأول مرة في تاريخهم، فكوّنوا دولة متآخية الأفراد، فأبان الرسول في عمله هذا، كمُشَرِّع ومصلح، عن براعة توازي على أدنى تقدير براعته كقائد على رأس جنده»[1].

إن هذا الجمع الذي جمعه النبي ﷺ بين شخصيته كنبي ومصلح اجتماعي وأخلاقي، وبين شخصيته كقائد حربي قام بالمعارك وانتصر فيها، وبين شخصيته كزعيم سياسي للجزيرة العربية كلها -وليس فقط كزعيم لأتباعه-، قد أثار إعجاب الجميع، وهو بالطبع شيء نادر أن يجمع شخص واحد بين هذه المواهب جميعا

يقول **كلود إيتيان سافاري** في التعليق على مسألة عام الوفود وما أضيف للنبي من أعباء: «لم يكن محمد دون مشاغل بالمدينة، فقد شغل باستقبال الوفود ذوي الرؤوس المتوجة، وفي إرسال قواده إلى المناطق التي استولى عليها، وبعث آخرين على رأس الحملات العسكرية التي يقتضيها سلطانه، واهتم بتوجيه السلطة والنظام والترابط بين أجزاء هذه المملكة الشاسعة، التي سوف تبسط نفوذها على جزء كبير

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٠٣.

من العالم، لقد كان عظيما في إدارة الشؤون السياسية الهادئة، كما كان عظيما وهو على رأس الجيش»[1].

أما الباحثان الفرنسيان جان كلود بارو وغيوم بيغو، فقد ألفا كتابا اسمه (التاريخ الكامل للعالم، منذ ما قبل التاريخ إلى يومنا هذا)، وهو كتاب من جزء واحد، حاولوا أن يختصروا فيه تاريخ العالم، وتوقفوا عند هذه اللحظة التي جمع فيها النبي ﷺ بين هذه الصفات جميعا -نبيا ومصلحا، وقائدا عسكريا، وزعيما سياسيا-، فقالا: «كان النبي محمد هو الوحيد من بين مؤسسي الأديان الذي كان في الوقت ذاته قائدا سياسيا وحربيا، وهي ثلاث وظائف تكون منفصلة عادة، ولم يؤسس محمد دينا وحسب، وإنما أسس دولة أيضا، موحدا قبائل العرب التي كانت من قبل متفرقة دائما، وقاد الجيوش أيضا»[2].

وهم يقصدون وظيفة النبوة من حيث أنها وظيفة دينية، ثم القيادة والزعامة السياسية، إضافة إلى القيادة الحربية والعسكرية، فإن هذه الوظائف عادة ما تكون منفصلة، ولا يجمعها شخص واحد.

نستطيع أن نقول أن هذا العام التاسع من الهجرة كان عام الحصاد، حيث بدت -ولأول مرة- ملامح تَشكُّل فترة جديدة في التاريخ، وهي فترة اتحاد هؤلاء العرب الذين ظلوا دائما مهملين وعلى هامش التاريخ، ويتناوش الفرس والروم المساحات المحيطة بهم، ويستعملون ويستعبدون من كان قريبا منهم وفي جوارهم، فكان هذا العام التاسع من الهجرة عاما فارقا في تاريخ الإنسانية جميعا، حيث أنه أسس للحظة

(١) سفاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٢٢٥.

(٢) جان بارو وغيوم بيجو، التاريخ الكامل للعالم، ص٩٣.

فارقة في تاريخ العرب والمسلمين، حيث ستبدأ فيه موازين القوى التي كانت مستقرة وجارية على رقابهم عقودا طويلة تنقلب رأسا على عقب كما هو معروف في تاريخ الفتوحات والتوسع الإسلامي على حساب فارس والروم، ولم يبق بعد ذلك إلا أن يعلم النبي ﷺ هذه الجموع أمر دينها، وهو ما كان بشكل أساسي من خلال من أرسلهم من الدعاة والعمال، فالدعاة يعلمون الناس الدين، والعمال يمارسون الإدارة، كجمع الزكاة والخراج وإنفاذ الأحكام وغيرها من المهام الإدارية، ثم حان الوقت ليجمع النبي ﷺ هؤلاء الناس جميعا في حجة الوداع.

حجة الوداع

جاء موسم الحج من العام العاشر من الهجرة، فنادى النبي ﷺ في الناس بالحج، وقد كانوا يتشوقون إلى الحج مع رسول الله ﷺ، وخرج بهم إلى ما عرف فيما بعد بحجة الوداع، وهي الحجة الوحيدة التي أداها النبي ﷺ.

كان النبي ﷺ قد أمر ببعض التغييرات في مناسك الحج التي كان يتبعها المشركون، وذلك بعد فتح مكة ودخول بيت الله الحرام تحت النفوذ الإسلامي، فقد بعث النبي ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرا على الحج في العام التاسع من الهجرة، وأمره أن ينادي في الناس ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، فأزال النبي ﷺ مظاهر الجاهلية من حول الكعبة، ثم جاء حج النبي ﷺ في العام العاشر، لتكون المناسك التي يؤديها النبي صلى الله هي المعبرة عن شعيرة الحج في الإسلام، وفيه قال النبي ﷺ: «خذوا عني مناسككم»[1]، وهذه المناسك النبوية هي التي يمتثلها المسلمون إلى اليوم في حجهم لبيت الله الحرام، وهذه الحجة هي التي ألقى فيها النبي ﷺ خطبة يوم عرفة الشهيرة، والتي عرفت بخطبة الوداع، والتي سرد فيها النبي ﷺ أهم معالم هذا الدين.

يصف **إميل درمنغم** مشهد خروج النبي ﷺ، ومعه المسلمون إلى الحج فيقول:

---

(١) مسلم (١٢٩٧).

«خرج النبي من المدينة إلى مكة حاجًّا في السنة العاشرة من الهجرة، وخرج معه تسعون ألف حاج جاءوا من جميع أنحاء العرب، وتجلت بهذه الرحلة الباهرة ما وصلت إليه من العظمة والسؤدد رسالةُ ذلك النبي الذي نهكه اضطهاد عشر سنين وحروب عشر سنين أخرى بلا انقطاع، وهو النبي الذي جعل من مختلف القبائل المتقاتلة على الدوام أمةً واحدة»[1].

يا له من مشهد مهيب عظيم، هذا الذي يجتمع فيه ٩٠ ألفا من العرب، أولئك القوم الذين لم يكن من الممكن أن يجتمعوا تحت أي ظرف، ولا أن تجمعهم راية واحدة، أو تحتويهم فكرة جامعة، ولكن الله جمعهم تحت راية رسوله، بكرامة الإسلام.

يقول **جان بروا** في كتابه «محمد نابليون السماء» في وصف هذا الجمع: «هذه أكبر تعبئة تجتمع في العاصمة وتخرج منها فيالق فيالق، وعلى رأسها محمد، تعبئة لم تشهد مثلها جزيرة العرب من قبل ولم تسمع»[2].

يواصل **جان بروا** في وصف هذا المشهد الذي خرج فيه الناس حجاجا، يلبسون الثياب البيض، التي هي ثياب الإحرام، فيقول: «تسعون ألفا يؤمون بيت الله ملبين نداء الله، أمواج كأمواج البحر، صافية صفاء اللؤلؤ والماس، قد نضرت وجوههم، وصفت قلوبهم، وطرحوا كل شهوات الدنيا وراءهم ظهريا، ومشوا في موكب رسول الله، تنفحهم أنوار السماء بعطورها، وتظللهم الأملاك بأجنحتها»[3].

ثم يتوقف جان بروا كذلك عند اقتداء هذه الشعوب بالنبي ﷺ، وكيف أن هذا يعتبر مظهرا من مظاهر النظام، ثم هو مظهر من مظاهر عظمة النبي ﷺ كذلك، حيث ترنوا إليه الأبصار وتقتدي بفعله هذه الألوف الكثيرة، يقول: «كان محمد هو المثل الأعلى لتلك

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٥٩.

(٢) جان بروا، محمد نابليون السماء ص١١٦.

(٣) جان بروا، محمد نابليون السماءن ص١١٦.

الجماهير والقدوة المحتذاة، يراقبون أعماله وحركاته وسكناته وكل ما يفعل أو يتكلم به، إنهم يطوفون كما يطوف، ويصلون في مقام إبراهيم كما صلى، ويلثمون الحجر أو يشيرون إليه عند بدء الطواف كما فعل، ويسعون بين الصفا والمروة، ويقفون في عرفات كما وقف، ويستمعون إلى أكبر خطبة عالمية خالدة عرفتها الإنسانية منذ نشأتها إلى اليوم»[1].

يعلق **ناصر الدين دينيه** على ما جاء في هذه الخطبة -خطبة الوداع-، ويقف عند قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وهي الآية التي تجلت فيها عظمة النعمة الربانية، وتمام المنة الإلهية على هذه الأمة، حيث بها كمل الدين وتمت شرائعه، فيعلق **ناصر الدين دينيه** على هذه الآية فيقول: «جاء ذلك الوحي: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.. الآية؛ ختاما لخطبة الرسول التي أثارت عواطف المؤمنين، فأيقظ في الناس التحمس المخلص والإخلاص الحار، بيد أن أبا بكر لم يشارك الناس في فرحهم، بل تملكه حزن شديد، ولم يقدر على كبت عبراته، إذ رأى أنه ما دامت نعمة الله قد تمّت، فإنها -على مجرى السنن الإلهية- ستأخذ في النقصان، وعرف أن رسالة محمد قد انتهت، فخشي أنه عن قريب، يتسامى عن هذه الدنيا فيتركها ويختار الرفيق الأعلى»[2].

وهذا كان من فقه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكان هو أول -وربما الوحيد من بين الصحابة- الذي التقط أن تمام الدين يعني أن يبدأ الأمر في النقصان، وأن رسالة النبي تمت، وبذلك يكون قد اقترب أجله ﷺ، فلذلك بكى أبو بكر رضي الله عنه، وقد أيد هذا الشعور لدى الصديق قول رسول الله ﷺ للناس وهو ينادي فيهم: «أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا في هذا الموقف»، وفي نهاية خطبته كان يقول: «اللهم هل بلغت، فيقولون اللهم نعم، فيقول اللهم فاشهد»، فكان في هذا الكلام

(١) جان بروا، محمد نابليون السماءن ص١١٧.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٠٨.

دلالة على قرب رحيل النبي ﷺ.

يقول إميل درمنغم عن ذلك: «قال النبي منذ قليل: «اللهم هل بلغت؟»، فالحق أن النبي لم يعرف الراحة ولا السكون بعد أن أوحي إليه في غار حراء، فقضى حياة يعجب الإنسان بها، والحق أن عشرين سنة كفت لإعداد ما يقلب الدنيا، فقد نبتت في رمال الحجاز الجديبة حبةٌ سوف تجدد، عما قليل، بلاد العرب وتمتدّ أغصانها إلى بلاد الهند والمحيط الأطلنطي»[1].

أما المؤرخ الفرنسي **لويس سيديو** في كتابه «خلاصة تاريخ العرب» فيُجْمِل وصف هذه الحجة فيقول: «تسمى هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لما فيها من تبليغ المناسك للمسلمين وحصولها بعد عزة الإسلام وشيوعه، وتوديع النبي فيها المسلمين ومكة، لأنها آخر حجة، وما زال المسلمون يقتدون به في ذلك فيُهرعون كل سنة إلى مكة ويؤدون مناسك الحج حسب الشروط والآداب المعلومة من الشرع الشريف»[2].

وهنا يلتقي أثر النبي ﷺ الوقتي، يعني في وقته ومكانه الذي عاش فيه، بأثر النبي ﷺ الممتد عبر الزمان، وقد أشار إميل درمنغم -كما ذكرنا قبل قليل- أن هذه الحجة كانت هي تمام البذرة التي قلبت الدنيا فيما بعد، تلك البذرة التي ألقيت في صحراء الجزيرة العربية، فأنبتت شجرة الإسلام التي امتدت فروعها إلى المحيط الهادي والمحيط الأطلنطي.

ومن امتدادات هذا الأثر أن المسلمين مازالوا حتى اليوم يؤدون مناسك الحج كما أداها النبي ﷺ، فما وضعه النبي ﷺ في ذلك الوقت في تلك الصحراء لا يزال مستمرا بعد

(١) درمنغم، حياة محمد، ص٣٦٨.

(٢) سيديو، خلاصة تاريخ العرب، ص٦٥.

أكثر من ١٤٠٠ سنة من وفاته ﷺ، وهو ما يثير كثيرا من التأملات، وكان بعض هذه التأملات ما قاله **جان بروا**، إذ يقول: «وقد مرَّ على الإسلام ثلاثة عشر قرنا والناس يتدافعون في كل عام على طائراتهم وسياراتهم وعلى مراكبهم المختلفة من أوروبا الوسطى ومن الهند والصين ومن أعماق إفريقيا ومن أقصى بلاد الترك، من كل فج عميق، يؤدون فريضة الحج كما أداها محمد منذ ثلاثة عشر قرنا، ولئن قادهم محمد في المرة الأولى بنفسه، فإنه لا يزال يقودهم بروحه العالية الطهور، وبمثله الإنسانية العليا، وبأخلاقه الكريمة، وتسامحه النادر»[1].

فالحج بمثل هذا المعنى إنما هو دليل على بقاء هوية الأمة كما هي، وأنها أمة واحدة، وأنها تجتمع على عبادة واحدة، في زمان واحد، في مكان واحد، تأتي إليه من كل فج عميق، فانتشار الإسلام هذا الانتشار الواسع عبر القارات البعيدة والشعوب المختلفة والأمم الكثيرة قد جمع الناس المنطوين تحت رايته، ولإن تقطعت الأمة سياسيا بفعل الاستعمار والاحتلال والتغيرات السياسية، فإنها تجتمع فيما سوى ذلك، ذلك لأن وحدة الأمة وهوية الأمة نابعة من دينها وعقيدتها، وهي غير قابلة للاستئصال، ولذلك تمنى كثير من المبشرين والمنصرين أن تهدم الكعبة، وأن يُمنع الحج، لأن بقاء الكعبة واستمرار حج المسلمين إليها، يظل هو المركز الذي يعيد المسلمين مرة أخرى إلى وحدتهم، ويجدد لهم معاني الأخوة ووحدة الهوية والدين فيما بينهم.

ثم نختم بما قاله **ناصر الدين دينيه** وهو يتحدث عن المزايا التي تميز بها حج المسلمين، وما لهذا الحج من الآثار، فيقول: «الميزة الخاصة التي يمتاز بها حج المسلمين هي عدم وجود تلك المعابد الكثيرة ذوات القباب الضيقة التي تحبس الأرواح، وتقفها في وثبتها إلى الخالق، فتبقيها على الأرض رهن رحمة القسيس، ويمتاز أيضا بانعدام جيش القديسين العرمرم، الذي تشغل عبادته عن عبادة «الإله الخالد» الذي يُنسى

(١) جان بروا، محمد نابليون السماء ص١١٧.

عادة في مثلك تلك الأوقات – وأخيرا، فالذي يمتاز به الإسلام، انعدام القسس، ورجال الدين على اختلاف درجاتهم، الذين يتحاسدون ويتنافسون في اجتذاب الحجاج، والاستيلاء على أمكنة الحج لإرضاء وتمجيد طوائفهم، أو درجات كهنوتهم»[1].

وهذا التعليق نابع في الحقيقة من مقارنة ما يحدث في حج المسلمين، بما يحدث في الكنائس الغربية، وبما يحدث أيضا في بعض الديانات الشرقية، فهي يغلب عليها تأليه الصور والتماثيل، وكذلك ما يحصل عليه الكهنة والرهبان والأحبار والقساوسة من مظاهر التعظيم، وقيامهم بالعبادة نيابة عن عموم الناس، وكل هذا ليس موجودا في الحج في الإسلام، فالحج في الإسلام هو رحلة شخصية، رحلة روحية، رحلة يستطيع كل مسلم أن يقوم بها بنفسه، ويرجع أثرها عليه هو نفسه، ولا تستطيع طائفة من الطوائف أو مذهب من المذاهب، أو رجال دين وكهنة، أن يجنوا من ورائه أموالا، أو يحصلوا قيمة أو كهنوتا جديدا يضاف إليهم بسبب وساطتهم في الحج مثلا.

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣١٠.

وفاة النبي

لا يخفى على أحد أن لحظة وفاة النبي ﷺ هي من أشد اللحظات صعوبة في تاريخ الأمة، وأن الحديث عنها يثير الشجون والبكاء في نفس المسلم، والنبي ﷺ كان يقول لأصحابه: «إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبته بي فإنها من أعظم المصائب»[1]، فأي مسلم تصيبه مصيبة حين يتذكر مصيبته بفقد النبي ﷺ فإن مصيبته تهون عليه!

لذلك سأكتفي في هذا الفصل بإيراد النقولات والتعليقات عن المستشرقين الفرنسيين حول وفاة النبي ﷺ، وما الذي تذكروه عند لحظة وفاة رسول الله ﷺ، وكيف استعرضوا هذه اللحظة التي هي لحظة نهاية حياة أعظم رجل في تاريخ البشرية، وسيظهر لنا من هذه النقولات كيف كانت شخصية النبي ﷺ تسيطر على كاتبها وإن لم يكن مسلما، فأي إنسان يبدأ في دراسة سيرة رسول الله ﷺ دراسة علمية، يريد أن يصل بها إلى الحق والحقيقة، فإن شخصية النبي ﷺ تستولي عليه وإن لم يكن عربيا، وإن لم يكن مسلما.

نبدأ من **هنري دي كاستري** -الذي ذكرنا أنه كان من رجال الإدارة الفرنسية في الجزائر ولم يسلم، وإنما كتب كتابه «الإسلام خواطر وسوانح» تأثرا بأخلاق المسلمين في الجزائر- يقول عن هذه اللحظة: «ولما أحس بقرب الأجل، ذكر الفقراء، فإنه لم يرغب

(١) ينظر: صحيح الجامع الصغير (٣٤٧).

طول حياته في المال، بل كان كلما اجتمع إليه شيء منه أنفقه في الصدقات، وكان قد أعطى عائشة يسيرا لتحفظه، فلما حضره المرض أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته، وغاب في سِنَة، ولمّا أفاق سألها إن كانت أنفذت أمره، فأجابته: كلا، فأمر بالنقود، وأشار إلى العائلات المعوزات، فوزع عليهم وقال: الآن استراح قلبي؛ فإنني كنت أخشى أن ألاقي ربي وأنا أملك هذا المال»[1].

وهذه واقعة ثابتة صحيحة، أن النبي ﷺ تصدق بما كان لديه من المال قبيل وفاته.

ويصور **كلود إتيان سافاري** كيف شاع خبر وفاة رسول الله في المدينة فيقول: «بهذا النبأ غرقت المدينة في حزن شامل، والصورة التي ينقلها إلينا المؤلفون المعاصرون لهذا الحداد العام الذي غطّى المدينة صورة مروعة للغاية، وتدل على مقدار ما كان يتمتع به محمد من نفوذ على العقول»[2].

أما **ناصر الدين دينيه** فيصور حالة المدينة بعد دفن النبي ﷺ فيقول: «انتهى المؤمنون من دفن نبيهم في منتصف الليلة الفاصلة بين يومي الثلاثاء والأربعاء، فلما نادى بلال في فجر اليوم التالي بالمؤمنين إلى الصلاة، وأراد أن يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله!، اختنق صوته بالعبرات فلم يقدر على لفظ اسم محمد، وجاوبته المدينة بأسرها، كأنها الصدى، بأنة أسى طويلة، ارتفعت إلى السماء من نوافذ الديار»[3].

وإذا جئنا للحديث عما تذكره أولئك المستشرقون عن النبي ﷺ في لحظة وفاته، فنجد **إميل درمنغم** يقول: «وعلى ما في محمد من ميْلٍ إلى النعيم الحسِّي، لم يكن طمّاعاً ولا صلفا ولا شديدا عن حرص أو تعصب، وكان حليما رقيق القلب رحيما، مترددا عند عدم الوحي، رؤوفا بالجميع، بسيط المظهر على الدوام، وما أكثر ما كنس غرفته بيده، ورقع

---

(١) هنري دي كاستري، ص٥٧.

(٢) سفاري، مختصر حياة محمد (السيرة النبوية وكيف حرفها المستشرقون)، ص٢٥٦.

(٣) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٤.

ثيابه وخصف نعله وحلب نعاجه بنفسه، واستلقى على أرض المسجد ونهض ليفتح الباب لهرة، وعالج ديكًا مُسِنًّا، ومسح عرق فرسه بكمّه وتصدق بما يتجمع لديه من النقود، وكان يتجنب كل ما يمكن أن يبدو به ملكا في هذه الدنيا، وكان ينهى عن تلقيبه بالملك وما إليه، وكان لا يُرى له بلاط ولا وزيرٌ خلا بضعة مستشارين وبضعة كُتّاب وخاتما فضيا منقوشا عليه: محمد رسول الله»[1].

وأتصور أن درمنغم يقصد بميل النبي إلى النعيم الحسي قوله ﷺ: «حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب»[2]، وأن النبي ﷺ كان يحب من اللحم ذراع الشاة، وكأنه يريد أن يقول إن النبي لم يكن مترهبا، وإنما كان إنسانا يميل أيضا إلى النعيم الحسي، وهذا من كماله البشري ﷺ.

ويتأمل **هنري دي كاستري** في حياة النبي ﷺ فيقول: «كان قنوعا، خرج من هذا الباب (أي: توفي)، كما رواه أبو هريرة، ولم يشبع من خبز الشعير مرة في حياته، (هذا هو النبي الذي قال عنه المنشدون من النصارى: إنه كان نَهِمًا، يأتي المغيبات في الحانات)، تجرَّد من الطمع، وتمكن من نوال المقام الأعلى في بلاد العرب، ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها، فلم تكن له حاشية –ولم يتخذ وزيرا ولا حشما– وقد حاز المال والمعالي، وبلغ من السلطان منتهاه، ولم يكن له من علامات الإمارة والملك سوى خاتم من الفضة مكتوب عليه: محمد رسول الله»[3].

ويقول **ناصر الدين دينيه**: «كانت المعاني تتدفق غزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة، التي تعبر عن مراده خير تعبير، أما سحر بيانه فكان شيئا إلهيا، يغزو القلب ويأسر اللب،

---

(١) درمنغم، حياة محمد، ص١٨٦.

(٢) أحمد (١٤٠٦٩)، النسائي (٣٩٤٠)، وصححه الألباني.

(٣) هنري دي كاستري، الإسلام، ص٥٢، ٥٣.

ولا يقوى أحد على مقاومته»[1].

أما الشاعر والدبلوماسي **ألفونسو دي لامارتين**، فيقول: «كانت حياته حياة القناعة والشظف، بل والزهد، حياةً مفعمة تأملا وصلاة وصوما وخشوعا لله، وهَوْنًا في المشي، ومواظبة على المسجد، وتطهرا وسجودا على الرمل ووعظا ودعوة إلى سبيل الله، ولم يكن يبدي –في علاقته بالناس– ترفعا، عدا ما يلوح عليه من قداسة النبوة، ولم يكن فيه ولا حوله ما ينبئ بأنه ملك أو غازٍ، فقد كان كل ما فيه ينم عن النبي المرسل»[2].

ويواصل **ألفونسو دي لامارتين** أيضا: «كان يعيش على التمر ولبن ماشيته التي لم يكن يأنف من حلبها بنفسه، ولم يكن يستعين بغلمانه فيما يشق من أشغال بيته، إلا قليلا، فقد كان يرد الماء ويكنس بيته، وكان يجلس على حصير ويخصف نعله ويرقع ثوبه القديم»[3].

ويتحدث **ناصر الدين دينيه** عن أخلاق النبي ﷺ فيقول: «وكان هادئ الخلق حليم الطبع، لا تكبر فيه ولا خشونة، لا يدعوه أحد إلا أجابه في الحال، يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صدره الكريم»[4].

ويقول أيضا: «منذ اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، للعام الحادي عشر الهجري، ٨ يوليو سنة ٦٣٢م، يرقد في هذا المكان الذي فاضت به روحه الشريفة، جثمان ذلك الإنسان السامي، الذي كان على الأقل، لا ينزل قدره عن قدر أعاظم الأنبياء والملوك، والقواد والمتكلمين والفقهاء والخطباء والفلاسفة، والذي أصبح دينه الآخذ في الانتشار

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٦.

(٢) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٠.

(٣) لا مارتين، مختارات من كتاب حياة محمد، ص١٢٠.

(٤) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٦.

باطراد، يضم اليوم ثلاثمئة مليون من الأتباع»[1].

وهذا العدد المذكور أنما هو في الوقت الذي كتب فيه دينيه كتابه، أما الآن فعدد المسلمون حوالي مليار و٧٠٠ مليون مسلم حول العالم.

ويواصل **دينيه** ذكر محاسن رسول الله ﷺ، فيقول: «وكان يرعى شؤون الجميع، سواء في ذلك الأشراف والعبيد، بعطفه، وقد روي أن الناس أغفلوا مرة إخباره بموت خادمة فقيرة تعمل في المسجد، فغضب لذلك غضبا شديدا، وسأل عن المكان الذي دُفِنَتْ فيه حتى وجده، فجلس يصلي على الميت»[2].

وهذه الحادثة رواها البخاري ومسلم في صحيحيهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد، ففقدها رسول الله ﷺ، فسأل عنها، فقالوا: مات، قال: أفلا كنتم آذنتموني، قال: فكأنهم صغروا أمرها، فقال: دلوني على قبرها فدلوه، فصلى عليها، ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم.

ونختم بهذا النقل عن **ناصر الدين دينيه** الذي كأنما كتبه وهو يتأمل قبر النبي ﷺ، حيث يقول:

«زيارة قبر الرسول ليست من فروض الإسلام، ومع ذلك فقليل من الحجاج الذين وصلوا إلى مكة متحملين المشقة والأخطار الخطيرة في سفرهم، من يترددون في تحمل المشقات طيلة اثني عشر يوما، كلها تعب وعناء، تفصل مكة عن المدينة، حتى يصلوا إلى صاحب القبر العظيم، يحملون إليه تحياتهم الحارة النقية»[3].

---

(١) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٥.

(٢) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٧.

(٣) دينيه، محمد رسول الله، ص٣٢٥.

ولقد كنت أرى من الشيوخ والعجائز من يقول: (يا رب ارزقني زيارة قبر النبي ﷺ) وهو يقصد بذلك الحج، فهو يريد الحج، لكنه يعبر عنه بزيارة قبر النبي ﷺ، وهذا يدل على العاطفة الجياشة التي شملت المسلمين تجاه رسول الله ﷺ، ويبين عمق الأثر الذي غرسه نبينا ﷺ في هذه الدنيا على مر السنون وتوالي القرون.

خاتمة

هذا وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ أو زلل أو نسيان فمني ومن الشيطان، وأسأل الله تعالى أن يجعله علما نافعا خالصا لوجهه الكريم، وأسأله تعالى أن يجمعنا مع القارئ الكريم في الدنيا على طاعته، ثم في جنته ومستقر رحمته ودار كرامته!

أستقبل ملاحظاتكم على هذا البريد:

moha.elhamy@gmail.com

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته